حائز على جائزة
دبلن للآداب 2004

الطاهر بن جلون

عشرُ ليالٍ وراوٍ

ترجمة
جان هاشم

دار الساقي

الطاهر بن جلّون

عشرُ ليالٍ وراوٍ

ترجمة

جان هاشم

دار الساقي

Tahar Ben Jelloun, *Mes contes de Perrault*
© Éditions du Seuil, 2014

الطبعة العربية
© دار الساقي 2016
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-891-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866 1-961+، فاكس: 443 866 1-961+
email: info@daralsaqi.com

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication de l'Institut français.

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

المحتويات

مقدمة	٧
جميلة الغاب النائمة	١٣
فتاةُ البرقع الأحمر	٤٩
أبو لحية زرقاء	٥٩
الهرّ أبو جزمة	٨٥
الجنِّيات	١٠٧
سندريلا	١٢٣
حكيم أبو خُصْلَة	١٤٥
الإبهام الصغير	١٦٣
إهاب الحمار	١٨١
الأماني الفارغة	٢١١

مقدمة

آوى أهلي في ما مضى امرأةً تدعى فُضيلة ادّعت أنها أخت غير شقيقة لجدّتي من والدي. وقد برعت في الكذب لدرجة كانت تُضحك والدي الذي سرعان ما أدرك أن زوجها وأولادها قد تخلّوا عنها لأسباب غامضة لم يحاول كثيراً استيضاحها.

سكنت فُضيلة إذن عندنا، وكان يطيب لها أن تروي لنا الحكايات، وقد أحببناها، أنا وشقيقي، كثيراً لأنها كانت تسيح بنا على أجنحة قصصها الخارقة، وفيها ينتصر الخير دوماً على الشرّ، والأوغاد قُساةٌ والجنّ يتمتّعون بكلّ أنواع القُدرات. تروي مغمضةً عينيها كأنّها تقرأ على صفحة من عمق روحها. تأسرنا بمنظرها وصوتها وتُذهلنا كلّما روَت. وإذا ما لاحظتْ أنّ الخوف بدأ يتسرَّب إلى نفوسنا توقّفت فوراً قائلةً: "هذه مجرّد قصص وأساطير لا أساس لها من الصحة، لا تخافوا."...

عنها أخذت كل ما أعرفه من **ألف ليلة وليلة**، وعندما قرأت لاحقاً هذا المؤلَّف الأساسيّ أدركت أنها كانت تعرفه تماماً من دون أن تقرأه، إلا أنها كانت تهمل المقاطع الأكثر مجوناً. فهي في النهاية

كانت تراعي وضعنا وإن كانت تعلم على الأرجح أننا قد نهتمّ أكثر بأخبار عربدات الأمراء والشياطين...

عندما سجّلني والدي في المدرسة الفرنسية المغربية الخاصة بأبناء وجهاء مدينة فاس، قال لي: "انتهى زمن تلفيقات عمّتك العجوز! وجاء أوان الجِدّ."!

كان يحلو لمدرّستنا، الآنسة بوجارينات، أن تقرأ لنا مرّةً في الأسبوع قصصاً مأخوذةً من كتابٍ مزيَّن برسومات لغوستاف دوريه بعنوان **نوادر بيرو** (*Les Contes de Perrault*) بعد أن تسجّل دوماً على اللّوح اسم مؤلِّف الكتاب ورسّامه. وإذا معلمتنا تحملنا إلى عالم الجنيّات والأمراء والحيوانات ذات القوى الخارقة والجزمات السحرية وغيرها من الغرائب. وكانت بالطبع أقلّ إقناعاً من فْضيلة وأقلّ موهبةً منها. لكنني كنت أجد نفسي منساقاً إلى الربط بين **ألف ليلة وليلة** وتلك القصص تُتلى علينا في إطارٍ مدرسيّ.

تخيّلت لاحقاً لو أنّ فْضيلة هي التي تروي حكايات بيرو، لغيَّرتها وأعملت فيها خيالها على سجيّتها وصبغتها بلون لحظات الوحدة والبؤس التي عاشتها قبل قدومها إلى منزلنا. أوَلَمْ يكن من الممكن أن تُطعِّمها بقصص من شرقٍ غريب الأطوار يسير به إلى الهلاك جنٌّ وبشرٌ متعطّشون إلى السلطة؟

وعلى الأرجح أنّ رغبتي هذه في اقتباس بعض حكايات شارل بيرو على طريقتي نابعة من كلّ هذه القصة التي لا تزال جليّةً في ذاكرتي، وعندما قرأتها مجدّداً لم أتمالك نفسي عن التفكير في عمّتي الكذوب العطوف المثيرة للشفقة. لقد كانت صاحبة خيالٍ

مدهش، ولو عرفت القراءة والكتابة لوضعت ربما مؤلَّفاً رائعاً. وتساءلت مثلاً: "كيف كانت ستروي قصة "إهاب الحمار"؟ هل كانت لتتجرأ على قول كل شيء عن صاحب اللحية الزرقاء؟ ما العبرة التي كانت ستستخلصها منها؟". مختصر الكلام أنّني تسلّلت داخل عقلها وسمحت لنفسي بتَشْريق تلك الحكايات، أي أنّي أضفت إليها نكهات وألواناً من بلدان مختلفة، وتخيّلات أخرى. وإن اخترت إطاراً لها بلداناً عربية وإسلامية فلأنّه آن الأوان لرواية هذه البلدان بعيداً عن سمات الفاجعة والمأساة ومن خارج سياق التعصّب والإرهاب وما توصم به. لكنّ هذا لا يمنع بالتأكيد انتقاد المجتمع والإشارة إلى ما يسوده من تنافرٍ ورياء.

وقد احتفظت ببنية الحكاية الأصليّة وخرجت عن النصّ، وهذا ما استهواني في العمل، أي أن أكسو الهيكل العظمي جسداً وروحاً من زمنٍ آخر، ومن عالم في حقبةٍ غير محدَّدة، لكنه يعنينا اليوم بشكل أو بآخر. وفيما أنا أكتب كان يُحوّم فوقي وجه فْضيلة المخدَّد وعيناها الغائرتان، وليس أنها كانت تتراءى لي من ليلها المدلهمّ وحسب، بل كنت أسمع صوتها يُملي عليّ ما يجب أن أكتب، حتى ليمكن تصوّرها جنيّةً أفلتت أخيراً من المتاعب التي حكم بها القدر عليها. فبشكلٍ ما هي انبعثت بفضل شارل بيرو.

ومن المعروف أن نجاح هذه الحكايات تجاوز الحدود حتى ترسّخ في مخيّلة العالم كله جماعةً وأفراداً. لكن ليس مردّ هذا التألّق إلى مضمون الحكايات بحدّ ذاتها، بل إلى عبقرية بيرو الأدبية وقد طمح إلى الردّ بطريقته على التحدّي الذي أطلقه لافونتين وأمثاله

القصصية في وجه أدباء عصره. ولأنّ تلك الحكايات شكّلت عملاً أدبياً ثَرّاً لا يضاهى فهي استمرَّت خالدة عبر القرون والقارّات.

وهذه الحكايات التي كُتبت بمعظمها ابتداءً من العام ١٦٩١ لم تفقد رونقها البتّة. وهي، منظومةً كانت أم منثورة، ما تزال تمتعنا وتبهرنا. وإن كان خطر لي أن أقتبسها فليس فقط لأنّ تشابهها مع **ألف ليلة وليلة** ظاهرٌ بشكل جليّ (صدرت ترجمة أنطوان غالان العام ١٧٠٤)، بل لأنها تشكّل لكاتب اليوم تحدّيَ خوضِ المجازفة بكلّ حرية ومتعة ووفق شروطٍ دقيقة.

ولم تَغِب عن بال شارل بيرو، الأكاديمي والمسيحيّ الصالح، ضرورة "تسلية الناس كأولاد" ومنحهم "متعة القراءة". كأنّه يتجاوب بشكلٍ ما مع أبيات لافوتين هذه:

لو رُوِيت لي حكاية "إهاب الحمار"
لغمرتني متعةٌ قصوى
أظنّ العالم عجوزاً كما يقال، ومع ذلك
ما يزال بحاجة إلى تسلية كالأولاد.
(القصص الأمثال، VIII، 4)

لم أحاول أن أستخلص من كلّ حكاية مغزًى، فهذا لا يتماشى مع عصرنا وقد تأتي نتيجته سلبية، لذلك اكتفيت بمسلّمة بسيطة متواصلة من زمن سقراط إلى سيوران مروراً بسبينوزا: يواظب الإنسان على ما هو عليه ولا شيء يغيّره، لا في وحشيته القصوى ولا في طيبته اللامتناهية.

اعتمد شارل بيرو على "غفلة المنطق" لكي يؤمّن التمتّع بقصصه عن الغيلان والجنيّات. ولا تستدعي منّا هذه الحكايات الموجّهة إلى الأولاد وأهلهم على حدٍّ سواء طرح الكثير من الأسئلة. مع أننا نعلم أن حقبتنا لا تخلو من الغيلان والغولات بشخصياتها الصادمة، كلّ هؤلاء المخاتلين ووحوش الأنانية والمستخفّين الذين يهيمنون على العالم ويشيخون حتى الموت بشكل طبيعي.

أخيراً، إن العبرة الوحيدة التي يعلمنا إيّاها التاريخ هي أنه يجب، في كلّ مكان وفي جميع الظروف، إبقاء البصيرة والحذر في حالة تيقّظ. فعلى مرّ الأزمنة، لم يتعامل الإنسان كحيوان جارح مع أبناء جنسه بل كان، بشكل أبسط، مخلصاً لنفسه كـ"إنسان لأجل الإنسان". ومع ذلك جاءت الأضرار أشدّ فظاعة.

وبعد، إنّ تمكّني من إعادة كتابة تلك الحكايات بهذا القدر من الحرية يعطي فكرة عمّا أدين به لمن ابتكرها وأعطاها الشكل المناسب.

الطاهر بن جلّون

كانون الثاني / يناير، ٢٠١٤

١

جميلة الغاب النائمة

كان في قديم الزمان ملكٌ وملكة يعيشان في حالة من الحزن والتعاسة لأنهما لم يتمكّنا من إنجاب ولد. وقد جرّبا كل الوسائل عاملَيْن بإرشادات الكثير من الأطباء والقابلات وحتى بعض السحرة. وحتى أنّ أحد أمناء الملك نصحه باتّباع نظام غذائيّ خاص جداً، وعلى الأخصّ أن يأكل في أوقات محددّة وهو ممسكٌ بيد الملكة، لكن من دون جدوى. وفي أحد الأيام انتقل الملك وزوجته إلى جبل "الطفولة" حيث أقاما سبعة نهارات وسبع ليالٍ يشربان من مياه "نبع الحياة" المالحة الفاترة، فيصابان غالباً بالغثيان ويتقيّآن من دون تذمّر. وعند عودتهما إلى القصر أدّيا صلواتهما قبل أن يدخلا مخدعهما.

بعد فترة، وإزاء محاولة أخرى فاشلة، أوحى حمزة الشهير، وزير الملك الطاعن في السنّ الذي أنجب ستة عشر صبياً وبنتاً، بأنّ سرّ الخصوبة يكمن في الصمت والتأمّل. وبالرغم من أنّ الملك لا يثق كثيراً بحمزة فقد وافق على أن يلزم الصمت مدّة أسبوع. فانعزل مع

زوجته في جناحهما الخاص ولم ينبسا بكلمة، بل كانا يتفاهمان بالإشارات وينفجران أحياناً بالضحك مثل ولدَيْن مقاصَصيْن. ومرّ الوقت ولم يتغيّر شيء...

ثم راحا يستشيران أطباء الشرق والغرب من جدّيّين ودجّالين، وقابلات سمينات، وعرّافين عميان، وبعض الغجر المارّين بالمكان، ورعاة من حرّاس أضرحة الأولياء، وشحاذين محترِفين وجنّيات معروفات وأخريات خفيّات. فاضطرّا إلى أكل بيض الحيّات وعيون النعاج وأمعاء الكلاب وانتهى بهم الأمر إلى ابتلاع طبقٍ كبير من "الكسكس" فُرِك دقيقه بيد ميتٍ اشتُهر بكرمه وطيبة قلبه.

وفي يوم جمعة، تماماً في موعد صلاة الظهر، أطلقت الملكة صيحة فرح هرع لها كل سكان القصر. لم يُعرَف أكانت صيحةً أم صراخاً، ترنيمةً أم دعاءً لله وأنبيائه. فقد ظهرت رافعةً يديها إلى السماء تشكر الغيوم والجبال، والملك، وعلى الأخصّ وَلاّدة الجنية ذات العينين اللوزيتين والوجه البهي الذي تغرِّد له طيور المدينة. هي جنّية لا عمر لها، قامتها قامة بنت عشرين وخبرتها خبرة عجوز في المائة من عمرها. مرّرت ولاّدة يديها على بطن الملكة وتَلَتْ الألف بيتٍ وبيت من قصيدة الخصوبة التي نظمها شاعرٌ مجهول في زمن عظمة الإمبراطورية، فيما الملكة تكرّر كلام ولاّدة بيتاً بيتاً. وعند وصولهما إلى البيت ٩٩٩ شعرت بشيءٍ يتحرّك في أحشائها وأحسّت بارتعاشات وأبخرة ثمّ أصابها غثيان، حتى كاد يُغمى عليها. فقُطع الشكّ باليقين، إنها حبلى. هي عرفت ذلك، وأحسّته. ومسحت ولاّدة العرق المتصبّب على جبينها وعادت إلى جحرها

بعد أن منحتها بركتها.

انتظر الملك عدّة أسابيع ليحتفل بالحدث السعيد. واستدعى رجال الدين ليتناوبوا على تلاوة الصلوات لكي يستمرّ الحبل على أحسن ما يكون. ولم يعد من شغل في القصر سوى الانتظار والترقّب. وأُحرِق البخور من الهند والجزيرة العربية، واستُدعي الشعراء فأنشدوا ورقصوا حول كتابٍ بعنوان **جمال الرحم الخصب الباهر**. ثمّ وُلِدت الأميرة التي طال انتظارها، فدعاها الملك "جوهرة" لأنها كانت بجمال لؤلؤةٍ نادرة. وبعد أن كان الجفاف يعمّ البلاد منذ أشهر طويلة إذا بالأمطار تهطل في الأرياف غامرةً الفلاحين بالسعادة.

عاشت البلاد كلّها فرحة العيد، وراح الناس يتبادلون التهاني، وتصالح من كان بينهم خلاف وعادت البسمة إلى وجوه التعساء. وفي اليوم السابع بعد الولادة، يوم العماد، دعا الملك كلّ الأشخاص الذين استشارهم، وحضروا احتفال التضحية بالحمل الذي نحره الملك بنفسه. وأُطلِقت التسمية على الأميرة وفق طقس الجدود وتقليدهم. وكان من بين المدعوين ولاّدة وستُّ جنّيات أُخَر ارتدين الثياب الحرير الزاهية الألوان والمعطَّرة بعبير مسكٍ نادرٍ. وتلقّت كلّ واحدة منهنّ علبةً من الذهب الخالص تحوي ملعقةً وشوكة طعام وسكيناً من الذهب مرصّعاً بالماس والياقوت، إضافةً إلى رسالة شكر من الملك ومعها بطاقة سفر على متن سفينة للحجّ إلى مكّة المكرّمة.

بُهِرت الجنّيات السبع بهذه الهدايا النفيسة، فَجعلْنَ يغنّين ويرقصن بأناقة ورشاقة كأنّهنّ معلّقات بالفضاء بخيوط خَفيّة، مرتَجِلاتٍ حفلة باليه راقصة. وتلألأت الأنوار وغمرت الأغاني الشجيّة الملكَ

والملكة بالسعادة والغبطة.

ما إن عادت الجنّيات السبع إلى مقاعدهنّ حول المائدة حتى ظهرت "قَنديشة" الجنيّة الشرّيرة الأكثر قبحاً والأشدّ كراهيةً والأفظع وحشيةً في البلاد. وقد اشتُهرت بقدرتها على الإصابة بالعين، تكفي نظرة واحدة منها لإلحاق الخراب بالبيوت وإنزال الكوارث والتسبُّب باختلالات مناخيّة وبنشر الأوبئة وتأريق الأولاد في نومهم وتحويل الحليب ماءً مالحاً وبإفلاس التجّار وتجويع عائلة بأكملها. وإذا خرجت من جحرها تتوقّف الطيور عن الزقزقة وتَذبل الأزهار وتتحوّل الفراشات غباراً وتختبئ النساء ويبكي الأولاد.

لا يُعرف لقنديشة عمرٌ محدّد، لكنّ أخبارها محفوظةٌ في كلّ ذاكرة. يقول البعض إن عمرها مائة وخمسون عاماً، ويؤكّد آخرون أن عمرها من السنين ما لا يمكن لعلم حساب البشر أن يُقدّره. هي عجوز بالطبع لكنها ذات بنية صلبة وحيويّة، تفوح منها رائحةٌ نتِنة لا تُطاق، تسبقها من بعيد منذرةً بقدومها ناشرةً الذعر المُريع.

كان الملك يظنّ أنها ماتت ودُفنت، إذ إنّ هذه الجنيّة الشرّيرة لم تظهر منذ زمنٍ طويل. ويحدث في الواقع أن تنام قنديشة عشرات السنوات ثمّ تستيقظ كأنّما من قيلولة، "أريح فيها عظامي" كما كانت تقول.

وما إن دنَتْ من القصر في ذلك اليوم حتى راحت جوهرة تبكي ذارفةً الدموع الغزيرة وقد أصابها احمرارٌ شديد. لم يعُد بالإمكان إسكاتها، لا بدّ أنّ آلاماً مبرِّحة انتابت أحشاء الأميرة لكي تبكي

بهذه المرارة. هي المصيبة حلّت للتوّ في مكان العيد هذا الغارق في البهجة. وأُحرق المزيد من البخور لتبديد الروائح الكريهة العابقة من تلك الجنّية الشرّيرة.

وتوجّهت قنديشة بالكلام مباشرةً إلى الملك حادجةً إياه بنظرةٍ من نظراتها المشعوذة الشهيرة:

– ظننتَ أنني مَيْتة ولم تستعِن بي لحلّ مشكلة ذريتك البسيطة! لقد أخطأت. وقد أنذرتك في أحد أحلامك، ذاك الذي رأيته ليلة كان القمر بدراً وأنتَ نائم على الأرض لصداع أصابك. قلت لك: "تعال إلى قنديشة، فعندها ما يَلزَم ملكتك لكَي تمنحك ما تريد، تعالَ واحمِل لي معك دماغ الضبع الأسود الذي قتلته في رحلة الصيد في الشتاء الماضي". وأنت اعتقدت أنه كابوس، أحد تلك الأحلام السيّئة التي يراها الملوك لأنهم يعتبرون أنفسهم أرفع شأناً منّا، نحن أبناء العامة البؤساء.

أصابت الجمدة الملك وهي تتكلّم. فقد أفلتت عندها عدسة القراءة المكبّرة المعلّقة بعنقه، وبسقوطها على الأرض تحطّمت ألفَ شظيّة، وأن تتكسّر عدسة قراءة فهذا شرٌّ ونذير شؤم.

وتابعت قنديشة:

– وقد زدْتَ وضعك تعقيداً بتقديمك الهدايا لجنّيات المدينة الصغيرات، جنّيات رخيصات لا يتمتّعن بأي قدرات فعلية، مجرّد دمى صالحة للعب مع الأولاد. ونسيتني، وجاء سخاؤك منقوصاً. تجاهلتَ الجنيّة الأهمّ، الجنيّة التي بمقدورها زعزعة البلاد كلّها. أنا أيضاً يحقّ لي بهذه الرعاية، يحقّ لي بعلبة من الذهب الخالص

وبأحجار الياقوت والماس هذه.

وردّ الملك متلعثماً:

ـ أنا آسف، لم يخطر ذلك ببالي. وعلى كلٍّ لم يعد بإمكاني أن أُحضِّر شيئاً لك، فالصائغ الذي صنع هذه العلب سقط أمس عن حصانه وتوفّي.

ـ أعرف، فقد طاله حقدي لحظة اعتقاده أنه كلّي القدرة. أنا التي أرسلت إليه بعض الأبخرة الكريهة من رائحتي المقزِّزة وذلك لكي أدوّخه فيسقط سقطته القاضية. حادثة مؤسفة...

لدى تفوّهها بهذه الكلمات اختبأت جنّيةٌ صبيَّة وراء إحدى الستائر، وفي الوقت نفسه، من أجل صرف انتباه الحضور ولإبطال السحر الرهيب الذي كانت قنديشة على وشك إطلاقه، راحت الجنّيات الأُخريات يتوقَّعن أموراً جميلة لجوهرة، فقالت الأولى: ""ستبقين دوماً جميلة وبهيّة"، وقالت الثانية: "أنت كنزٌ من الذكاء والإحساس وستبقين دوماً موضع محبة وهيام"، والثالثة: "لن تعرفي المرض في حياتك، وصحتك هي أثمن ثروة لك"، والرابعة: "ستكونين بلسماً لقلب والدَيْك ولن تسبّبي لهما أيَّ حزن"، والخامسة: "تكونين النعمة بحدّ ذاتها وتقومين بكلّ ما يُملي عليك الجمال والطيبة فعله، ترقصين مثل نجمة وتغرِّدين مثل عندليب الجنّة وتستنزلين المطر على الأراضي الجافة وتملئين جرار الفقراء بكل ما يحتاجونه. لن يصيبك مكروه، ومحميّةٌ أنتِ من صيبة العين والأفكار الشرّيرة". أمّا الجنّية السادسة فوجّهت كلامها إلى قنديشة: "طالما نحن هنا لن تتمكنّي من إلحاق الأذى بأميرتنا، نحن درعها وخدمها وحرسها الأمين. لن

تتغلّبي علينا، هيّا ارحلي، عودي إلى جحرك وموتي بغيظك وبالسمّ الذي تَغْتذين بهَ!".

تنفَّضت قنديشة فتساقطت البراغيث والبقّ والقمل من ثيابها البالية. ثمّ التفتت إلى الجنيات وأطلقت حكمها:

– شيء قاطع، شيء تافه، لا أعرف ما هو بعد، لكن سيكون مريعاً، شيء قاطع سيبتر يد الأميرة اليمنى ويتسبّب بموتها. هذا ما أراه، وهذا ما أسمعه، صرخات ودموع والموت آتٍ على متن حمارٍ دهريّ يخطف الأميرة الصغيرة...".

إذّاك خرجت الجنية السابعة من وراء الستارة وهتفت:

– يا مليكي، ويا ملكيتي، اطمئنّا، لا تقلقا، لن تموت ابنتكما، أميرتنا الحبيبة. أنا لا أملك الحيلة اللازمة لإبطال السحر الذي أطلقته هذه العجوز. لا أنا ولا أخواتي نملك قدرةً وقوةً بمثل قدرتها وقوتها بما يساعدنا على منع ما تكهّنت به. لكننا نملك إمكانية تفادي موت ابنتنا الجميلة جوهرة. صحيح، شيء ما قاطع سيجرح يدها اليمنى لكنها لن تموت بسبب ذلك، أنا أضمن لكما هذا، لكنها ستغرق في نوم عميق، عميق جدّاً يدوم مائة سنة...

فصاحت الملكة:

– مائة سنة! يا إلهي! مائة سنة!

فأكملت الجنية السابعة:

– اطمئنّي وثقي بحسن تدبيرنا. هي ستستيقظ منه، لكن ليس من تلقاء نفسها. سيوقظها أميرٌ ابن ملك، بهيُّ الطلعة كالشمس، لتبدأ بذلك حياةٌ جديدة.

نهض الملك، مُثقلاً بالحزن والغمّ، وتبعته الملكة، لينسحبا إلى جناحهما. وهرع أطباء القصر إلى سريرهما يُعْنَون بهما، بينما كانت قنديشة تبول على الأزهار الموزّعة حول الطاولة، ثمّ ما لبثت أن اختفت وسط غيمةٍ من دخان، فيما أحاطت سائر الجنّيات بالأميرة لحمايتها.

وأمر الملك بسحب كلّ الأشياء القاطعة في القصر، وحظّر على العاملين في المطبخ استعمال السكاكين، وأبعد عن جناح الأميرة الخيّاطات وكلّ الحرفيين الذي يستعملون أدوات يمكن أن تنغرز في يد جوهرة.

ومرّت السنون.

وها إن الأميرة قد بلغت السادسة عشرة من عمرها وما زالت تلعب مع نسيبةٍ لها لعبة "الاختباء". وفي ذاك اليوم وجدت مخبأً لها في أعلى علّية في القصر حيث كانت تقيم "مندوبة"، العبدة العجوز السوداء، ذات الوجه المخطّط بندوب عمودية من الجراح التي ألحقها بها أسيادها السابقون قبل أن يأويها الملك. وقد قرّرت ألا تغادر هذا المكان أبداً. وبالتأكيد أن مرافقي الملك أسكنوها هناك من باب الشفقة وعملوا على إيصال كل ما تحتاجه إليها. كانت جوهرة قد سمعت بوجودها من قبل، لكنها المرّة الأولى التي تراها فيها. فسألتها:

– ماذا تفعلين هنا أيتها السيّدة العجوز؟

– أروي قصّة حياتي.

– لكن لمن ترويها؟ لا يوجد أحدٌ هنا...

– لكِ ولأولادك وأحفادك... لكل من يأتون من بعدك ويرغبون

في معرفة قصة حياة مندوبة.

– وما الذي تفعلينه طيلة النهار؟

– تكرَّم عليّ والدك ووضع في العلّيّة نول الحياكة هذا. ومن زمنٍ بعيد وأنا أحيك السجاد، وكل سجادة تروي مرحلةً من حياتي الماضية. وكلها موضوعة وراءك. لديّ الصوف وكلّ ما يلزمني، فأُحيك وأحيك، ربما في يومٍ ما يصعد الملك إلى هنا وأقدّم له السجّادات.

بُهرت جوهرة بالسجّادة التي كانت مندوبة على وشك إنهائها، وعليها صورة يمامة سوداء عاجزة عن الخروج من قفصٍ أحمر بسبب بيت عنكبوتٍ هائل. ذهلت الفتاة وقالت لها:

– كم هذا جميل! هل يمكن أن تقولي لي ماذا تعني؟

– إنها الحرّية!

– كنت أفضّل أن يكون فيها بعض الأخضر، إنه لون الأمل أليس كذلك؟

– هل تريدين أن تحيكيها بنفسك؟

– أوه! بالتأكيد!

– هيّا، أمسكي هذا المِغزل، لكن انتبهي، رأسه حادٌّ جداً وقد يؤذيك.

ابتهجت جوهرة لمشاركتها في هذه الحياكة، فأمسكت المغزل وحرّكته من يمين النول إلى شماله، لكن عندما أرادت ردّه لإعادة العملية شقّت به يدها، ومن دون أن تصرخ أو تبكي سقطت مغميّاً عليها.

حاولت مندوبة إنعاشها، ومالت بأذنها على قلب الصبية. لم تكن ميتة، بدت غارقةً في نوم عميق. وصاحت العبدة العجوز طالبةً النجدة، وراحت تبكي وتلطم وجهها، وحضر الجميع من كلّ زوايا القصر، قطعوا بصلةً وقرّبوها من أنف جوهرة، سكبوا على وجهها دلو ماء بارد، ولم تتجاوب. كان الدم قد تخثّر في قبضة يدها اليمنى. رشّوا على وجهها إكسيراً من طيوب الجزيرة العربية، وكادت العجوز تغيب عن الوعي. وسارع طبيب الملك داعياً الله أن يساعده في مهمّته، وقدّر أنّ المسألة معقّدة، وفيما هو يُجري لها فحصاً دقيقاً وصل الملك، فوضع يده على جبين ابنته ثمّ أعلن:

– هي نائمة وحسب، هذا ما تكهّنت به الجنيات.

فردّ الطبيب مؤكّداً كلامه:

– قلبها ينبض ببطء، ما تزال حيّة لكنها تغطّ في نوم عميق. هل يمكن أن تكون قد أكلت من تلك النباتات المنوِّمة؟

أجابه الملك:

– كلا، هذا انتقام جنّية شرّيرة، نوم عميق، طويل... لامتناه. أريد أن ترقد ابنتي في أجمل جناح في القصر، في الغرفة الزرقاء حيث يهدهدها هدير الموج وترانيم النوارس، الغرفة المطلّة على حديقة كلّ الزهور، ولْتُغَطَّ قبّةُ سريرها بالستائر المطرَّزة بالذهب والفضّة. سترقد فيها بسلام حتى يوم يقظتها.

ثمّ مسح دمعةً وغادر المكان.

وُضعت الأميرة في تلك الغرفة الجميلة الهادئة. بدا وجهها كوجه ملاك وخدّاها وشفتاها بلون المرجان الأحمر. لم تُغضِّن غيبوبتها

جبينها ولا جفنيها، ولم تترك أي أثرٍ بشع على ذلك الوجه الجميل. كانت تتنفّس ببطء وهي مغمضة العينين فترتعش أهدابها الطويلة قليلاً. كانت على قيد الحياة لكنها غافية. وأمر الملك أن تُترك بسلام.

لم تكن الجنّية السابعة التي تكهّنت بهذا النوم الطويل في القصر. لكن ما زال كلامها ماثلاً في الأذهان، فقد نجحت في إنقاذ حياة جوهرة عندما حكمت عليها بالنوم مائة سنة. وأراد الملك إبلاغ هذه الجنّية الصبية بما جرى، لكن للأسف كانت على بعد اثني عشر ألف فرسخ من المكان. فأمر ببعث رسالة إليها بواسطة الحمام الزاجل. لكن قبل إطلاق الحمامة كان القزم ستيتو، ذو جزمة السبعة فراسخ القفّازة، قد قفز بها فوق البحار والجبال وصولاً إلى الجنّية وهمس في أذنها: "نامت الأميرة لمائة سنة. هيا، اذهبي إلى القصر، هي راقدة في الغرفة الزرقاء".

كانت الوسيلة الوحيدة لقطع المسافات هي بطلب المساعدة من التّنانين الستّة حرّاس البركان الخامد. هم وحدهم القادرون على نقلها بسرعة قياسية. وقد طاب لهم تقديم هذه الخدمة للجنية الصبية التي استقلّت عربةً وصلت بها بعد ساعة واحدة إلى القصر. ولم يلبث التنانين أن غادروا لأنهم كانوا يخشون أن تثور حمم البركان مجدّداً في غيابهم.

استقبل الملك الجنّية وساعدها على التقاط أنفاسها، إذ كانت رحلتها سريعةً جدّاً لدرجة أنها أصيبت بدوار. وبعد أن شربت كوبَ ماء وتنشّقت عطور حديقة كل الأزهار قالت للملك إنه حسناً فعل بوضعه الأميرة في الغرفة الزرقاء، وفكّرت أن المفروض حالياً

التحضير لصحوة جوهرة. فيوم تستفيق الأميرة من نومها الطويل يجب ألاّ تجد نفسها وحيدةً في هذا القصر الكبير، إذ لا والداها ولا أحد من سكان القصر سيكونون موجودين لكي يحضروا استيقاظها. لكنّ الجنّية حرصت على ألاّ تقول الأمور بهذه الصراحة.

قالت للملك:

– أطال الله عمرك سنيناً طويلة، أنت والملكة، سنيناً إضافية بما يسمح لكما برؤية ابنتكما كما هي الآن، يافعةً وجميلة.

لكن الملك أجابها بحكمته ورزانته:

– يا لَلجنية الصبية! كم أنت ودودة، لكنّ قدراتك لن تقوى على هذا الإحسان ولن تكون قادرةً على تحقيق هذه المعجزة. أنا أعرف أن الإنسان ميّتٌ لا محالة ولا شيء يمكنه منع هذا القَدَر، ولن أكون هنا بعد مائة سنة! شكراً لكلامك اللطيف، لكن ما الذي تنوين فعله الآن؟

– سأنوِّم كل من هم في عالمها، كلّ العاملين في القصر. من دون أن أمسَّ بك ولا بالملكة.

– هيّا! نفِّذي ذلك، لقد تحطّمت حياتنا بعد هذه الحادثة ولم يعد لها من أهمّية. سننصرف من الآن وصاعداً إلى الاهتمام بشعبنا وتوفير وسائل العيش الرغيد له. سنقوم بعمل الخير، أي ممارسة واجباتنا كملك عبر التفكير بالآخرين وليس فقط بأنفسنا، هذا كلّ ما تبقّى لنا.

أخرجت الجنية عصا ذهبيّة من تحت ثوبها وقالت: "إنها عصا سحريّة!"، ووجّهت بها ضربةً خفيفة إلى رأس كبيرة المربِّيات التي لم تتأثّر بها كما بدا.

استغربت الجنية عدم تأثّر السيدة وقالت:

– عندما يلمس طرف عصاي السحرية شخصاً ما، سرعان ما يغرق في نوم عميق. ماذا جرى؟ ألم تعد عصاي الجميلة سحرية؟

في الحالً ظهر القزم ستيتو حاملاً عصا فضّية وقدَّمها للجنيّة قائلاً:

– لم يعد الذهب قادراً على التنويم، بل بالعكس صار يوقظ الشهوات. إليك هذه العصا، لقد غُطّست الليلة بالذات في ماء الفضّة.

تناولت الجنية منه العصا وراحت تلمس بها رؤوس كلّ الأشخاص الموجودين. نال الجميع ضربتهم الخفيفة حتى الجياد والحيوانات المرافقة لهم. وحده ستيتو أفلت من هذا السحر واختفى سريعاً، فيما الرجال والنساء والحيوانات رقدوا ببطء نائمين حول الغرفة الزرقاء. وخمدت النيران في المدافئ وانطفأت شعلة القناديل، وغابت الشمس قبل موعد الغروب، ثم شحبت الأنوار وعمّ الظلام.

مشت الجنّية خطواتٍ قليلة وخاطبت الملك:

– سيكون هذا الليل طويلاً، سيدوم مائة سنة. وستستيقظ جماعتك في الوقت نفسه مع الأميرة ويكونون حاضرين لخدمتها. لا تشغِل بالك، ستسير الأمور على ما يُرام، وأنا نفسي سأحرص على ذلك.

طبع الملك قبلةً على جبين جوهرة، ومسحت الملكة دموعها وقبّلت يدَي ابنتها المجموعتين، ثمّ غادرا القصر بعد أن حظّرا الدخول إليه وانتقلا للعيش في بيتٍ صغير في الجبل يمكنهما منه رؤية مقرّهما السابق، وفوجئا عندما تبيَّنا أن القصر قد كُسي بقطعة قماش ضخمة بيضاء تُزنّرها حبالٌ متعدّدة الألوان، حتى بدا المبنى كرزمةٍ كبيرة مربوطة بخيطان في انتظار عودة مالكه. وفكّر الملك أن

هذا أيضاً بفعل سحر الجنيات الطيّبات. ثمّ أوكل الحكم إلى وزرائه وكرّس نفسه لقراءة النصوص الصوفيّة. واكتفى بالشيء القليل، بالزهد والتواضع والتأمّل. أما الملكة فقد فقدت شيئاً فشيئاً ذاكرتها والرغبة في العيش. وبعد سنوات توفّيا متعانقَين أثناء نومهما في فراشهما.

بعد مائة سنة كان القصر لا يزال مغلَّفاً، وقد تحوّلت القماشة البيضاء إلى اللون الرمادي، وارتخت الحبال. فيما الأشجار الضخمة التي نمت حول القصر القديم جعلت الدخول إليه صعباً. وأيّاً يكن لم تراود الناس أي رغبة في دخوله بسبب ما يروى عنه من أخبار مرعبة. ومن هذه الأخبار أن القصر مسكونٌ، وأن أشباح البلاد كلها تلتقي فيه مرةً في السنة في ليلة البدر، فيقيمون فيه حفلات راقصة وطقوس عربدة يقدَّم فيها الأولاد الصغار كأضاحيَ. وحتى أن البعض كان يزيد على ذلك أنّ مصّاصي دماء يقصدونه من مقابر الشرق ويتبادلون الدماء الطرية بتقبيل بعضهم البعض بِنَهم. وتزعم شائعةٌ أخرى أن القماشة لا تخفي قصراً بل سِيرْكاً افترست حيواناته مروِّضيها وصادرت سلطتهم. أو أيضاً أن الغابة المحيطة بالقصر كانت مأهولةً بسعادين مصابين بمرض معد جداً وفتّاك ولذلك يجب ألاّ يقترب منه أحد. وأخيراً روى البعض أنه كان منزل قنديشة الجنية العجوز الأكبر سنّاً والأكثر وساخةً والأعنف سُمّاً، ما يعني أنها الأخطر بين كل الجنّيات. وتكاثرت الشائعات مؤكّدةً كلّ شيء وأيَّ شيء. والأشدّ غرابةً منها حكت عن أميرة صبيّة ذات جمال يوقع الطيور من سمائها، بنت وحيدة لملكٍ توفّي منذ زمنٍ بعيد وأنّها لا تزال نائمة في غرفةٍ رائعة في القصر منذ مائة سنة. كان يروي هذه

القصة في الساحات العامّة قصّاصٌ شهير يدعى بيرّو. كان يظهر، يسرد حكايته ثمّ يغيب، والناس يضحكون ولا يصدّقونه.

في أحد الأيّام مرّ قيس، ابن الملك، على مقربةٍ من القصر، وكأنما جذبه هذا الشيء الرمادي المحاط بغابةٍ كثيفة، فسأل عمّا يكون، فأجابه كبير الوزراء:

– يا سيّدي، من الأفضل ألاّ تعرف عنه شيئاً!

وقال آخر:

– يا سيّدي، هذا قصر الغولة الأكثر شرّاً في الأرض.

وقال أحد معاوني الملك:

– هذا مكان مسكون بالأرواح الشريرة ومشبع بدم الأطفال.

وقال أمين سرّه:

– هذا قصرٌ قديم حلّت عليه لعنة الله والبشر. وتروى عنه أيضاً قصّةٌ خرافية عن أميرةٍ تنام فيه منذ مائة سنة... رواها شخص يدعى بيرّو في قرية الجنّيات السبع. وبحسب هذه الحكاية أنّ الأميرة في انتظار أن يوقظها ابن الملك. وفي رأيي المتواضع لا صحة لكل ذلك. تنام مائة سنة! لا بدّ أن الأميرة أصبحت متصلّبة ومتغضّنة ومجرّد تراب. مائة سنة! كيف توقظ التراب! كل شيء يتلاشى ويتبدّد وليس ما يتبقّى من هذه الشخصية الفاتنة.

– بالتأكيد، أنت على حقّ، لكنّ بي فضولاً لكي أذهب وأرى عن كثب ما يجري في هذا القصر. اسمعْ، لقد رأيت حلماً منذ ليالٍ، كنت فيه تائهاً في صحراء الجزيرة العربية وأنا أسير من دون توقّف وفي الأفق أمامي قصرٌ منوّر من كلّ جهاته. وكلما تقدمت ابتعد. إلى

أن حملني ملاكان تحت أجنحتهما وأنزلاني في باحة القصر حيث كانت أميرة جميلة جدّاً تلعب بالدولاب وهي تترنّم بأغنية مثل: "أنا في انتظار أميري الساحر...". وما إن اقتربت منها حتى تلاشى كل شيء في سحابة من دخان. في تلك اللحظة أفقت من نومي متصبّباً عرقاً وخافق القلب. ومذّاك وأنا على يقين أنّ صبيةً ما تنتظرني لكي أحرّرها. لذلك سأخلع باب القصر وأفتّش عن الأميرة التي بتُّ مغرماً بها.

بلغ الخبر الملك فاستدعى ابنه وقال له:

– أميرة نائمة منذ مائة سنة! ألا تعتقد أنّ أمامك مهمات أهمّ من الذهاب لإيقاظ شبح؟ هل تعرف أن عليك الالتحاق قريباً بالكلّية العسكرية استعداداً لتولّي الحكم؟ لقد تغيّر العالم، ولم نعد نعيش في عصر حكايات الجنّ. يا بني، أتعلم أنّ البلاد تعاني من جفاف مستدام وأن علينا مواجهة الكثير من المشاكل، ويجب أن نتحضّر لمعالجتها. الفلاحون يغادرون أراضيهم ويأتون للاستجداء على أبواب المدن. وهذا عار! يجب أن نبادر إلى عملٍ ما، أن نجد حلاً لكي يتمكّنوا من ريّ أراضيهم. لقد أصدرت الأوامر بقطع عيون الماء في القصر وبتحويل مجرى بعض السواقي إلى من هم أكثر حاجةً إليها، وأنت تحدّثني عن أميرة عمرها مائة عام تنتظرك في قصرٍ عشعش فيه الغبار!

– لكن يا أبي يجب أن أذهب، هذا أقوى منّي. وأعدك بتنفيذ أوامرك بعد ذلك.

– بما أنك مصرّ على ذلك سأرسل بعض حرسي برفقتك. من الأفضل لزوم الحذر، فقد يكون في الأمر فخّ.

وتوغّل الأمير الشاب في الغابة يتبعه سبعة رجال مسلّحين. وما كاد يلمس شجرةً ليشقّ طريقه حتى تساقطت عصافير ميْتة وغطّت الأرض. وهذا نذير شؤم. كان الحرس يسيرون من دون أي تعليق، وبوصولهم عند باب القصر وقع الرجال السبعة في فخٍّ مغطًّى بأوراق الشجر. خاف الأمير وسحب طرف حبل من الحبال وإذا كلّ القماشة التي تغلّف المبنى تتحول تراباً رماديّاً. ودفع الباب فأصدر صريراً، وتهيَّأ له أنه يدخل متحف شمع، إذ كان هناك رجال ونساء وكلاب متجمدّون كلٌّ في وضعيته. وما كاد يلمس بإصبعه أوّل رجل جالس وبيده رغيف خبز حتى انهار أرضاً وتحوّل في وقوعه كومةَ رماد صغيرة. ولمس كلباً فتفتّت بالطريقة نفسها. أدرك الأمير أنّ منَ الأفضل ألا يحاول مجدّداً. ثمّ تابع شعاع ضوء متسلِّل من كوّة العلية فقاده إلى الغرفة الزرقاء الشهيرة. راح قلبه يخفق بقوة وأحسّ أنه مدفوع بقوة داخلية غريبة، حتى بدا مستعداً لمواجهة كل المخاطر.

كانت عدّة أفاعٍ تحرس باب الغرفة. لمس بطرف عصاه الفضّية رأس واحدةٍ منها مثلثة الرأس، فإذا هي على قيد الحياة وفغرت فاها وقذفت بوجهه حزمةً من أشعة ضوءٍ باهر. تراجع قليلاً وعاد يلمس بعصاه أفعى من نوع كوبرا تكوّمت على نفسها مثل الكرة. عندها سمع الأمير صوتاً يتكلّم:

– أخيراً ها أنتَ!

دار على نفسه وتلفّت حوله لكنه لم يرَ أحداً. ومجدّداً سمع الصوت:

– لا حاجة بك إلى التلفّت، الكوبرا هي التي تكلّمك، هي التي أنهكتها حراسة غرفة حبيبتك. ادخل إذن، أيقظها ولْننجز الأمر!

دُهِش الأمير وأراد أن يقول شيئاً، لكن لم يصدر أي صوت من فمه.

– على فكرة، هل معك شيء للتدخين؟ سيجارة، تبغ للمضغ أو بعض أعشاب الجزيرة العربية التي تبعث الأحلام... هل أنتَ عاجز عن الكلام؟ انتظر، إن ضفدعة الكلام موجودة في هذه النواحي، يكفي أن تُملّس ظهرها سبع مرّات لكي تستعيد القدرة على الكلام.

وراح الأمير يفتّش عن الضفدعة على الأرض، فأشارت عليه الكوبرا أنها في بطن "ميش–ميش" رئيسة الأفاعي والعجوز الكبرى بين كلّ الزواحف، وهي لا تلدغ لكنها تبتلع كلّ ما تجده في طريقها.

– انتظر إلى أن تعطس وتبصق!

وتسمّر منتظراً في ثيابه الأميرية مفكّراً أن هذا قد يدوم سنوات.

– كلا، أنا أقرأ أفكارك، إنها مسألة صبر. هنا نتغذّى بالصبر، هو طبقٌ يؤكل بارداً. لا تشغل بالك، سأساعدك، ليس حبّاً بالملوك، بل لأننا تحمّلنا فوق طاقتنا من هذه الحياة التي لا تلائمنا، وكلما استعجلنا فكّ أسرنا كلّما كان ذلك أفضل.

وما انتهت من كلامها هذا حتى بصقت ميش–ميش ضفدعة الكلام، فإذا هي كلها كالورق المعلوك، لم تكن بمظهر حيوان بل كرزمة كتب مضغوطة. تطايرت منها بعض الأوراق فانحنى الأمير وملّس ظهرها سبع مرّات، وللتوّ انطلقت من فمه كلمات متدافعة كالهرج والمرج ما جعل كل كلامه غير مفهوم: أميرة، قصر، ملك،

مائة سنة، غابة، بحر، كبد، ستارة، شجاعة، حرس، زنجية، سمراء، سوداء، صاخب، عاصفة، رأس، شجرة، رماد، ضوء، شكراً، نعمة، جمال، كرامة، كريمة، أمينة، وَجنة، الأذن، هيروت، فيبور، ديافيميزي، والو، دين، ملّة، هنش، صبر، جمال، صبا، غنى...

وأنجدته الكوبرا مجدّداً:

– حسناً، حصلت على الكلمات، ويجب علينا أيضاً أن نرتّبها في نسَقٍ مفهوم. ومن أجل ذلك عليك يا أميري أن تجتاز امتحاناً آخر. لا تتوتّر، لست هنا في قصرك بل في قصرنا. فاصبر واسمعني جيّداً.

هزّ الأمير رأسه موافقاً وانتظر. فرأى الكوبرا تقترب من سائر الأفاعي وتوشوشها.

– اسمع أيها الأمير. نحن نريد استعادة حرّيتنا! وهذا لا يتوقّف إلا عليك وعلى ما ستقوم به. وإليك مطلبنا: عندما تستعيد الكلام ستتلو الصلاة المناسبة.

ولم يلبث الأمير أن تكلّم كما لو أنه محاط برجاله الموثوقين ناسياً أنه في حضرة مجموعة من الأفاعي:

– "عندما يفيض النهر تُغوي الأفاعي الضفادع فتخبّئها في أجحارها.

عندما يهزّ الهواء الأشجار تفقد الطيور عقولها وأعشاشها.

عندما تحرق الشمس رؤوس شجر النخيل تتساقط حبّات البلح من التعب".

وها أنا أسمح لكنّ بالرحيل، اذهبن للقاء صخور الجبال الدافئة،

أنتنّ يناسبكنّ الجفاف. ربما استجلبتنّ الغيوم وأنتنّ تَنْسَبْنَ بين الصخور.

عندها راحت الأفاعي كلها تزحف ورحلت من دون مشاكل، وبقي الأمير وحده أمام الباب الضخم الذي انفتح عندما أطلق عبارة: "ها أنا يا أميرتي!".

كانت الجنيّات السبع هناك محيطة بالسرير الذي تنام فيه جوهرة، وكل واحدة منهنّ تحمل شمعةً مضاءة. تقدّم الأمير بشيءٍ من التردّد، ثمّ جثا على ركبتيه ورأى صبيّة ذات جمالٍ مشرق. وعندما دنا من وجهها لتقبيله أحسَّ الأرض تتداعى تحت قدميه، لكن شفتيه لامستا جبين الأميرة، وفي الوقت نفسه انبجست من السرير نافورة ماء قوية رافعةً جوهرة على رأسها. تراجع الأمير وقد تبلّل كلّياً. فقد فجّرت قبلته للتو نبعاً عظيماً وتدفّق الماء في كلّ مكان راوياً الريف والمدينة. نبع ماءٍ لا ينضب. وراحت الجنيّات تغنّي فيما جوهرة تستيقظ على مهلٍ وهي ما زالت معلّقةً بالهواء، إلى أن خفّ دفق الماء وأنزلها إلى مستوى الأمير الذي مدّ لها ذراعيه.

كانت جوهرة قد فقدت لون بشرتها الأبيض، وأصبحت سمراء، شديدة السمرة، سوداء تقريباً. وهتفت إحدى الجنيات:

– أيها الأمير، لا تستغرب الأمر! فلكي تحافظ الأميرة على شبابها كان عليها أن تتخلّى عن لون جلدها الأبيض الجميل. كان لا بدّ من تضحيةٍ بسيطة... لكنني واثقة من أنك لست من أصحاب الأفكار السيّئة عن الناس الملوّنين!

– أنا لا، لكن أمّي متيقّنة من أنّ السود خلقهم الله لكي يكونوا عبيداً وحسب!

– لكنّ العبودية سوف تلغى في يوم من الأيام!

غادر الحبيبان القصر تتبعهما الجنّيات وهنّ يعزفن الموسيقى. ولم تحَر جوهرة كثيراً في أمرها. غفوة دامت مائة سنة! ليل طويل كانت أحلامها في خلاله بهيجة كلها، لكنها كوّنت فكرةً مختلفةً عن الأمير مخلِّصها. تخيّلته أشقر طويل القامة أخضر العينين، أما الأمير الذي يحملها الآن على ذراعيه فهو أسمر اللون قصير القامة هزيل أزرق العينين. ولم يفتها أنّ كل أفراد أسرتها قد فارقوا الحياة. وهمست في أذن الأمير:

– ما اسمك؟

– قيس.

– كيف صدف أنّ عينيك زرقاوان؟

– ورثتهما من أمّي.

– أين تأخذني؟

– إلى البلد الذي لا ينام فيه أحد.

– هذا ما أريده، لكن ماذا يفعل الناس ليبقوا مستيقظين؟

– يعيشون واقفين، ليس هناك أسرّة ولا لحف ولا شراشف ولا أدوية منوّمة...

– ولا أحلام بالتالي!

– يحلمون وعيونهم مفتّحة، يتحادثون ويتبادلون أخبار أحلامهم.

– ألا يصيبهم المرض أبداً؟

– بلى، لكنهم يُدفنون وقوفاً، كلٌّ في مكانه. وحدها العائلة المالكة لها حقّ النوم وامتيازه.

– لكن لا رغبة لي في النوم.

– عندما ترين أمّي الملكة ستغيّرين رأيك.

– لماذا؟

– لأنّ والدتي لا تحبّ الغرباء. هي بيضاء البشرة ولا تحب السود. والملك أبيض. أمّا أنا فكأنني من عالم آخر لأنني لا أشاطرهما رأيهما.

دخل الأمير قيس القصر سرّاً، فباركت الجنيات الحبيبين ثم رحلْنَ. وهطل المطر ورويت الأراضي واحتفل السكان في كلّ مكان. وكانت الأميرة مبتهجةً حتى وإن كانت تخشى اللقاء مع الملكة الأم. وكأنّ قيس قرأ أفكارها فقال لها مطمئناً:

– سأفعل أيّ شيء كيلا تؤذيك أمّي. سوف نتزوّج وننجب أولاداً، ونرحل عن بلاد "الناس الواقفين" ونقصد "قرية الأحلام المتحقّقة" نقيم فيها. هناك لا مكان للأذى والقساوة والخيانة في قانون البشر، والأشرار يُطردون منها.

– عالم من دون شرّ، إنه لأمرٌ رائع لكنه مستحيل!

– سترين، سنعيش وسط الجنائن والجداول وكلّ الحيوانات التي تحبّينها.

– وماذا نفعل في نهاراتنا؟ لا يفوتك أنني أريد العمل، أن أشتغل بعض الأمور، مائة سنة من التعطّل زمنٌ طويل!

بدت جوهرة حيويّة، جميلة، لا تفارق البسمة ثغرها. تُدهش لكل شيء، وتغتبط لكل شيء. عندما تذكر نومها الطويل، تتحدّث

عن فاصلٍ زمنيٍّ سحريّ، عن تقاعد قبل الأوان، عن اختبار الفراغ واللاشيء. لأنها ما كانت لتتذكّر الأحلام السعيدة التي رأتها بفضل الجنيّات طوال هذه السنين لولا وجه أميرها الفاتن، ذاك الذي سيحضر لإيقاظها.

وفيما العاشقان يستعدان للخروج من جناحهما فاجأتهما الملكة الأم ساخطةً وهاجمت ابنها بشدّة:

– أين وجدت هذه الشمطاء؟ أنت لا ترى ما يراه قلب الأم، كلها تجاعيد تفوح منها رائحة النوم العطنة ونفَسها كريه مثل ميتة نُبِشت من قبرها! ليست بشرتها سوداء لكن الأوساخ غطتها، فهي لم تغتسل قطّ، ولن يزول عنها هذا السواد أبداً، ستبقى سوداء على الدوام. وهل تعرف ما الذي يصيب السود؟ يُجعلون عبيداً ، نعم، خدماً وأناساً أذلاء لأنهم خُلقوا ليخدموا ويبقوا صامتين! يا بني، أهو والدك من دلّك على هذا الطريق؟ أنا لا أستغرب الأمر، فهو غبيّ وأنت ساذج! هي أميرة نامت مائة سنة! وماذا بعد؟ صدّقت قصة المجانين هذه وأحضرت لي إلى القصر تلك التي يجب أن تكون في المقبرة!

– أمّي، أنت شرّيرة وظالمة، وعيناك تمتلئان حقداً. دعي هذه الفتاة بسلام، واهتمي بسائر أبنائك، أما أنا فسأنسحب وأصون جميلتي.

– جميلتك! ومنذ متى يحقّ للزنجيات ادّعاء الجمال؟

مساء اليوم نفسه استدعت الملكة الأم الجنّية الشريرة، تلك التي خلَفتْ قنديشة واتّخذت لنفسها اسم "روندا" لأنها كانت متخصّصة

بلعبة ورق مأخوذة عن إسبانيا تحمل نفس الاسم. قالت لها:

– افعلي شيئاً، خلّصيني من هذه اليقطينة الجافّة، اجعليها ترحل وتدع ابني بسلام.

– ليس بإمكاني أن أفعل شيئاً ضدّها، هي محمية ألف مرّة ومنيعة بعد أن حصّنتها سائر الجنّيات وباتت في منجى من الضرر، وحتى أنني أعتقد أنها لم تعد موجودة...

– اصمتي أيتها الحمقاء، هي موجودة بالتأكيد، لقد شاهدتها للتوّ!

– نعم، لكنك لم تشاهدي إلا جسدها، أما روحها فقد التحقت بروح الأمير قيس، وصارا واحداً أحداً. هما متحابّان، وفي مواجهة الحبّ ليس بإمكان الجنيات أن يفعلن شيئاً، حتى الأكثر شرّاً بينهن مثل قنديشة ومثلي. طالما الناس متحابون لا يمكن تحطيمهم.

– إذن ما الفائدة منك؟

– أنا ألحق الأذى لكن ليس بكلّ البشر، هناك استثناءات، والأميرة أحد هذه الاستثناءات.

– اغربي من وجهي، سأتدبّر الأمر بنفسي.

رأت الملكة الأمّ أن عليها الانتظار، وأن تأخذ الوقت الكافي للتفكير واللجوء إلى الحيلة لتحقيق مبتغاها. لم تعد توجّه الكلام إلى جوهرة، وصارت الواحدة منهنّ تجتنب الأخرى، وعلم كل من في القصر ما كانت تكنّه الملكة العجوز من كره للأميرة الشابة. ونصح الملك ابنه بالانعزال في قرية بعيدة أو على جزيرة ما، فرحل قيس وجوهرة إلى "قرية الأحلام المتحقّقة" ولم يعودا قطّ إلى القصر.

لم يكن يعيش في تلك القرية سوى أناس سعداء، امّحى فيها الحسد والغيرة والشرّ والخداع وكل المشاعر السيّئة. وكل فرد فيها وجد الصفاء في نفسه بعد تحقيق حلمه. فيها يمكن الالتقاء بأدونيس وهو يتنزّه بتاجٍ على رأسه بعد أن لُقِّب "أمير الشعراء"، وماريا مع أولادها الأربعة الذين يرفضون أن يكبروا وما زالوا يتغذّون بحليب أمهم، وأنجيليك المرأة السمراء الفاتنة التي تتطاير كالفراشة من زهرة إلى زهرة، وأطبّاء ومحامين لا عمل لهم ومع ذلك لا يتذمّرون، وصحافيين يمضون أوقاتهم واصفين ذكرياتهم، ورياضيّين يحافظون على لياقتهم في جوّ من البهجة والمتعة، وجنود عُزّل يتسكّعون لملء أوقات فراغهم، و"حلاوة" تلك المرأة التي تأكل طول الوقت من دون أن تسمن، وزوجها الذي يثمل بمجرّد شربه الماء، وبأناسٍ على سفرٍ دائم لا يتوقّفون في القرية إلا لتغيير ملابسهم، وبجماعة من المولعين بالكذب الذين فقدوا الرغبة في رواية الحكايات، وبلصوص محتالين تائبين امتنعوا عن سرقة أي شخص، وبسحرة يخفون المال ويستبدلونه بفقاقيع صابون، وبأولاد يعيشون في عبّ الشجر...

في هذه القرية وضعت جوهرة توأمَين، صبيّاً أسود اللون وبنتاً بيضاء، فأقيم احتفال لعدة أيام وأوفد قيس رسولاً ينقل الخبر السعيد إلى أهله. فملأت الملكة عربةً بالهدايا وطلبت إلى الرسول أن يقدّمها إلى الزوجين الفتيَّين. وتكلمّت بكلّ لطف ورَجتْ الرجل أن يبلغ جوهرة اعتذاراتها لأنها أساءت استقبالها، معبّرةً عن أملها في أن تراهما في القصر مع ولديهما.

كان من أثر الإقامة في قرية الأحلام المتحقّقة أن أزالت كلّ فكرة سيّئة أو نيّة مبيتة. ولم تشعر جوهرة ولا قيس بالارتياب بالملكة الأم، واعتقدا أنها نادمة بصدق على موقفها وأنها تريد التصالح مع الأميرة. واتفّق قيس مع زوجته على زيارة القصر وتمضية فترة فيه. فغادرا القرية التي اجتمع كلّ سكانها لوداعهما. وعُلّقت بين الأشجار يافطات كُتب عليها:

قيس وجوهرة، يا إنسانَي عيوننا
قرية الأحلام المتحقّقة تعبّر لكما
عن إخلاصها وتعلّقها الدائم بكما.
عودا إلينا بسرعة!
إنّ وجودكما بيننا نعمة
وهبة من السماء.

ارتدت الملكة الأم ثوباً أبيض واستقبلتهما بابتسامة وذراعين مفتوحتين. وضمّت ابنها بحرارة ثمّ كنّتها، فيما طلبت أنّ يُحمل التوأمان إلى جناحها لكي تُقدّم لهما الهدايا. تأثرت جوهرة بتغيّر المزاج هذا، إلا أنها سمعت صوتاً، ربما كان صوت الجنية الطيّبة، يهمس لها:

– انتبهي، لا تصدّقي هذه الابتسامات وهذه الطيبة. حذارِ، ليس من العبث إذا قيل إن الإنسان لا يتغيَّر، وإنه قد يداهن ليضرب عندما تتخلّين عن احتراسك!

وعندما رأى قيس زوجته قد أصيبت فجأةً ببعض القلق حاول أن يطمئنها:

– أمّي تحبّك. عندما رأتك في المرة الأولى تصرفت بدافع الغيرة، فقد استولت امرأةٌ أخرى على ابنها وقلب ابنها. وهي اليوم تغيّرت بعدما فكّرت طوال هذا الوقت. وعند ولادة طفلينا شعرت أنها تحبنا وهذا ما أرادت أن تقوله لنا وتثبته. فمن فضلك، ابذلي جهداً وابتمسي ولا تُبدي ارتياباً بها بعد الآن.

مرّ الأسبوع الأوّل من دون أي حادث. كان الأولاد يلعبون عند جدّيهما ويعودان عند والدَيْهما في المساء. وفي أحد الأيام أبلغت الملكة ابنها أنها تنوي اصطحاب حفيديها معها في نزهتها البحرية الأسبوعية. ولم تتمكن المربية من مرافقتهما لأنها لم تستيقظ من نومها، وفيما بعد عُلِم أنها نُوّمت بواسطة زهورات مغليّة ذُوِّب فيها مسحوقٌ منوِّم. هكذا باتت الجدّة وحدها بصحبة الولدين. وعندما وصلت إلى عرض البحر طلبت إلى معاونها أن يلقي في الماء قارب النجاة، ونفّذ الرجل الأمر من دون اعتراض، فوضعت الطفلين في القارب وانكفأت عائدة. كانت الشمس حارقة، وراح الولدان يبكيان.

لم تلبث الجدة أن دخلت القصر مبلّلة الثياب وهي تنتحب وتخدش خدّيها:

– يا إلهي! يا للكارثة! لقد أودت موجة هائلة بالطفلين، كنّا نغرق، وقد سبحت وسبحت إلى أن أنقذني مركب مرّ بالمكان، أما الولدان فقد وضعتهما في قارب النجاة لكن ويا للأسف كان البحر أعتى من طيبتي وقد أودت بهما أمواجٌ هائلة. لقد أُسقط بيدي، وصرخت، صرخت، لكن خادمي غرق، والقبطان قفز إلى الماء ليستعيد الولدين

لكن هو أيضاً أودت به موجةٌ مشؤومة...

بكت جوهرة وقيس حتى جفّ الدمع في مآقيهما وتحطّم قلباهما من الألم، ووجدا سلواهما في الصلاة. أما الملكة الأمّ فكانت تتظاهر بأنها مفجوعة وتبكي وتنوح. لكن أحدهم فاجأها وهي تتنشّق من بصلة مقسومة نصفين لكي تستدرّ الدموع، وعندما رأته هدّدته بأشد انتقام إن هو فضحها.

في منتصف الليل سُمِع قرعٌ على باب القصر، فقفزت جوهرة مثل حيوان استشعر وجود صغاره، ولحق بها قيس وأسرعا راكَضْين شبه عاريَيْن عبر فناءات القصر. وفتح قيس الباب الكبير فإذا هو أمام عجوز يرتعد ويقول له:

– سيّدي، أنا مجرّد صيّاد بائس. وقد أنقذت بعد ظهر هذا اليوم طفلين متروكين في قارب نجاة، ولم أجد أهلهما، ربما غرقوا. وأنت إنسان طيّب وفكّرتُ أنك قد توافق على أن تشمل برعايتك هذين الملاكين الصغيرين. لم أعرف إلى مَن يجب أن أتوجّه، لكن زوجتي حليمة نصحتني بأن أسلّمهما إلى القصر. وقد أطعمَتْهما وغيَّرَتْ ثيابهما. ها هما نائمان في قفة الصيد هذه يحلمان أحلاماً سعيدة.

ارتمت جوهرة على الرجل العجوز وضمّته بذراعيها، ودعاه قيس إلى الدخول لكن الصياد قال له إنه يجب أن يرجع إلى البحر.

وهمست الجنيّة الطيبة في أذن جوهرة:

– سبق أن نبّهتك، إن الناس لا يتغيّرون أبداً. حالياً خذي ولديك وارحلي مع زوجك إلى حيث تكونون في مأمن، وعليكِ بالصبر. ستتحقّق العدالة، فإذا عرفت كيف تنتظرين سترين روح عدوك تفارق

بألم جسده، جسداً مدمَّراً لا قوة فيه ولا رجاء.

انعزل قيس مع زوجته وولديه في جناحيهما وقرّر ألاّ يتعاطى مع أمّه من الآن وصاعداً.

بعد أيام استدعت الملكة ابنها وقالت له:

– عليك أن تختار بين أمك وهذه الزنجية، بنت العبيد ربيبة الأكواخ والجوع. أنا والدتك، بإمكاني أن أجرِّدك من لقبك وأجعل منك نكرة. أنت لم تعمل بنصائحي وانسقت وراء نصائح أبيك. وكلاكما خانني. والآن لم أعد أحتمل هذا الوضع عندي، فإما أن تتخلّص منها وإما أن تغادر البلاد، وطالما أنا على قيد الحياة لن تنعم أبداً بالسلام.

– لكن يا أمّي، لماذا كلّ هذه الكراهية؟ لماذا قلبك أسود وكبدك جاف وعيناك صفراوان من البغض؟ ما الذي ينقصك؟

– ليس عليّ أن أبحث معك في وضعي. من واجبك احترامي والإخلاص لي، وإذا مانعتَ تنتهي علاقتي بك.

قرّر قيس أن يستشير والده المريض الذي كان شاحباً ومنهكاً، فقال له:

– يا بني، كنت أنتظرك. أنا مريض، وأعتقد أن مرضي ليس طبيعيّاً، قد يكون أحدهم سمّمني أو سحرني. صحيح أنني أفقد قواي، لكن ليس عقلي ولا صفاء ذهني. ما كان عليّ أن أسمح لك بإيقاظ تلك الأميرة البائسة. فمنذ ذلك اليوم بدأت صحّتي تتدهور، كأنما شخص شرّير جداً قد سحرني. لا تقل لي إنك لا تؤمن بالسحر، فنحن فرائس سهلة لأننا أناس صادقون وعفويّون. لا تغادر، لا ترحل، يا بني، يجب

أن تقاوم الشيطان وتحاربه.

– لكن ما هذا الشيطان الذي ينكّد حياتنا؟

– صحيح يا بني، إن اللاهوتيّين والعلماء وأهل الخير يؤكّدون لك إن الشيطان داخل كل واحد منّا، وهو مرئيّ عند البعض، وكامن عند البعض الآخر. ولنقل إننا، أنا وأنت، نكافح لكي نبعده ولكي لا يعمل من خلالنا. أعرف أنك تفكّر في أمّك، وأنني لا أجرؤ على كسر خاطرها. وقد بلغني ما فعلته بأولادك، لكن الغيرة هي التي تدفعها إلى التصرّف بهذه الطريقة، هي نفسها يسكنها شيطانٌ آت من مكان بعبد. اعمل على حماية ولديك، وأبقهم قربك، وعلى الأخصّ لا تدخل متاهات السحر والأعمال الانتقامية. استدع طبيباً من خارج حاشيتي، طبيباً غريباً لا يعرفني، واطلب منه أن يفحصني، أريد أن أعرف ماذا أطعموني. قمْ بذلك سرّاً، لا تخبر أحداً.

في هذه الأثناء كانت الملكة قد أمرت باستدعاء الغول الأشدّ شرّاً في البلاد. كان يقيم على رأس شجرة لا ينزل منها إلا لاصطياد الذئاب التي يأكلها بنَهم. رجلٌ من أكلة الذئاب! ليست هذه خرافة، فقد كان يحبّ اللحم النَّيْء وحتى أنه افترس بعض الرعيان الصغار. وهنا اختلفت الروايات، فزعم البعض أنه لا يأكل من البشر إلا الكبد والقلب، وقال آخرون إنه لا يقتلهم بل يعذّبهم عذاباً شديداً.

كان الغول يتمتع بمظهر لا بأس به، فهو لا أعور ولا أعرج، ولا يبدو الشرّ على وجهه. يظنّ الناس أنّ القبح الجسدي ملازم للأذى والوحشية، وليس هذا صحيحاً، فقد كان الغول ذا مظهر بشريّ لائق تماماً. عندما وصل إلى القصر سجد أمام الملكة وقال لها:

– فلتصدر جلالة الملكة أوامرها فينفّذها عبدها بكلّ سرور!

– أريد منك أن تأتيني بكبد الزنجية، الأميرة المزعومة التي نامت مائة سنة وتزوجت بابني الغبي.

– الكبد فقط يا صاحبة الجلالة؟

– أتصوّر أنك قبل أن تقتلع كبدها يجب أن تقصف عمرها!

– هذا رهن بما تريد جلالتك، بإمكاني أن أنزل بها العذاب بسحب هذا العضو الحيويّ منها من دون أن أقتلها.

– أنتظرُ أن أجده على هذا الطبق الفضّي غداً في هذا الوقت. هيّا اذهب وإليك حزمة المفاتيح هذه لكي تتمكّن من فتح كلّ الأبواب.

غادر الغول متراجعاً من دون أن يرفع نظره إلى الملكة. وراح يراقب مداخل جناح قيس وجوهرة، منتظراً أن تكون الأميرة بمفردها. وكان قيس قد غادر ليأتي بطبيب لوالده. تسلّل الغول إلى القصر الصغير حتى بات وجهاً لوجه مع الأميرة، فصُعق وكاد يقع. لقد اضطرب لجمالها والإشراق الصادر من وجهها الأسود ورشاقة قامتها ولطف عينيها وأحسّ بحرج شديد، وجعل يعتذر منها:

– حضرة الأميرة، أعتقد أنّني أخطأت الغرفة. فأنا هنا لكي أصلح درف الشبابيك التي خلعتها العاصفة في الأيام الأخيرة.

– بالفعل لقد عصف الهواء بقوة، لكن أليس معكَ معدّات؟

– يجب أن أعاين الأضرار أولاً ثم أعود لاحقاً.

– أتحبّ أن تشرب فنجان شاي؟

– بكل سرور، إنها المرّة الأولى التي أشرب فيها الشاي مع أميرة بهذا الجمال.

ومجدَّداً همست الجنيّة الطيّبة في أذن جوهرة ناصحةً إياها بالحذر. ثمّ استأنف الغول كلامه:

– أيتها الأميرة، أنتِ جميلة وشابة، ولون بشرتك رائع، أنتِ طيّبة ومشرقة، وأرى لزاماً عليّ أن أبوح لك بأمرٍ رهيب. أنا لستُ نجّاراً، أنا وحش آكل لحوم البشر، ليس لي مبدأ ولا أخلاق. أنا الابن البكر للشيطان، وأنا فاسد مُشبَع بالكراهية، الكراهية المجانية لكل البشر. لا أصدقاء لي، ليس إلا أعداء، فأمضي وقتي في التسبّب بالأذى، وقد حضرت هنا لكي ألحق بك أذىً شديداً. صارحتك بالحقيقة، وأنا عادةً لا أتكلّم لكن حضورك أعاد لي الكلام ودفعني على الأخص إلى تفسير عملي الشنيع. أنا لا أعيش بين البشر، ولا أحبّ أحداً وأحسد الجميع وردّة فعلي الوحيدة هي الفتك. أنا سفّاح بلا شفقة، لا أتردّد ولا أتبصَّر ولا ضمير لي. أنا أسوأ من الحيوانات، لأنّ الحيوانات لا تهاجمك إلا إذا جاعت أو إذا استفزّيتها، أمّا أنا فإنّي أهاجم من لم يلحقوا بي أذى، أذبح وأسلخ الجلد وآكل الكبد وأشرب الدماء... لكنّني هنا، أيتها الأميرة، وجدتُني شخصاً آخر، أحسست بضعفي وطَلَع لي الكلام جاعلاً منّي إنساناً. أتصبَّب عرقاً بارداً وأشعر بالخجل، الخجل والخوف. لا أريد أن ألحق بك الأذى، لأنّ كبدك هو المطلوب منّي أن أحمله للملكة على هذا الطبق، كبدك. هل تستوعبين ما أقول؟

– إذا أردت كبدي، أعطيك إياه شرط ألا تصيب ولدَيّ بأي أذى.

– كلا أيتها الأميرة، لن أمسَّك بسوء، وأنا أنحني أمام طيبتك وجمالك. أنت شخص رائع، وأنا آسف لأنني تسلّلت إلى شقتك،

وأريد الآن أن أساعدك، أن أؤدّي لك خدمة، مُريني فأنفّذ أوامرك.

– ليس عندي أوامر أصدرها لك. أنتَ حرّ.

– كلا، أريد أن أكفّر عن خطئي، أن آتي عملاً حسناً ولو لمرّة واحدة، ساعديني على عمل الخير... يمكنني مثلاً أن آتيك بكبد الملكة الشرّيرة جدّاً، أو بقلبها...

– كلا، لا حاجة بي للأذى لكي أنتقم، أَدَعُ السماء تفعل فعلها.

غادر الغول باكياً للمرة الثانية في حياته. بكى للمرّة الأولى في طفولته عندما تخلّى عنه أهله ورموه في الغابة حيث عاش بصحبة الحيوانات المتوحّشة. ومجرَّد رؤيته وجه الأميرة الرائع كان كافياً لكي يقضي على كلّ النزوات السيئة والطفوليّة فيه. وكلما تأمّلها تضاءلت ميوله الشريرة. لكن ما كان بإمكانه أن يعود إلى الملكة خالي الوفاض. فقام بجولة في الغابة واصطاد خنزيراً صغيراً فقتله وانتزع قلبه، لأنّ قلب الخنزير هو الأكثر شبهاً بقلب الإنسان، ثمّ نقعه في صلصة العشرة بهارات وأضاف إليها كمّية كبيرة من مُبيد الجرذان. ثمّ وضع القلب المعدّ على الطبق الفضّي المذكور وعاد يقدّمه للملكة التي كانت تنتظر بفارغ الصبر في صالة الطعام، وقال لها:

– فلتسامحني جلالة الملكة إذا ما تأخّرت! فالحقيقة أنّ جلد الزنجية متصلّب جدّاً ولم ينغرز أيٌّ من سكاكيني فيه، فكان عليّ أن أذهب لشحذ أدواتي قبل أن أعود لتقطيع هذه البضاعة الخسيسة. أمّا كبدها فلا يؤكل، هو من المطّاط المقوّى بألياف شبه معدنية. ولذلك رميته، وعلى كلٍّ أكله ذئب مارٌّ بالمكان ومات على الفور. وبالعكس حافظ قلب الأميرة على نضارته مثل مظهرها، فهو رخص وطيّب

المذاق، وهو على الأخصّ سيعيد إلى جلالتك الحيوية والشباب. وقد سمحت لنفسي بأن أنقعه في العشرة بهارات التي تحبّينها، الكمّون والزعفران والفلفل والفليفلة الحمراء الحلوة والفليفلة الحمراء الحارّة والزنجبيل والقرفة وذباب الهند وزيت البرغموت وعصير الكزبرة ممزوج بزيت اللوز البرّي المستورد من بلد بعيد يدعى المغرب. والآن فليبدأ الاحتفال! لم تعد هناك أميرة سوداء، ولا دخيلة على الأسرة العظيمة. وابنك عاد حرّاً، وهو لك.

رمت الملكة للغول كيساً مليئاً بنقود ذهبيّة، فارتمى زاحفاً مثل ثعبان والتقطه وأدناه من فمه يقبّله، وقال للملكة:

– أُقبّل كل شيء لامسته يداك، إنه لشرفٌ كبير لي أنّي خدمتك. أطال الله بعمرك وعساك لا تلقين إلا ما يتمنّاه قلبك. ليمنحك الله الصحة والعافية لكي تتغلبّي على كلّ من يتجرّأون على تمنّي الشرّ لك ولينقلب هذا الشرّ عليهم ويدمّرهم كلّياً.

– كفى أيها الغول، تعالَ وشاركني الطعام!

ارتعد الغول وحاول أن يتفادى هذه المحنة:

– لكن لا يمكن جلالتك أن تجالسي إلى مائدتك متشرِّد غابات بائساً مثلي، ليس هذا لائقاً. ما أنا إلا عبد، الخادم الأمين لجلالتك. أعطني حصّتي فآكلها كالعادة في شجرتي.

فرمتْ له قطعةً من القلب قبّلها ودسّها في جرابه وتراجع منسحباً.

لم تكد الملكة تأكل عدة لُقَم من قلب عدوتها حتى استبدَّت بها آلام مبرحة ونُقلت إلى غرفتها، وظلّت تنازع النهار بطوله والليل بطوله. وفي الصباح صُدِمت حين شاهدت ابنها يدخل ووراءه

زوجته، فأطلقت صرخةً وقالت:

– هي ما تزال حيّة! أعرف أنّ السود ليسوا مخلوقات مثلنا، فكلّ أعضائهم مزدوجة. هم أقوى منّا ولذلك علينا أن نبيدهم...

وأعطى الطبيب تشخيصه:

– حالة تسمّم. لقد سُمِّمت والدتك. استدع طاهي القصر.

– لقد مات إثر انزلاقه على جلد عنزة فسقطَ وتهشَّم رأسه.

– هذا عقابه من الله!

وراحت الملكة تختنق عاجزةً عن النطق بأي كلمة، وسال لعابٌ أبيض من زاوية شفتيها، واخضرَّت كلها ثم ازرقّت حتى فارقت الحياة مختنقةً وسط تشنّجات لا شيء أوقفها.

وحضر الملك على جناح السرعة، كان آنذاك في شمال البلاد. وما إن رآها حتى أدرك أنها وقعت ضحية سلوكها الشرير. فكلّ ساعٍ إلى الأذى ينتهي دوماً مختنقاً بالشرّ الذي يضمره.

بكى قيس، فمَن دفنها هي أمّه في النهاية، وحزنت جوهرة، إذ لا طريق للمشاعر السيّئة إلى قلبها، وأخبرت ولديها أن جدّتهما صعدت إلى السماء، وأن ملاكين حملاها إلى أبواب الجنّة حيث عليها أن تجيب عن بعض الأسئلة قبل أن تنضمّ إلى الناس الذين من مقامها ومنزلتها.

بعد سنة تنازل الملك متخلّياً عن العرش لابنه. وانتاب جوهرة خوفٌ مفاجئ من ألاّ تشيخ أبداً، وراح القلق يساورها.

في الحقيقة لم يظهر أي تغضّن على وجهها الناعم. وعندما شبَّ ولداها طَوَّبا أمهما "قدّيسة الزمان".

٢

فتاةُ البرقع الأحمر

كان ما كان في قديم الزمان قَرَويّة صغيرة ذات جمالٍ باهر تُدعى سُكَيْنة. كانت جميلة لدرجة أنّ طيور الغابة وحيواناتها كانت تسارع لتأمّلها والاحتفاء بها أثناء اغتسالها عند أسفل النبع. كانت جميلة لدرجة أنّ الثمار وعصافير الدوري كانت تقع من الشجر. وفي طريق عودتها إلى القرية يرافقها بعض الحيوانات محيطةً بها كحرس شرف. لكن لم يكن لهذه الصغيرة سوى والدتها التي كانت بطبيعة الحال تحبّها أكثر من أي شخص، فتنتابها المخاوف كلما غادرت ابنتها المنزل.

كان ذلك في زمنٍ يفرض فيه القانون رجالٌ ملتحون، يرتدون جلابيب سود، مسلّحون بالسيوف والبنادق، ويضطهدون الرجال الذين لا يتردّدون على المسجد، ويرجمون النسوة اللواتي يتجرأن على تحدّيهم بارتداء أثواب خفيفة. حرّموا المدارس على البنات وراقبوا عن كثب تعليم الصبيان لكي يكون تعليماً دينيّاً صارماً. كانوا

يشكّلون "فرقة" خاصة بهم وقد أُطلق عليهم اسم "المنافقون" لأنهم ادّعوا التصرّف باسم الدين بينما هم يهتمون أكثر بتجارة المخدّرات. وقد أطلق بعضهم على نفسه لقب "أمير" والبعض الآخر "إمام"، والكلّ يزعم أنه يطبّق القانون فيما هم ينهبون البلاد وينفّرون السيَّاح. وقد نشرت هذه الفرقة الشقاء في بلدٍ إسلاميّ تعايش فيه المسلمون والمسيحيّون واليهود في جوٍّ من الوئام التام.

كان البلد يرزح تحت هذه الديكتاتوريّة، وكل من يتجرّأ على رفع صوته محتجّاً يتعرّض للسجن والتعذيب، حتى عمّ الرعب كلّ مكان. إلا أنّ القرويّة الصغيرة، ومع أنها سمعت ما يُحكى عن المساوئ التي يرتكبها الغاشمون، لم تَخَفهم مطلقاً. فهل كانت تجهل الخطر الذي تعرّض نفسها له؟ وهل آنست من نفسها من القوة ما يساعدها على مواجهة أي خطر؟ سمعت كلاماً كثيراً عن اغتصابات جماعية تتعرض لها الصبايا، وعن رجم الزوجات المتّهمات بالخيانة الزوجية من دون أي إثبات، لكنها كانت مقتنعة بأنها، هي شخصيّاً، محميّة بحسب نبوءة أبيها الذي تكهّن لها وهو على فراش الموت بمستقبلٍ باهر.

في أحد الأيام علمت والدة الصغيرة أنّ جدّتها الساكنة خارج البلدة عند أطراف الغابة مريضة، قيل لها إنها أصيبت بنزلة برد. فقد حضر رسول لإبلاغ العائلة، إلا أن الأم لم تكن قادرة على التنقل بسبب سقطة مؤذية على الدرج، فكلّفت سُكينة أن تحمل إلى جدّتها فطائر بالزبدة ووعاءً من الهلام الشهيّ ودواءً لمعالجة نزلة البرد، وقالت لها:

– يا ابنتي المحبوبة، تحملين كل هذا إلى جدّتك وتعودين بأسرع ما يكون إلى المنزل. لا تكلّمي أحداً في الطريق وظلّي متيقّظة، وبشكلٍ خاص لا تتأخّري.

لفتت سكينة أمها إلى أَنْ ليس عندها برقع تلبسه للخروج وأنّ الملتحين البغضاء قد يتذرّعون بذلك لكي يهاجموها.

تناولت الأم إذّاك ملاءةً حمراء ولفّت بها ابنتها التي انطلقت إلى بيت جدتها مغلّفةً بهذا البرقع المرتجَل من رأسها حتى قدميها.

لم تكن سُكينة ترى إلا بعينٍ واحدة إذ غطّت الأخرى بطرفٍ من البرقع لأنّ النساء كنّ ملزمات التلفّع بهذه الطريقة كيلا يُثرْن سخط الملتحين المرعبين، فمشت ونظرها إلى الأرض داعيةً الله أن يساعدها على الإفلات من الرقابة، لأن أصحاب اللحى احتلّوا البلدة بعد أن هزموا قوات الشرطة والدرك، وقسّموا البلاد مقيمين الحواجز هنا وهناك، وفرضوا شرائعهم ونشروا الرعب. وقد ساعدتهم أموال المخدّرات على شراء الأسلحة واقتناء وسائل الاتصال الفعّالة. أما جماعة النظام السابق فقد غادروا إلى الخارج تاركين البلد وشعبه لهذه الزُمر من المجرمين.

اجتازت سُكينة المدينة من دون أن تلفت الأنظار، كانت صغيرة جدّاً لدرجة أنّ أحداً لم ينتبه إلى هذه الكتلة الحمراء الضئيلة.

لكن بوصولها عند طرف الغابة المؤدّي إلى بيت جدّتها اعترض طريقها شابٌّ ملتحٍ كثيف الشعر وجسور:

– أنتِ! توقّفي! أين تذهبين بهذا الشكل؟ ولمَ هذا النوع من التنكّر؟ ألَا تعرفين أن الأحمر هو لون الثورة؟ هل يعني هذا أنك

متمرّدة معارضة لثورتنا المجيدة؟

تظاهرت سكينة بأنها لم تفهم شيئاً وأجهشت بالبكاء. والغريب أنّ هذا الرجل الطويل والنحيل قد تأثّر بهذه الدموع:

– لا تبكي أيّتها الصغيرة! قولي لي أين تذهبين وأنا أساعدك. فهنا كما ترين، في هذه الغابة، هناك ذئاب شرِسة، لا بل شرِسة جداً، وتحبّ اللحم الطري. فقولي لي أين تذهبين.

– أنا ذاهبة عند جدّتي المريضة، أحمل إليها بعض الفطائر والعسل والأدوية.

– وأين تسكن؟

– في بيت أخضر عند مخرج الغابة. وفي الحقيقة هو أزرق اللون لكن الأعشاب غطّته حتى سمّي "البيت الأخضر".

– أتعرفين؟ لقد علّمونا في المدرسة القرآنية أن نمدَّ دوماً يد المساعدة إلى الناس المسنّين، خصوصاً في حالات مرضهم. يجب عليّ إذن أن أزور جدّتك، هذا واجب يمليه علينا الإيمان. لو أردتِ أسبقك فأبلغها بزيارتك، وأنا متأكّد من أنها ستسرّ بذلك.

فسألته سكينة:

– لكن لماذا تحمل سلاحاً؟

– أتقصدين خنجري؟ إنه جميل جداً، قطعة من المتحف، ورثته عن جدّي الذي قاتل الإنكليز عندما احتلوا بلادنا. لكنه ليس سلاحاً بالمعنى الصحيح للكلمة، فهو لا يكاد يقطع الزبدة.

– عجباً! لكنك تحمل بندقية أيضاً! أهي لشقّ البطيخ؟

– كلا، البندقية ليست ملقّمة. إنها فقط للتخويف.

– لكن ممّن تخاف؟

– لا أخاف، بل أنا علي أن أخوّف الفاسقين الذين لا يحترمون شرائع ديننا الحنيف، أولئك الذين يلاحقون الفتيات اللواتي ينشرن الرذيلة والفسق في كل مكان. أما أنتِ فليس عليك أن تخشي شيئاً، أنت بريئة وتُعنَين بجدتك. إنه لعملٌ خير فعلاً أن تتصرّفي بهذا الشكل، وفقاً لوصايا الله تعالى.

عملت سُكينة على التظاهر بالاطمئنان إليه. وقبل أن يتركها ربّت هذا الوحش الملتحي والضخم على خدّها فوقع برقعها كاشفاً عن جمال قسماتها. كانت ذات نهدين صغيرين ضامرين تبدو منهما حلمتان في أوّل تفتّحهما، تأمّلها الوحش بعينين حمراوين جاحظتين ثمّ همّ بالاقتراب منها، فتراجعت سكينة وأعادت البرقع إلى وجهها وطلبت من الرجل أن يبتعد عنها بنبرةٍ حازمة لا توحي عمليّاً بأنّ صاحبتها صبيّة خائفة.

وانطلق الرجل كالسهم وتوغّل في الغاب.

انتاب سكينة القلق، لكنها عادت واطمأنّت عندما فكرّت أنّ كوكب سعدها ساهرٌ عليها. ومع ذلك فكّرت بالعودة على أعقابها لكن تصوّر حالة جدّتها أقنعتها بإتمام واجبها، فواصلت طريقها من دون استعجال.

وفي فورة غضب دخل الرجل من النافذة وانقضّ على العجوز النائمة يطعنها بخنجره بكل وحشية، وهو لم يكَد يتلو شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله. ولم يتورّع هذا الوحش عن لفّ جثة الجدّة بلحاف وإخفائها تحت السرير، ثم استلقى، متنكّراً كيفما

كان، حيث كانت ترقد العجوز قبل دقائق.

استشعرت سكينة وقوعَ أمرٍ سيّئ، وهو حدسٌ تعرفه جيّداً وهي تصدّق قلبها عندما ينبئها ببعض الأحداث. وقفت جامدةً قدّام الباب وأصاخت بأذنها فلم تسمع شيئاً. فطرقت الباب ونادت:

– جدّتي! جدّتي هل أنت هنا؟

فردّ الملتحي بصوتٍ جهوريٍّ مرتعش:

– نعم، أنا هنا يا بنيّتي، المفتاح تحت مزهريّة الفخّار.

دخلت سُكينة على رؤوس أصابعها فشمّت رائحةً غريبة.

– جدّتي، ما هذه الرائحة؟

– آه يا بنيّتي، لقد ذبح جارنا حملاً في مناسبة ولادة صبيٍّ له، وهذه رائحة الدم النتنة... لا تعيريها اهتماماً، تعالي، أسرعي لتدفئة جدّتك العجوز المريضة.

وإذ اقتربت سُكينة أدركت أن الملتحي قد تنكّر ورقد مكان جدّتها. تجمّد الدم في عروقها وكاد يُغمى عليها، لكنّ قوةً خفية في أعماقها منعتها من ذلك، وحرصت على عدم إثارة شكوكه، فقالت بصوتٍ ناعم:

–لكن يا جدّتي لا يجب ان أدنو منك لكي لا تُعديني بالميكروبات، سأبقى بعيدةً قليلاً عن سريرك.

– حسناً، لكن لو تعطيني ما أتيتِني به.

– طبعاً يا جدّتي، لكن امنحيني بعض الوقت لكي أنزع البرقع فأهتمّ بك.

ودخلت المطبخ وانفجرت باكية. وفتّشت عن سكين كبير لكي

تدافع عن نفسها، لكنها لم تجد. فتمالكت نفسها وقالت:

– جدّتي، هل تحكين لي قصّة الذئب النباتي؟

عندها فقد الملتحي صبره وقفز كالنمر منقضّاً على سُكينة التي تفادته في اللحظة المناسبة فسقط على زاوية الطاولة، لتبدأ معركةٌ رهيبة. فراحت سُكينة، وهي أخفّ منه وأكثر مرونة، تقفز من مكانٍ إلى آخر متفاديةً ذراعيه الممدودتين وهو يزعق مُغضباً:

– ها، هل تظنّين أنك ستفلتين منّي؟ صدق الله العظيم عندما حذّرنا من قدرة المرأة على الأذى. سأريك أيتها الصغيرة القذرة، سترين عندما تخضعين لمشيئتي...

لم تُجِب واستمرّت تركض في كلّ الاتجاهات راميةً وراءها كل ما تجده في طريقها لكي تُكثر المعوّقات أمامه.

(من البديهيّ أنّ الملتحي كان أقوى منها وأفضل سلاحاً. وبطبيعة الحال كان سيحشرها في زاوية ويغتصبها قبل أن يقتلها. لكن قيل إنّ البراءة، في مرّات، تنتصر على الشرّ المطلق، والنساء على وحشية بعض الرجال.)

في غمرة ركضه في المنزل فقد الملتحي تنكّره وبدا عارياً تماماً، فانفجرت سُكينة ضاحكةً وهي تشير إلى عضوه الذكريّ:

– ياه! كم هو صغير عضوك يا سيّد! يا للغرابة! أبهذا العضو تغتصب النساء؟ يا لضآلته، عليك أن تخجل به...

وكلما استرسلت في الضحك كان الملتحي يستشيط غيظاً لأنه لا يتمكّن من الإمساك بها.

كانت قد تعلّقت على رأس عارضة، وهو يحتاج سلّماً ليتمكّن

من الوصول إليها، وهذا متعذِّر عليه. وفي مكانها هذا باتت خارج دائرة الخطر، وإذ وثقت سكينة من نفسها ومن وضعيتها، استأنفت تهكّماتها:

– تزعم أنك مسلم! بئس الإسلام! أنتَ لست جديراً باعتناق هذا الدين. ما أنتَ سوى مهووس جنسيّ ب"حمامة" صغيرة عاجزة حتى عن إثارة الشهوات. أنت قبيح ونتِن، حقير لا قيمة لك، أنتَ قاتل...

– يبدو أنّك شيطانة، أين تعلّمتِ هذا كلّه؟

– نعم، أنا شيطانة، سأجتثّ أعضاءك التناسلية. هي في كلّ الأحوال لا تفيدك شيئاً، فقط لكي تتبوّل بها... هذا ما سأفعله عندما أمسك بك!

جذب الملتحي طاولةً ووضع فوقها مقعداً وحاول الوقوف عليها، لكنه سقط منطرحاً أرضاً، وإذا الدم يسيل، لأنه أثناء سقوطه انغرز خنجره في جنبه، وعلى الأرجح أنه أصاب منه الكبد. راح يبكي من الألم ويجرّ نفسه على الأرض يتوسَّل طالباً النجدة. لكن حتى في وضعه هذا لم يكفَّ عن إطلاق التهديدات:

– سترين ما سأفعل بك، ستندمين على اليوم الذي ولدتِ فيه، يا ابنة إبليس.

نزلت سُكينة بهدوء عن العارضة وتمكّنت من تقييد رجليه وخرجت تطلب المساعدة. كان هناك بعض الجيران وصيادون يُلمِّعون أسلحتهم. أخبرتهم سُكينة أنّها تمكّنت من السيطرة على قاتل جدّتها، فما كادوا يصدّقون ذلك:

– أنتِ، الفتاة الضئيلة، الصغيرة، تمكّنتِ من توقيف مجرم؟

– نعم، فلْنقُلْ إنني كنت محظوظة، أما الآن فعلينا استدعاء الشرطة.

– كم أنتِ مسكينة! هل تعتقدين أن الشرطة ستكلّف نفسها عناء الحضور؟

– إنها فرصة سانحة لنبرهن أنّ بإمكانها أن تفعل شيئاً ما، لأنّ الأمر يتعلّق بأحد هؤلاء "المنافقين"، هؤلاء الملتحين الذي ينكّدون حياتنا.

اندفع الرجال داخل البيت الأخضر، فوجدوا الملتحي يتخبّط بدمائه، وينازع مستمرّاً في شتم سكينة.

وأخيراً وصلت الشرطة، وبدا قائدها في حالة رضى تام لاعتقال وحشٍ من هذا النوع سرعان ما اعترف بجريمته:

– لقد عاقبني الله، فأنا طعنت نفسي بخنجري... هذا عقاب الله لي...

تأخّرت سيارة الإسعاف بالوصول بسبب كثرة الحواجز التي نصبها المنافقون. وعندما وصلت كان قد فات الأوان، فالملتحي فارق الحياة.

حرص قائد الشرطة على مرافقة سُكينة إلى منزلها حيث قدّم التعازي لوالدتها وهنّأها في الوقت نفسه بابنتها التي تتمتع بهذه الدرجة من الذكاء والقوة.

وقد بكى الجميع. وفي اليوم التالي عُلِم أن الشرطة والجيش قاموا بعملية أدّت إلى توقيف الكثير من أعضاء جماعة المنافقين، فيما فرّ الباقون إذ كانت لهم قواعد خلفية في البلد المجاور الذي أصبح

معقلاً للإرهاب الدوليّ.

وشكّلت مراسم دفن الجدّة مناسبةً للشعب لكي يندّد ليس فقط بجماعة المنافقين، بل بالبلد الذي يدعمهم. ونُظّمت مظاهرات في كل مكان تقريباً بدعم من الجيش الذي عَيَّن رئيساً مؤقتاً على البلاد. وحاول بعض المتعاطفين مع هذه الجماعة إثارة البلبلة إلا أن الشرطة استعادت زمام المبادرة وطاردت أولئك الذي حملوا معهم الظلامية إلى البلاد.

تابعت سُكينة دراستها. وفي أحد الأيام طلب منهم المعلّم التوسّع في الموضوع الإنشائي التالي: "ناقش هذا القول: الإنسان للإنسان ذئبٌ ضارٍ". وأوضحت سُكينة طوال نصّها، استناداً إلى ما خبرته، أن لا دخل للذئب في هذه القصة، ولا حتى للجرذ أصلاً، وخلصت إلى هذه العبارة التي بدت أكثر صوابيّة: "الإنسان للإنسان هو إنسان".

ومذّاك صار الأستاذ يستشير سُكينة بانتظام قبل أن يطلب من التلامذة معالجة هذا الموضوع أو ذاك، فقد رأى أنها ليست ذكية جدّاً وحسب بل وتتحلّى بحكمةٍ وحسٍّ سليمٍ صارا محطّ إعجابه.

٣

أبو لحية زرقاء

كان ما كان في قديم الزمان رجلٌ ورث، كابنٍ وحيدٍ لأهله، ثروةً كبيرة، فلم يضطر إلى العمل وعاش في قصرٍ كبير لا يعرف كيف يتصرّف بالأملاك التي بات يملكها. وهو بالكاد تعلّم القراءة والكتابة، فكان يشعر بالسأم ويعامل الموظّفين عنده معاملةً سيّئة ويمضي وقته جاهداً لملء أوقات فراغه في تعطّله. كان ولداً مدلَّلاً وزاده إثراؤه المفاجئ تعجرفاً. في الصباح يحتسب أمواله المخزَّنة في صناديق ضخمة مالئاً بذلك بعض ساعات فراغه خصوصاً عندما يخطئ في الحسابات ويضطر إلى البدء من جديد. بعد الظهر يغرق في قيلولات طويلة مستقبلاً في سريره نساء بدينات مومسات. وفي المساء يحصي السجّاد والأقمشة الحريرية والمطرّزات التي حملها معه والده في أسفاره إلى الشرق الأقصى. وكان يؤدي الصلوات الخمس، إنما جلوساً. فكرشه الكبير كان يعوّق سجوده كما يجب ولذلك سمح له إمام المسجد بأن يصلّي جالساً أسوةً بالمرضى والمعوَّقين. وممّا

يقوله: "المهمّ هو نشر عمل الخير حولك، وعندما تصلّي فكّر بالذين لا يملكون شيئاً".

لم يكن مسلماً صالحاً لكنه اهتمّ بالحفاظ على المظاهر، ومرّة واحدة في السنة، في عيد المولد النبويّ، كان يؤدّي فريضة الزكاة ويقيم وليمةً كبيرة لفقراء منطقته.

عندما يسأم من كل ما يملك يلجأ إلى حمَّامه على أمل أن يخيس بضعة كيلوغرامات. ويروح عندها يفكّر في وحدته التي يعزوها إلى سحر ألقته عليه امرأة كانت تدّعي أنها ابنة سفاح لأبيه. وكان قد طردها فهدّدته بجعله يعيش في عزلةٍ أبدية.

كان مدلِّكه "مومو" شاباً شديد الجمال والوفاء، يقوم بعمله بصمت وهو يثق به ويصارحه، وممّا يقوله له: "كيف تعمل لكي تحظى برضى كل هؤلاء النسوة؟ ألأنّك شابّ؟ أنا أيضاً شابّ. وجميل؟ أنا أيضاً جميل. ما الذي يميّزك عنّي؟ ما هو سرّك؟" فلا يجيبه مومو ويواصل تدليك ذلك البدن المدهن ويصرف تفكيره إلى أمورٍ أخرى.

في أحد الأيام قال له الرجل:

– أضاعف أجرك إن أتيْتَني بإحدى أولئك النسوة إلى القصر.

فنكص مومو برأسه مجيباً:

– ليس هذا عملي.

زاد ذلك من حزن الرجل ومن عذابه إذ ما من امرأة تجاوبت مع مبادراته. لم يفهم لماذا يهربن منه، فهو يرى نفسه رجلاً جميلاً وذكيّاً يتحلّى بالجاذبية والخيال. فيقول في نفسه في ساعات وحشته

الثقيلة: "لا تعرف النساء ماذا يفوّتن على أنفسهنّ، فمعي سيعِشْنَ السعادة والفرح والثروة والنزوات، لأنني أعرف كيف أضحكهنّ وأتقن القيام بمقالب غريبة. نعم، يمكنني أن أسعدهنّ لبعض الوقت".

ابتداءً من ذلك اليوم صار "عامر"، رجل كلّ المهمات، هو الذي يأتيه بالفتيات، يلتقطهنّ من المنازل الفقيرة ويغريهنّ بالمال. يعد بعضهنّ برحلة ممتعة ويمنّي أخريات بأن السيّد سيحتفظ بهنّ لفترة طويلة وحتى أنه قد يتزوّج بهنّ. وكان عامر يتنكّر ويغيّر الأحياء لكي يستقدم فتيات جديدات، حتى أصبح مدبّر الفتيات اليائسات.

وكان سيّده، لتمضية وقته وفي انتظار النساء، يطلب أن يؤتى إليه بالنعاج فيعذّبها قبل أن يمزّقها إرباً ويأمر خدمه برميها في حفرة الأُسود. أحياناً يُحمل إليه حَمَل فيدلّه كأنه ابنه قبل أن يدقّ عنقه ويدعه يموت في إحدى الزوايا. وعندما يعود الخدم يوعز إليهم بطهوه وتوزيع لحمه على الفقراء. فصار الطهاة ينتظرون يوم الجمعة ويحضّرون "الكسكس" الغني باللحم أكثر من الخضار ويوزّعونه على أبواب الجوامع. ويقال للناس: "هذا تقدمة من السيّد"، فيدعو له الجميع ويأكلون بشهية.

لكن لم يكن لهذا الذي يدعوه عامر "السيّد" أصدقاء. أما من يتردّدون عليه فكانوا يطمعون بماله. ولذلك لم يكن يثق بأحد ويمضي الكثير من وقته في تأمل الخناجر المرصّعة بالحجارة الكريمة التي جمعها والده.

في صبيحة أحد الأيام، وفيما كان يعدّ أمواله، برز له هرٌّ أسود ضخم بحجم فهد وماء عدّة مرات إلى أن لفت انتباهه فربض عندها

الهرّ على أريكةٍ فارسية رائعة مقصَّبة بالحرير والذهب ثمّ شرع في الكلام:

– النساء لا يرغبن في الرجال البخلاء وأنا لا أحبّ الأسياد الأشحّاء. إذا أردت أن تأتي النساء إليك فكن كريماً وتصرّف على سجيّتك وتوقّف عن عدّ أموالك. ابتكر أموراً جديدة ورتّب قليلاً من مظهرك وكن أكثر بساطةً وإنسانية... النساء يجب أن تحبّهنّ وتدلّلهنّ وتغازلهن وتُضحكهنّ وتجعلهنّ موضع تقديرٍ كبير. ثّم ما حاجتك إلى هذا العدد الكبير من النساء؟ لو كنت مسلماً صالحاً لتزوّجت بامرأةٍ واحدة وأنجبت منها أطفالاً رائعين. لكنك جَشِع جدّاً.

لم يرُق هذا الكلام للرجل فقال له:

– من أنتَ لتكلّمني بهذه الطريقة؟ أتعرف من أنا؟

– طبعاً أعرفك جيّداً. أنت غير جدير بأن تكون وريث والدك الجليل. هو على الأقل كان يتحلّى باللطافة، وأنت خيّبت أمله، بل أنني أظنّ أنك أنت من قتله.

فطرد الرجل الهرّ بركلةٍ من قدمه وعاد إلى إحصاء أمواله. لكن الكلمات التي سمعها للتوّ ظلّت تشغل باله. ولم يلبث أن توقّف عمّا يقوم به وقرّر استشارة عامر الذي لا تفوته الشعوذة فيعرف كيف يتعامل معه ليبعد عنه الأفكار السيّئة.

نصحه عامر المداهن والماكر بأن يقتل الهرّ ويرمي جثّته في حفرة الثعابين. لكن الهرّ كان قد اختفى في هذه الأثناء. فمن الطبيعي أنّ هرّاً يحكي ويسمع لن يبقى متسكّعاً في هذا المنزل المشؤوم.

عندما تذمّر معلّمه من قصور قدراته الجنسية أعطاه عامر مسحوقاً أحمر ليذيبه في كوب نعناع ويشربه وهو يدور في غرفته سبع دورات. وفي إحدى الليالي ما كاد يبتلع هذا المشروب حتى أصيب بمغص مبرّح. وعاده أحد المطبّبين إذ تراءى للرجل أن ساعته قد أزفت. واستُدعِي عامر وأعطى تركيبة المنشّط الجنسيّ. ولأنّ الرجل لا يستطيع الاستغناء عن خدماته اكتفى بتوبيخه واحتجازه في سجن مدة نهارين وليلتين من دون طعام ولا شراب.

وفي صبيحة أحد الأيام، وفيما الرجل يتأمّل نفسه في المرآة، خطرت له فكرة إطلاق لحيته. أراد أن يبدو مختلفاً وفريداً إذ لا يحسّ نفسه مثل الآخرين. ثمّ رأى أنه بقامته الممتلئة وبهيئته كرجل ناضج وبماله ليس عليه أن يبذل جهوداً خاصّة لإغراء النساء. لقد أحبّ النساء فعلاً، إنما على طريقته الخاصة. أما الصبايا التي كان عامر يدبّرهن له فغالباً ما كنّ يتامى أو معوزات لدرجة أنهن يرضين بأي مغامرة بدلاً من أن يقبعن في حالة البؤس هذه. وهو ما إن يُشبع رغباته حتى يتخلّص منهنّ. وهنا اختلف المؤرّخون والمحقّقون، فبسحب البعض كان يقطع رؤوسهنّ وبحسب آخرين أنه كان يدفنهنّ حيّات. أمّا الأمر الأكيد فهو أنهنّ لا يظهرن مجدّداً. فمَنْ ذا يهتمّ لمصير فتيات الشوارع اللواتي لا عائلات لهنّ ولا أزواج؟ مومسات بسبب اليأس ينكّل بهنّ بعض الوحوش مقابل بضعة فلوس. منهنّ من نجوْن بأنفسهنّ واختبأن، وأُخريات وقعن في الفخ من دون أن يبالي بهنّ أحد.

وما إن طالت على الرجل لحيته وعرضت حتى زاد قبحاً، فقد

اكتسحت لحيته وجهه وغابت خلفها عيناه فعلاً. إذّاك قرّر أن يصبغها على أمل التخفيف من تأثير منظرها. وفكّر أوّلاً في اللون الأحمر لكنه اعتبر أنّ لون الدم قد يفضح نواياه. ثمّ فكّر في الأخضر لكن سرعان ما قال في نفسه: "أنا لست نبتةً في النهاية!". وأخيراً كأنما نزل عليه الوحي فثبت خياره على الأزرق. لماذا هذا اللون؟ لأنّ على قمّة الجبل المجاور كانت تسكن إحدى الطوائف ولرجالها جميعاً لحًى زرق، وقد لقّبوا ب"رجال الجبل الزرق". وكانت فلسفتهم بسيطة تقول بأنّ النساء هم سبب الشقاء في العالم فوجبت مكافحتهنّ وإذا أمكن قتلهنّ. وكانت هذه الطائفة تحتمي في مغاور يتعذّر بلوغها وتستخفّ بالسلطات التي عجزت عن كفّ أذاها. ومن وقت إلى آخر كان بعض أفرادها ينزلون إلى المدينة ويخطفون منها امرأةً أو اثنتين، ويرمون هؤلاء النسوة، بعد اغتصابهنّ، من على قمة جرفٍ صخريّ. وكان الكلام يدور حول هذه الطائفة من دون أن تكون معروفة. وقد أُغرم الناس برواية القصص الغريبة عن هؤلاء الرجال المولودين جميعاً بإصبع سادسة في اليد وإصبع ناقصة في القدم. هذه العلامات الخاصّة هي التي جمعت بينهم وميّزتهم عن غيرهم. وقد قيل إنهم من أنصار الشيطان وإنهم أتوا من كوكبٍ آخر وإن بعضهم سقط من السماء في يوم عاصف جدّاً. فيما كان آخرون واثقين من أنّ لا وجود لهؤلاء الناس وأن السلطة اختلقت كل هذا لكي تزرع الرعب.

أما بعض المشعوذين المتقاطرين من مختلف أنحاء البلاد، فقد حاولوا من جهتهم أن يتصّلوا بهم، إذ زُعِم أن "رجال الجبل الزرق" كانوا يتمتّعون بقدرات خارقة.

لكن بالطبع لا يكفي صبغ اللحية باللون الأزرق لادّعاء هذه القدرات. ولذلك استعان مرّةً أخرى بعامر، رجله لكل المهمّات.

كان عامر يسكن على بعد خطوتين من منزل أسرة وديعة تسهر ربّته على تربية ابنتيها بالعمل كخادمة، وكان زوجها قد مات في الحرب. كانت الصبيّتان حسناوَيْن وذكيّتين لكنهما على شيءٍ من طيبة القلب، وهذا بالضبط ما يطلبه معلّمه. فاصطحب المرأة عند أبي لحية زرقاء الذي طلب يدّ إحدى ابنتيها، لكنها تردّدت وطلبت إمهالها بعض الوقت لإقناع الزوجة العتيدة بالاقتران بهذا الرجل الذي بدا لها شديد الغرابة. وكانت هذه الأمّ تتمتع بحسٍّ مرهف ينبئها بطبيعة البشر الذين يحدّثونها. وعلى الفور حدست أَنْ لا خير في حضور هذا الرجل، ثمّ إن اللحية الزرقاء أرعبتها، فماذا يخبِّئ وراء هذا الطِلاء؟ وجهه الحقيقي بالتأكيد!

إزاء تردّدها دعا أبو لحية زرقاء كل أفراد الأسرة وأصدقاءهم لتمضية عدّة أيام في أحد قصوره الكثيرة. أراد أن يغري هؤلاء الناس الطيّبين المعوزين. وكلّف عامر أن يبلّغ الدعوات، فارتدى هذا الأخير بالمناسبة جلبابه الجميل الحريريّ الأبيض وبُرنسَه ثم قصدهم حاملاً باقةً من الزهر كما هي العادة عند طلب الزواج.

كانت الفتاة البكر تدعى أمينة والأخرى خديجة، بفارق سنة بينهما لكنهما تتضارعان ذكاءً وسرعة بديهة. وقد اصطحب عامر عازف ناي بارعاً جدّاً في عزفه. وأمام المنزل أعلن عن زيارته فدعته الأم إلى الدخول، وقدّم إليها باقة ورد أبيض وقال لها بإجلال:

– أرسلني سيّدي ومعلّمي لأطلب منك أن تشرّفي بحضورك

قصره حيث يقيم احتفالاً كبيراً على شرف ابنتك! والدعوة موجّهة إليك شخصياً كما إلى أفراد أسرتك وأصدقائك وإلى كلّ من يرغب في الانضمام إلى هذه المناسبة السعيدة. يمكنكم الحضور ابتداءً من يوم الجمعة تماماً بعد صلاة الظهر.

مضى الأسبوع كأنّه لحظة، في أجواء احتفالية دونما انقطاع، والموسيقيّون يعزفون في كلّ مكان، وأقيمت مآدب فاخرة على مدار الساعة ليل نهار، وقُدِّمت الهدايا مرّةً تلو الأخرى... وقد بذل أبو لحية زرقاء جهداً جبّاراً لكي يخفي بخله وتقتيره، فالأمر يستحقّ العناء.

في الأماسي كانت تُجرى الألعاب في مختلف صالات القصر، والكل يضحك ويتسلّى في جوٍّ من الخفّة والمتعة. ولم تبدر عن أبي لحية زرقاء أي حركات خارج اللياقة ولا أي موقف مثير للشبهة. كان سيّداً وتصرَّف كسيِّدٍ كبير. ولم تعد لحيته تخيف الصبايا، لا بل إنّ خديجة وجدت فيها بعض الجمال وهذا ما جعل أختها ورفيقاتها يهزأن بها، فانفجرت ضاحكةً وقالت:

– لن أشارك أبداً هذا الرجل البدين السمين فراشه.

لكن أمينة ردّت عليها قائلة:

– لكن هو في النهاية رجل، ومعه سنسدّ عوزنا، أنت ونحن. كل الرجال متشابهون، يكفي أن نعرف كيف نلاطفهم فيتحوّلون كالحملان بين أيدينا. صحيح أن الأمر يبدو أصعب مع أبي لحية زرقاء، لكن تأمّلي عينيه، هما صغيرتان وملؤهما الكآبة، وهذه هي نقطة ضعفه، يجب أن تنجحي في تبديد هذه الكآبة التي تلازمه

وتتأكّله. وهذا هو المطلوب في الزواج، يجب استئصال الكدر من نفس الإنسان الذي نحبّه. وإذا ما نجحتِ في ذلك تسيطرين على زوجك وتصبحين أنت سيّدة القصر لا هو. ويصبح ذهبه ومجوهراته وثروته كلها ملك يديك شرط أن تحسني التصرّف وتجعليه مجنوناً بحبّك!

أجابت خديجة:

– طالما تعرفين كلّ هذا فلماذا لا تتزوّجينه أنتِ؟

– كلا يا عزيزتي فهو يريدك أنتِ، هذا ما قاله لأمنا. وهل نسيتِ حبيبي نور الدين.

كان نور الدين حرفيّاً موهوباً، لكنه رفض ذات يوم أن يصنع سريراً بقبّة لأحد الأمراء إذ تناهى إليه أنّ هذا الأمير لا يدفع أبداً أجر الناس الذين يشتغلون له. فأُوقف نور الدين بتهمة سرقة مزيّفة ورُمي في السجن. وظلّت أمينة في انتظاره على أمل أن يُطلق سراحه لأنها تمكّنت من الاتّصال بأحد القضاة النزهاء وقد وعدها أن يبذل كل جهده لإخراجه من السجن.

بعد أسابيع تمّ الاحتفال بزفاف الرجل ذي اللحية الزرقاء وخديجة الجميلة، وأُحييت حفلات لا مثيل لها طوال أيام. وقد استقدم الرجل طهاة من الهند وبلاد فارس والمغرب وفرنسا والصين. وقدّم موسيقيّون من كل القارات عروضهم مدى أسبوع كامل. وتلقّت خديجة كهدّية عدّة أثواب صمّمها خيّاطون من أوروبا، ووزّعت المجوهرات على كل أفراد الأسرة. ونادراً ما ترك زواج صدىً بعيداً بهذا الشكل.

لكن الأمّ ظلّت قلقةً، لم تعرف ما السبب بدقة لكنها رأت أنّ هناك ما يخفى وراء هذا البذخ الذي اعتبرته فاحشاً. إنها امرأة طيّبة ظلمها القدر، وإن وافقت على هذا الزواج فليس عن طيب خاطر نوعاً ما.

ووافقتها أمينة الرأي لكنها عوّلت على ذكاء خديجة لكي تُفشل أي مكيدة. وممّا كانت تقول: "لا أحبّ نظرته، في عينيه ما يخيف ويقلق".

في أحد الأيام اضطرّ أبو لحية زرقاء إلى السفر لأداء فريضة الحجّ عملاً بنصيحة الإمام الذي قال له: "بعد الزواج عليك أن تتوّج فرائضك كمسلم صالح وبذلك تُتمّ كلّ ما يدين به المسلم لله". فاستدعى زوجته ليوضح لها ما يريده منها في غيابه الذي قد يطول:

– كان بودّي أن أصطحبك معي، لكن قبل الوصول إلى مكّة المكرّمة عليّ التقاء بعض الناس، تعرفين كثرة الأشغال المملّة غالباً. ستبقين هنا وتدعين عائلتك وأصحابك لتسليتك. أنت في دارك وستكونين حارسة القصر، فإليك المفاتيح، هذه الحزمة الزرقاء هي مفاتيح الخزنات، والحمراء هي للآنية وأدوات الأكل الذهبية، والحزمة الخضراء لأبواب الوثائق المهمة والخزنات التي تجدين فيها ما تحتاجينه من مال. أما الحزمة البيضاء فتحمل مفاتيح عموميّة لكل أبواب القصر. وفي هذه الحزمة مفتاح صغير لا هو من الذهب ولا من الفضة، بل من الحديد العاديّ. وهذا المفتاح الصغير عليك ألاّ تستعمليه أبداً، فهو يفتح باب حجرة صغيرة سرّية يجب ألاّ يدخلها أحد. احفظي هذا جيّداً ولا تنقادي لميولك الخبيثة ولا لفضولك، ولا تدخلي، في أية حال، هذه الحجرة الموجودة في آخر هذا الرواق

المفضي إلى رواقٍ آخر ينزل إلى قبوٍ تحت القصر فيه من المتاهات ما يضيّع دائماً. هل فهمتِ؟ يمكنك استعمال كلّ المفاتيح لكن لا تفتحي أبداً باب حجرتي السرّية. وأنا أشدّد على ذلك لأنك لو حدث وخالفت أمري، فيا ويلك، سأغضب غضباً شديداً لا رحمة فيه، وعندها كان الله في عونك!

وعدت خديجة أن تنفّذ تعليماته بحذافيرها وأقسمت على القرآن الكريم وبحياة أمها وأختها أنها لن تفتح أبداً هذه الحجرة. إلا أنّ إلحاح زوجها بهذا الشكل راح يعذّبها واستفزّ فضولها، فبذلت جهداً كبيراً لكي تتغلّب على رغبتها الشديدة في الذهاب لرؤية ما يخبّئ وراءه هذا الباب المهمّ.

غادر أبو لحية زرقاء مطمئناً، فيما ظلّ عامر يرود حول خديجة، أمّا المدلّك مومو فلم يرافق مخدومه لكي يتسنّى له الوقت لتلميع الأواني الفضّية في القصر.

بعد أيام وقعت كارثة عند مدخل القصر، إذ تعرّض عامر لطعنة خنجر من شابٍّ هو شقيق إحدى الفتيات اللواتي اختفين. ولم تنجح السلطة في توقيفه ثمّ سرت الأخبار عن فساد هذا الرجل العامل في خدمة أبي لحية زرقاء.

دعت خديجة أفراد أسرتها وأصدقاءها إلى الحضور للبقاء في صحبتها في غياب زوجها. في الصباح كانت النسوة يتسلّين بالتباري في الطبخ، والتي عليها الفصل بينهنّ تدعى بهيجة، وهي عبدة سوداء سابقاً، كانت الخليلة الحادية عشرة لوالد أبي لحية زرقاء وقد نجحت في فرض نفسها حتى بات لا غنى عنها في هذه الدارة العظيمة.

بعد الظهر كنّ يلتقين في الحمام حول خديجة التي تقصّ عليهنّ الحكايات، والحكاية التي يطلبنها كلهنّ هي التي تروي حياة الخليلة. فتخبرهنّ عندها أنها بيعت من مولاي، وهو تاجر كبير كان يقصد السنغال دوماً من أجل الأعمال:

كان ذلك منذ زمنٍ طويل، في عصر كان لا يزال بالإمكان الاتّجار بالبشر. كنا عشرة أولاد، وبعد وفاة والدي اضطرّت أمّي إلى الاستغناء عن خمسة منّا. فذهبت إلى سوق النخاسة وتكلّمت طويلاً مع سيّد لم يلبث أن دسّ في يدها بعض الأوراق النقدية ثمّ رحلت راكضةً، من دون أن تلتفت وراءها، كأنها ارتكبت جريمة. أظنّ أنها بكت. كنت في السادسة عشرة من عمري، وحتى لو أردت الهروب لم أكن أعرف أين أذهب. وحضر رجال بيض بالجلابيب والبَرانِس يتفحصوننا ويجسّون حتى صدورنا، والمال ينتقل من يد إلى أخرى إلى أن وجدت نفسي في عربة مولاي الذي لم يكلّمني قطّ.

عند أوّل توقّف طلب إلى أحد عملائه أن يأخذني إلى الحمّامات حيث كان عليّ أن أنظّف نفسي جيّداً ثم ألبسني ثياباً جديدة. وبوصولنا إلى القصر سمعت مولاي يقول لامرأةٍ بيضاء، هي على الأرجح زوجته، إنّ بهيجة، أي أنا، ستُقيم في الغرفة السفليّة. ثمّ صرت كل ليلة تقريباً أستقبل فيها سيّدي الذي ظلّ لا ينبس بكلمة،

ولو لم أسمعه يصرخ في وجه العاملين في القصر لظننته أخرس. كان يدخل الغرفة وأعرف ماذا يريد، فأدعه يفعل وعندما ينتهي كان ينهض ويربّت على خدّي. لم أكلّم قطّ الزوجات البيض. كنت أعيش وآكل وأضحك مع الخدم. ومن وقت إلى آخر يأتيني عامر هذا ليبلغني أنّ المعلّم يطلب تحضير وجبة طعام أفريقية له، فيكون هذا يوم سعدي، أصير أنا ملكةً على المطبخ وليس لأيٍّ كان أن يزعجني...

كانت الصبايا يرهفن السمع إليها مشغوفات بهذه القصّة التي كانت ترصّعها بتفاصيل تثير ضحكهنّ.

وفي أحد الأيام طرحت عليها خديجة السؤال الذي كان على شفة كلٍّ من أولئك الصبايا:

– ألم تنجبي أولاداً؟

صمتت بهيجة برهةً وأجابت بطريقةٍ جافّة:

– كلا، لا أولاد.

ليفهم الجميع أن عليهنّ تغيير الحديث. أما ما أرادت الصبايا معرفته تحديداً فهو ما جرى ليلة الدخلة مع صديقتهنّ.

أبدت خديجة بعض الانزعاج لكن الفتيات تجرَّأن وطرحن أسئلةً دقيقةً جدّاً. فقالت لها بهيجة:

– هيّا احكي لنا، يا عزيزتي، كيف... كيف دخل عليك زوجك...

تردّدت خديجة برهةً ثم تمتمت كلاماً مثل "لا... هو لم يدخل"...

وألحّت عليها أختها كي تروي المزيد.

– لم يتمكّن. عضوه صغير جداً، هو لا ينتصب كما قيل لي. استسلمت له لكنه عَرِق واضطرب ثم كفّ من دون أن يفوه بكلمة. ثمّ غفا وراح يشخر بقوة فلم يغمض لي جفن طول الليل.

أيّدتها بهيجة كأنها تكلّم نفسها:

– أبو لحية زرقاء ليس رجلاً... ليس رجلاً... لو كان مولاي على قيد الحياة لمات من العار.

وطالبت الصبايا بالمزيد من التفاصيل وألحْنَ، فراحت خديجة تحكي:

– بسبب كرشه الكبير لا يمكنه أن يضاجع، جشمه يعوِّقه. في لحظة ما، ولكي أُسهّل الأمور عليه، أردت أن أعلوه بنفسي، لكنه انتفض ونعتني بالعاهرة، فعدت إلى مكاني وتركته يتخبَّط في أمره. في الليلة الثانية أعتقد أنّ عامر أعطاه ليشرب مسحوقاً أحمر وأسود فأصيب بمغص شديد حتى اضطر الأمر استدعاء الطبيب في منتصف الليل. أما عضوه فظلّ صغيراً مثل حلزون.

ولفتت بهيجة إلى أن عدّة الوالد كانت أفضل، فانفجرت الصبايا ضاحكات ثمّ انتقلن إلى موضوع آخر، جولة في القصر. وأطلعتهنّ خديجة على ما تلقّته من تحظير فتح الباب الصغير في آخر الردهة، وهذا ما أثار حشريتهنّ أكثر، فقالت إحداهنّ:

– هنا يجري كل شيء.

وقالت أخرى:

– إنه مكانٌ سحريّ، لا بدّ من الدخول لرؤية ما فيه.

أمّا بهيجة فاستنتجت:

– لو أراد فعلاً ألا تكتشفي ما يوجد في هذه الغرفة لاحتفظ بالمفتاح. لكنه تركه لك وطلب منك ألاّ تدخليها أبداً، فكأنه قال لك: "هيا، افتحي هذا الباب وسترين ما وراءه"...

وافقتها خديجة الرأي، ثمّ سارت والفتيات يتبعنها صفّاً وراءها. وعندما وصلت إلى آخر الدهليز العابق برائحة الرطوبة طلبت إلى رفيقاتها الانتظار، عاودتها تهديدات زوجها. لكن التجربة كانت تغريها بمخالفة أوامره حتى قالت في نفسها أخيراً: "وإن يكن، فليكن ما يكون".

وأردات أن تكون أوّل من يدخل. ووجدت صعوبة في إدارة المفتاح الصغير في القفل، وعندما انفتح الباب دفعته بصعوبة فصرّ كأنّ كيسَ رملٍ يسدّه. فدفعت قليلاً وتمكنت من الدخول. الغرفة معتمة يتسلل إليها شعاع نور فقط من نافذة لم يُحكَم إقفالها. ورأت بعض الأغراض لكنها لم تعرف ما هي بالضبط. ثمّ فاحت رائحة هي ما بين الرطوبة والنتانة. تقدّمت وشاهدت بقعاً سوداء صلبة، غرزت فيها طرف قطعة خشب فإذا هي دمٌ متخثّر. ورفعت عينيها فرأت جثثاً معلّقةً بكُلابات الجزّارين. كانت أجساداً بشرية، أجساد نساء، أكثر من عشرة. وصرخت بقوة فتنبّهت رفيقاتها المنتظرات أمام الباب، فدخلن وجعلن هنّ أيضاً يصرخن أكثر فأكثر، أما بهيجة فكاد يُغمى عليها.

غادرن الغرفة راكضات، ووقع المفتاح الصغير من خديجة في بقعة دم، فلمّته وخرجت وهي ترغي وتزبد باكية. كانت الحجرة

السرّية تخفي كل هؤلاء البائسات اللواتي يُحضرهنّ عامر، فيضاجعهنّ معلمه، أو على الأقل يحاول أن يغتصبهنّ، ثم في فورة غضبه يذبحهنّ ويعلقهنّ هناك لحفظهن كما في مقبرة، في متحف الرعب هذا.

كانت بهيجة تعرف كل ذلك ولم تقل شيئاً لأنها أرادت أن تكتشف الزوجة الشابة بنفسها الوجه الحقيقي الذي تخفيه اللحية المصبوغة، وراحت تبكي وتقسم لخديجة على أنها ستساعدها بكل قواها لمواجهة هذا المجرم الوحش.

خافت صديقات خديجة وغادرن القصر، وطلبت منها أمها وأختها أن تنتقل للإقامة في بيتهنّ. ثمّ كان هناك هذا المفتاح الملطّخ بالدم والذي حاولت أن تنظّفه، لكن عبثاً، كأنه مفتاح خاص مسحور بشكلٍ ما، سيفضحها ويكشف كل ما جرى. ارتعبت خديجة وراحت تركض كيفما كان، فإذا بيد قوية تمسك بها، إنها يد زوجها الذي وصل للتو عائداً من سفره. لم يكن بالإمكان التعرّف عليه، لحيته نصف سوداء ونصف زرقاء، لم يتسنَّ له صبغها في رحلته إلى مكّة المكرمة.

– أين تذهبين؟

– ليس إلى أي مكان، أنا هنا أنتظرك.

– أهكذا يجري استقبال الحاجّ؟ هيّا يجب أن نعدّ احتفالاً بمناسبة العودة. أما الآن فتعالي لتسلية زوجك المشتاق إليك بعد شهر من التعفّف.

– حاضر، لكن دعني أعدّ نفسي، ففي الحقيقة أنا ذاهبة إلى

الحمّامات مع أمي وأختي. من الضروري أن أغتسل بعد ميعاد دورتي الشهريّة.

صدّق كلامها وانتقل ليرتاح في غرفته الزوجية، لكنه طلب منها أوّلاً كل حزم المفاتيح. فوعدته بردّها إليه بعد استحمامها. ثمّ استدعى بهيجة وطرح عليها عدّة أسئلة. فأجابته بشيءٍ من الغموض وأخبرته بموت عامر. فلم يفاجأ ولم يصدم واكتفى بالقول: "نِعْمَ النهاية"، ثم راح يستوضحها عن زوجته وصديقاتها.

– تصرّفن بشكلٍ جيّد في غيابك، لا ملاحظة يمكن تسجيلها. حسناً يجب أن أعودَ إلى المطبخ لا بدّ أنّك جائع ومشتاق لأطباقي الصغيرة الطيّبة...

كانت خديجة ترتعد خوفاً حتى أنها لم تتمكن من الاغتسال ولا من تنظيف جسمها. ارتعبت ولم تعرف كيف تواجه هذا الوحش، وتمنّت أن تهرب مع أمها وأختها لكن زوجها الذي استيقظ الآن يجول في القصر كأسدٍ في عرينه، وهو يريد استعادة المفاتيح. لكن أمينة التي بقيت مع أختها قالت لها:

– سأذهب وأفتّش عن إخوتنا ونعود بأسرع ما يكون لنحرّرك من هذا السجن.

وضمّت بقوة أختها التي ينتظرها الأسوأ وغادرت على جناح السرعة.

كان الزوج يصرخ وهو يلبط كل شيء حوله ويزعق بكل قواه: "خديجة، المفاتيح!"، لأنه كان على الأرجح يشكّ في حدوث شيءٍ ما.

عندما بدت له خديجة في ثوبٍ أبيض قالت له:

– إن الحجّ إلى مكة المكرّمة يُصلح من أمر المسلم ويجعل منه رجلاً صبوراً وجيّداً، فلا تصرخ إذ ربما ضيّعت كل ما نعمْتَ به من هذا العمل المبارك الذي أدّيته.

كانت تتعمّد الرقّة في كلامها وفي أعماقها ترتعد ولا تكاد تسيطر على نفسها. وتابعت:

– سنشرب الشاي بالنعناع على الشرفة وستحكي لي عن رحلة الحجّ، فأنا متشوّقة جدّاً لأعرف كيف كانت...

– هاتي المفاتيح أولاً ثم ننتقل إلى الشرفة.

لم تملك الخيار وكان عليها أن تسلّمه هذه الحزم الشيطانية. فدنت منه شاحبة مرتجفةً ورمتها عند قدميه.

– إليك مفاتيحك!

– لكنك شاحبة، فماذا جرى لك؟

– أشعر بصداع شديد، يبدو أنني أصبت بالبرد عند خروجي من الحمام.

لمّ حزمة المفاتيح ولاحظ فوراً أنها تنقص مفتاح الحجرة السرّية الصغير.

– والمفتاح الصغير!

– كيلا أقع في التجربة وأُغرى بفتح باب الغرفة السرية سحبته من الحزمة وخبأته في أحد الأدراج، لكن لم أعثر عليه بعد.

– اذهبي وابحثي عنه!

كان ساخطاً لدرجة أن لحيته راحت ترتجف. وبدا لزوجته أنه

تضاعف حجماً وبدانةً، يمشي فترتجّ الأرض، ويصيح فتهتزّ المرايا وتصفق الأبواب. تحوّل وحشاً لم تعرفه من قبل، ذاك الذي قتل الصبايا وتركهنّ يتعفنّ في غرفة التعذيب. وفيما هي راكضة لتأتي بالمفتاح قالت في نفسها: "يجب بأي وسيلة ألا يعود هذا المفتاح بين يديه، فآثار الدم عليه ستفضحني وسألقى مصير ضحاياه". ركضت، وقعت، نهضت، تلاحقها صياحات الوحش، إلى أن تمكّن أخيراً من الوصول إليها فأمسكها بعنقها:

– أعطيني المفتاح فوراً وإلا أضغط وتختنقي.

وناولته المفتاح المذكور، فقرّبه من أذنه وسمع ما قاله له: "لقد استُعمِلتُ، وانفتح الباب وشاهدت زوجتك وأصحابها كل ما يمكن مشاهدته. فما عليك إلا أن تقضي عليها! ثمّ انزع عنّي هذا الدم اللزج".

أمسك أبو لحية زرقاء بشعر زوجته الرائع الطويل وجرّها إلى غرفة أخرى. وفي هذه اللحظة تحديداً قرع جرس الباب. فقد حضر بعض المسؤولين ليحقّقوا في مقتل عامر. أرخى أبو لحية زرقاء قبضته عن شعرها ورتّب تسريحة شعره وراح ليكلّم الرجلين اللذين أرادا أن يعرفا منه كيف جرت الأمور، فقال لهم:

– لا أستطيع أن أفيدكم بشيء، كنت في مكة المكرّمة عندما وقعت الحادثة. لقد كان رجلاً طيّباً، وخادماً أميناً، لكنّني لا أعرف شيئاً عن حياته خارج القصر.

وراحت خديجة تصرخ: "النجدة!". وردّ عليها أبو لحية زرقاء كما لو أنهما يواصلان لعبةً ما معاً:

– نعم حبيبتي، لقد انتهت اللعبة وأنا مشغول، وسآتي لأراك عندما ينتهي هذان السيدان من طرح أسئلتهما.

واستغلّت خديجة الموقف لكي تنجو بنفسها، فارتدت جلباباً ومرّت أمامه قائلةً له:

– أنا ذاهبة لأرى أمّي، فقد وقعت هذا الصباح وهي بحاجة إليّ. أراك بعد قليل...

هكذا تمكّنت من مغادرة القصر، وما إن صارت في الخارج حتى أطلقت ساقيها للريح حتى وصلت عند أمها وانفجرت باكيةً وأخبرتها كيف هربت. كانت أمينة قد أخطرت أشقاءها وأقاربها، وطوال النهار كنّ ينتظرْنَ إشارةً من الفرسان الشجعان، فيما خديجة تسأل مرّةً تلو الأخرى أختها الواقفة على السطيحة:

– أختي أمينة، هل تلمحين أحداً آتياً؟

– كلا لا أرى أي شيء سوى المساء والحقول، سوى الطيور والفراشات.

ولم تكن خديجة في مأمن تماماً حتى في ملاذها عند أمها. فقد يدخل الوحش المنزل في أي لحظة ويخطفها. كان الكلّ خائفين، وأمينة تستطلع الأفق، وسألتها خديجة مجدّداً:

– أختي أمينة، هل تلمحين آحداً آتياً؟

– كلا لا أرى شيئاً سوى السماء والجبال والشجر وطيور الصيد وسحابةً كبيرة في البعيد...

– وما تلك السحابة؟

– إنها تقترب! هذا غبار تثيره القافلة. أرى جياداً ويبدو أنّني أرى

أخوتنا وأقاربنا. ها هم يصلون، يقتربون، لقد نجونا...

– انتظري قليلاً قبل أن تحتفلي بالنصر.

وقفت النسوة الثلاث وسط الطريق لتوقيف الفرسان وإطلاعهم على الوقائع، وبادرت أمينة إلى الكلام:

– أختنا عُرضة للموت، زوجها قاتل، سبق أن قتل عشرات الصبايا البائسات، وهذا ما اكتشفناه أثناء غيابه في غرفة تحت الأرض حيث تكدّست جثث النساء الذبيحات المقطّعات إرباً. إنه متعطّش للدم، مجنون خطير جداً، يجب القيام بعمل ما، وتوقيفه...

فردّ أحد الأخوة:

– لم أحبّ هذا الرجل قطّ، تبدو عليه هيئة الإجرام...

وقالت الأم:

– يا بني، ليس لأحد هيئة الإجرام! وأيٌّ كان قد يتصرّف كوحش. والأمر بسيط، هل تلاحظ مثلاً أن هذا الذي يريد ذبح زوجته هو ذو لحية وعين من زجاج... وفي كل الأحوال يجب العمل على توقيفه.

فقال آخر:

– أنا لا أثق بالعدالة في هذا البلد.

– يجب على المرء أن يأخذ ثأره بنفسه...

وتدخّلت خديجة:

– من الأفضل توقيفه وتقديمه للمحاكمة أمام قاضٍ...

وردّت أمينة:

– لكنه على درجة من الثراء تمكّنه من شراء ذمة كل قضاة هذا البلد. كلا، يجب أن يُقتَل!

وقالت الأم:

– نحن لسنا قتلة، دعونا لا نضيّع الوقت ولننصب له فخّاً، ولنتصرف كأننا لا نعرف شيئاً ممّا يخفيه. وأنا أقترح أن ندعوه إلى حفل زفاف أمينة.

وانتفضت أمينة صائحة:

– لست في وارد الزواج!

وردّت الأم:

– نتظاهر بذلك، كأنّك تُزفّين إلى نسيبك حسين. وحتى وإن لم يكن ذلك صحيحاً، يجب إيقاع الوحش في الفخ. نستدرجه إلى هنا ونكبّله ونستدعي الشرطة أو الجيش...

وجدت خديجة الخطّة ذكيّة واقترحت أن يزوره الفرسان في قصره حاملين باقة زهر كبيرة.

وقصد الشقيقان والأقرباء الثلاثة القصر وطلبوا مقابلة أبي لحية زرقاء. ففتحت لهم بهيجة، شاحبة اللون مرتجفة، وهمست لهم:

– إنه في مزاج سيّئ جدّاً، شديد الغضب وكفيل بأن يقتل أوّل من يراه، فكونوا علىً حذر...

وظهر لهم أبو لحية زرقاء من أعلى الدرج الرئيسي متجهّم الوجه ومهمَل الثياب، ولم يتمكّن من كتم غضبه:

– ماذا تريدون؟

فقال له أحد النسباء مبتسماً:

– تقبَل منّا هذه الزهور رمز صداقة وحسن جوار. وقد جئنا ندعوك إلى عرس أمينة ابنة حميّك، يوم الجمعة بعد صلاة الظهر.

– موافق، لكن قبل ذلك قولوا لخديجة أن تعود إلى المنزل. لقد تشاجرنا قليلاً كما يحدث دوماً بين الأزواج ثمّ ذهبت عند أمها. أنا بحاجة إليها، يجب أن تعود، أحبها ولا أريد أن أفقدها.

فقال أحد الأخوة:

– أعدك، لك مني عهد أن أعيدها إلى منزلها بعد حفل الزفاف. فمن الواجب أن تعيش الزوجة مع زوجها.

– كلا، خديجة أوّلاً، ثمّ الزفاف.

وراح يصرخ ويحتدّ ويخبط الأرض بقدميه ويلعن حظّه...

في اليوم التالي أعادوا خديجة إلى القصر، بعد أن سلّمها أحد أقربائها ظرفاً صغيراً يحوي مسحوقاً يُعمي العينين، في حال عنّ لأبي لحية زرقاء أن يؤذيها، وحمّلها صفارةً لتستعملها في حال الخطر. ثمّ عملت خديجة على صرف انتباه زوجها بما يسمح لأخوتها بالدخول إلى القصر والاختباء فيه، وظلوا في وضعية الاستعداد للتدخل بمجرّد سماع الصفارة.

كان أبو لحية زرقاء منهكاً. لقد حطّمته معاكسة الظروف له. لكن هذا لا يعني أنه صرف النظر عن ذبح زوجته، لكنه كان ينتظر اللحظة السانحة لينفّذ ما يرمي إليه. أمّا خديجة فقد اعتمدت على ابتسامتها وحسنها وذكائها لكي تنجو من المصير المشؤوم الذي يخبّئه لها.

وبطبيعة الحال هو غير قابل للتأثّر بكل ذلك، ما كان سوى رجل تملّكه الجنون والحاجة إلى سفك دماء النساء. راح يدور حولها وهو يتوعّدها بمستقبل ملؤه المفاجآت. وهي من وقت إلى آخر تجسّ جيوبها لتتأكّد من وجود المسحوق والصفارة، وبقيت على أهبة

الاستعداد لتطلب النجدة في أي لحظة.

وفيما هو يرغي ويزبد ظهر الهرّ الأسود الشهير. تبادلت عيونهما النظرات وخاف أبو لحية زرقاء الذي كان يستعد لتأدية صلواته الخمس، علماً أنه لم يبدر من هذا الحيوان ما ينمّ عن خطر.

وبادره أبو لحية زرقاء بالكلام:

– أنت لا تريد أن تكلّمني بعد، أليس كذلك؟ لقد فقدت سطوتك ولم تعد سوى هرّ أزقّة تمرّ صدفةً من هنا...

فماء الهرّ كأنه يقول لأبي لحية زرقاء إنه مجنون. ثمّ راح يدور حوله وبسحر ساحر عاد إليه الكلام:

– يا لك من إنسان بائس! أبحت لنفسك كلّ شيء. لكن إذا كنت عازماً على الاقتراب من هذه السيدة فسأقفز إلى عنقك، وأنت من يُذبح عندها. لي مخالب تتحول خناجر صغيرة مسنونة ورهيبة. فليس أمامك إلا حلّ واحد، سلّم نفسك للعدالة وصلِّ لله لكي يرحمك في الجحيم، فهناك مصيرك. ولن تفيدك بشيء حَجّتك إلى مكة. فأنت تزهق حياة نساء ضعيفات بِيَد، وباليد الأخرى تصلّي لله العليّ العظيم!

امتقع أبو لحية زرقاء وتمتم بعض الكلمات ثمّ وجّه سجادة الصلاة نحو مكة وهتف: "الله أكبر". فوقف الهرّ عندها قبالته وبال على السجّادة، وبالتالي تعطّلت كلّ صلاة وتوجّب التوضُّؤ مجدّداً ورمي السجادة.

راح الهرّ يقفز من زاوية إلى أخرى ثمّ توقّف فجأةً ونظر في عينَي الرجل قائلاً:

– أيها المنافق! تقترف الكبائر وتتجرّأ على الصلاة إلى الله! انتهى أمرك.

كانت خديجة تتابع الحوار فتدخّلت قائلةً:

– نفِّذ ما يقوله لك.

– أنتِ لا تقتربي منّي. كان عليّ أن أقطّعك إرباً منذ زمنٍ طويل، لستِ أفضل من العاهرات الموجودات في الطابق السفلي.

وما كاد الزوج ينقضّ على زوجته حتى أطلق الهرّ صرخةً تشبه صوت الصفّارة وقفز إلى عنقه مغرّزاً مخالبه في جلده معطِّلاً حركته فيما الدم يسيل من عنقه.

وبرز الأخوة كلٌّ بسيفه. فقيّد أحدهم يدَيْ ورجلَيْ أبي لحية زرقاء ثمّ غطّوا رأسه بكيس خيش وأخرجوه من القصر. وقد اقتيد مباشرةً ليمثل أمام القاضي الذي كان الأنسباء قد وضعوه في الأجواء، فيما الهرّ يتبعهم كأنّ القضية قضيته.

أُلقي أبو لحية زرقاء في السجن في انتظار محاكمته، وانتشرت قصته في كل المدينة فراحت العائلات تتجمّع أمام قصر العدل رافعةً يافطات كُتب عليها: "العدالة لِبناتنا" و"أبو لحية زرقاء إلى الجحيم" و"لا فساد. العدالة أوّلاً".

وحضر بعض حجّاب المحكمة وفتحوا الحجرة السرية ليكتشفوا حجم المجزرة، فأعدّوا تقريرهم بأسرع ما يكون وأُبلِغ قصر العدل به، فصدرت الأوامر بأن تجري المحاكمة في أسرع وقت ممكن، وعلى الأخصّ أن يتّصف القضاء بالحرية والشفافية.

كانت المحاكمة علنيّة، وتقاطر الناس من كلّ مكان، بعضهم

مدفوع بحشرية مريبة. وقد رفض أبو لحية زرقاء الإجابة عن الأسئلة، فيما قدّم أحد محاميه المرافعة التالية:

– إنّ جريمة هذا الرجل ثابتة سلفاً. وجرائمه فظيعة بما يكفي لعدم الوقوف على التفاصيل. لكن فليتصرّف القضاء برصانة، وأنا سأرافع لإثبات مرضه العقلي. هذا الرجل يجب أن يخضع للعلاج...

قصّ حراس السجن لحية هذا الوحش فكشفت عن وجه اكتسحه الجدري، وجه شنيع مرعب، وقد غارت عيناه الصغيرتان أكثر فأكثر فيه. ويوم صدور الحكم بحقّه صرّح بأنه لا يشعر بالندم. وقد حُكِم بالإعدام ونُفّذ الحكم في اليوم التالي.

ورِثت زوجته ثروته الكبيرة، لكنها ظلّت تعيش في بيت أهلها مع أمها وأختها، واستقدمت بهيجة للعيش معهنّ، وحوّلت القصر مدرسةً ونذرت حياتها لأعمال البرّ. أما أمينة فقد تزوجت بنور الدين الذي كان له شقيق توأم أُغرِم بخديجة وتزوّجها. وكما يقال، عاشا حياة سعيدةً وأنجبا الكثير من الأولاد.

أمّا الهرّ فقد غادر القصر ليلتحق بفرقة "سيرك" تعرّف فيها بهرّة خبيرة بالألعاب البهلوانية، على الحبال نهاراً وفي الأراجيح مساءً.

٤

الهرّ أبو جزمة

هذه حكاية تجري أحداثها في بلاد لا يحبّ أهلها الحيوانات كثيراً، خصوصاً الكلاب، حتى أنّ هناك توصية بزجرها ضرباً بالعُصي أو بالحجارة الكبيرة. أما الحمير فقد وُصِمت نهائيّاً بالغباء ولذلك تمتّعت بوضع أفضل، فيُرأَف بها وبظروف عيشها، وحتى عندما تُحمَّل فوق طاقتها يُرثى لحالها وهي تتلقى ضربات خفيفة على ردفيها لكي تُسرع في مشيها، على وقع صيحات من نوع "حاااااا" بمعنى "سيري!" أو "هووووو" بمعنى "انتبهي" أو "هِشْشْ" ل"توقّفي".

أما الهِررة فهي أكثر دهاءً، أحرار متخايلون ماكرون، يعبرون ولا يطلبون شيئاً. ويغيظون من يحاولون التحكّم بهم أو امتلاكهم. وهؤلاء أيضاً لهم أوامر توجّه إليهم مثل "بسْت يَلْلا" بمعنى "سترى إن امسكت بك" أو "بيسي بيسي" بمعنى "تعال" أو "بعيد يا..." بمعنى "ابتعد يا ابن الشارع".

إلا أنّ "ضاوية"، الهرّ الأرستقراطي الذي اختار السكن عند طحّان فقير، كان في جعبته الكثير من الحِيَل. يمضي نهاره حالماً قرب فرن الخبز مراقباً حياة هذا وذاك من الناس. وقد أسماه صاحبه "ضاوية" التي تعني "مشرق" لأنه كان أسود اللون بكامله. ففي هذه البلاد يحبّون معاكسة القدر باعتماد النقائض.

كان ضاوية هرّاً نباتيّاً، يرتعب من الفئران حتى وإن كان بارعاً في التقاطها، وغالباً ما يتركها لهرّ الجيران، وهو هرٌّ أزقّة سوقيّ لا أصل له ولا اسم ولا تربية. هو هرٌّ محروم لكنه راضٍ بعيشته.

كان للطحان ثلاثة أولاد، وهو رجل فاضلٌ أمضى حياته كلها في العمل ولم يجمع ثروة، رجل في منتهى النزاهة ويأنف من الكذب. في أحد الأيام قال له ابنه البكر حسن:

– إذا لم تتعلّم الكذب قليلاً ستبقى طوال حياتك تاجراً فاشلاً.

وكان الهرّ يتابع النقاش فأطلق تنهيدةً عميقة رافعاً نظره إلى السماء. فضاوية كان يفهم لغة البشر وحتى أنه ينطق أحياناً ببعض الاقتراحات باللغة العربية وإن ببعض الصعوبة، فهو موهوب أكثر باللغة اللاتينية لأنه في حياةٍ سابقة عاش في صرح حاضرة الفاتيكان حيث أحبّه البابا في عصره كثيراً. وأيّاً يكن فتلك كانت روايته لمن يتعجّبون وهم يسمعونه يبرطم بتلك اللغة.

وتوفّي الطحّان من شقاء وشيخوخة، ولم يورّث أولاده الشيء الكثير. فأخذ حسن الطاحونة، وفاضل، ابنه الوسط، أخذ الحمار وأسّس شركة نقل. وبقي ضاوية فتولاّه رشيد ولم يكتم احتجاجه، فقفز الهرّ بين ذراعيه وراح يداعب وجهه ثم لاذ بقدميه. وقال رشيد:

– حظّي سيّئ، الأوّل أخذ الطاحونة، والآخر الحمار الذي يمكنه تشغيله، أما أنا فماذا أفعل بالهرّ؟ بالتأكيد يمكنني أن أعرضه في سيرك، لكن من زمنٍ طويل لم يمرّ سيرك "ألار" بمدينتنا، كما يمكنني أن أدرّبه على صيد الفئران والجرذان، لكن وضعه ميؤوس منه فعلاً، فهو نباتيّ بشكل قاطع. وأخيراً إذا قرّرت أكله حتى وإن كنت لا أحبّ لحمه، أو أن أستعمل جلده كساءً لي في الشتاء، فلن يتبقّ لي شيء. يا لحظّي التعيس!

عندها قال له ضاوية بصوتٍ عذب:

– سيّدي، نعم أنت الآن صاحبي وأنا في تصرّفك. ثِقْ بي تَرَ، بإمكاني أن أقدّم لك خدمات لا تضاهى، فمثلاً قد أتوصّل إلى صيد الفئران والجرذان وأكلها، أبذل جهداً ولا أعود إلى نظامي النباتي إلا عندما تُدبِّر أمورك. حالياً يكفي أن تعطيني كيساً وتجد لي جزمةً لكي أتمكّن من الذهاب إلى الغابة لصيد الأرانب. بعدها ترى، ولن تندم.

وحمله رشيد إلى حضنه وقال له:

– لكن أين أجد لك جزمة؟

– عند جيراننا. فهم يشترون كل سنة جزمات لأولادهم، من ماركات مشهورة. وما إن تبطل موضتها حتى يرمونها. أعرف أين. وأنا لا تهمّني الماركات، الأهم هو أن تكون متينة وخصوصاً ألاّ تكون صنع الصين.

– لماذا؟

– لأن الصينيّين يستعملون موادّ ذات نوعية سيئة. وأنتم، أبناء البشر، لا تعرفون ذلك أو أنكم سُذَّج، أما نحن فنعرف ذلك لأن

الغراء المستعمل فيها يسبّب الصداع والغثَيان، ويقال إنه قد يسبّب سرطان الجلد. ولذلك أنا أتجنّبه.

تدبَّر له رشيد كيساً يُسَدّ بشريط وجزمة لمّها من نفايات الجيران، فنظّفها وسّواها ولمّعها وسلّمها إلى ضاوية الذي انتعلها ووجد نفسه مرتاحاً فيها. كانت قدماه دقيقتين ولذلك حشا رشيد الجزمة بالتبن والصوف.

في الصباح الباكر انطلق الهرّ إلى الغابة وهو يدندن نغماً جميلاً. ثمّ كمن في مكان تمرّ به الأرانب، ووضع الكيس بشكلٍ جعل منه فخّاً. ولم يتأخر في اصطياد أرنب، ثم التحق ثانٍ وثالثٌ بالأوّل. فرأى ضاوية أنّ هذا يكفي لذاك النهار ثمّ جرّ بكل قواه الكيس بما فيه من صيد وتوجّه بخطى واثقة إلى قصر الحاكم، وهو أمير نسيب الملك.

أُوقِف عند مدخل القصر وسمع صرخة: "بعيد يللا! أيها الشرير". عندها طلع ضاوية، أمام الحراس، بحيلة كبيرة وكلّمهم بلغة عربية تقليدية بلهجة دول الخليج. قلّد بشكل تام نبرة أمراء تلك المناطق البعيدة، وهو ما لم يؤثّر في الحراس وحسب بل جعلهم مضيافين متزلّفين:

– السيّد الهرّ، أنت غريب الأطوار، ماذا جئت تفعل هنا؟ بمَ يمكننا أن نخدمك؟

– أن تسمحوا لي بمقابلة سمو الأمير، الحاكم باسم جلالته. أنا أحمل إليه هدية من سيّدي رشيد، وهو رجل مميَّز من نسبٍ شريف، متحدّر من النبي صلّى الله عليه وسلّم.

وتداول الحرّاس فيما بينهم، ثمّ استشاروا قائدهم وما لبثوا أن رفعوا الحاجز فمرّ الهرّ وهو يشكرهم:

– تانك يو، غراسيا، شكراً، ميرسي!

وهرع حارس آخر ليرافقه إلى مكتب الحاكم الذي كان قد أُبلِغ بهذه الزيارة المفاجئة.

– أهلاً وسهلاً! كم أنت محظوظ! أولادي مولَعون بالهررة وقد بذلت جهداً لأبقي بعضها في القصر، وبالعكس لا أثر لأي كلب هنا! هذا حيوان نسيب الشيطان والخنازير، وديانتنا لا تسمح باقتناء هذه الحيوانات.

أراد ضاوية أن يذكّره بأنّ الله أنام الصحابة السبعة في كهف وأقام على بابه كلباً، وأنه هو نفسه نام ثلاثمائة وخمسة وخمسين عاماً! لكنّ الهرّ تمالك نفسه معتبراً أنّ لا فائدة من معارضة رأي الحاكم، وقدّم إليه الكيس بالأرانب الثلاثة:

– هذه الطرائد اصطادها معلّمي، رشيد، وقد حرص على أن يقدّم إليك هذه الغنيمة المميّزة عربون عرفان وولاء للعرش.

شكره الحاكم وطلب منه أن يبلّغ سيّده تهانيه الحارّة.

وحيّاه الهرّ منحنياً له ما جعل الحاكم يبتسم، وكان يومها بصحبة ابنته البكر، ياسمين، وهي صبية فائقة الجمال، فانحنت وداعبت ضاوية الذي ماء بلطافة أعادت للأميرة في النهاية مزاجها الجيّد، إذ كان خطيبها قد تركها في الليلة السابقة من أجل فتاة أقل جمالاً منها لكن أكثر ثراءً.

وقبل أن ينسحب لم يتمالك ضاوية نفسه عن التذكير بأن الكلب

ليس مرفوضاً في ديانتنا، وليس، على كل حال، مثل الخنزير الذي يتغذّى بأي شيء يلتقطه. فوافقه الحاكم الرأي وطلب منه أن يشكر سيّده.

بعودته إلى المنزل وجد ضاوية رشيد حزيناً ومحبطاً، فدار حوله ولحس قدميه إلى أن انتزع منه ابتسامة، ولم يحكِ ضاوية شيئاً عمّا جرى في ذلك اليوم وتظاهر بالنوم.

في اليوم التالي قصد الطاحونة لصيد الفئران. واكتشف أن أشغال الأخ البكر مزدهرة. وبعد أن لعب قليلاً مع الفئران عضّها من رقابها ووضعها في خرقة قماش وحملها إلى معلمه، وقال له:

– آكلها إن طلبْتَ مني ذلك.

هزّ رشيد رأسه أَنْ لا، ثم اهتمّ بإعداد طعام العشاء.

بعد أيام انتعل ضاوية جزمته وحمل الكيس وذهب إلى الجهة الأخرى من الغابة، حيث يوجد الكثير من طيور الحجل والبطّ. فاتّخذ وضعيته وانتظر وصول الصيادين الحقيقيين. كان يكفيه أن يلتقط الحجال وهي هاربة، وهو ما قام به لفترة طويلة من ذاك النهار، ولكن الكيس لم يكن كبيراً بما يكفي فاكتفى بأربعة حجال قتلها كيلا تفلت منه.

وكما من قبل قصد قصر الحاكم، فعرفه الحراس وأحسنوا استقباله، وفي الطريق التقى في ممرات الحديقة ياسمين الجميلة وهي تقرأ في كتاب وتمسح بعض الدموع عن وجهها. توقّف الهرّ وحيّاها منحنياً وانفجرت ياسمين ضاحكة:

– لكن من أرسلك؟ ما إن أراك حتى أشعر بتحسّن. يجب أن

تحضر دائماً أو سأطلب من والدي أن يستخدمك عندنا.

أحنى ضاوية، الوفيّ لسيده، رأسه. واستانفت الأميرة الكلام:

– ماذا تحمل اليوم؟

– بعض الحجال الرائعة. صادها معلّمي في هذا الصباح الباكر وكلّفني أن أهديها إلى سموّ الأمير والدك.

اختلس الهرّ نظرةً إلى ياسمين ورأى أنها ستكون مناسبة تماماً لرشيد. لكن لم تبلغ الأمور هذا الحدّ بعد. وكان الحاكم منهمكاً بأشغاله فأحاله على مساعده يعقوب، وهو رجل نحيل جداً ذو عينين ماكرتين، فقال له:

– أيها الهرّ، قبل أن تغادر تعال وخلّصني من بعض الجرذان التي تحرمني النوم...

لبّى ضاوية طلبه مكرهاً لأنه بالطبع يكره هذا الحيوان لكن ليس الوقت مناسباً لتعقيد الأمور، فمصير سيّده قد يتضرّر، فنفّذ الأمر سريعاً وقضى على أحد اجتماعات الجرذان في القصر. أعجب يعقوب بذلك وطلب منه أن يهتمّ بالفئران، ولم يلبث ضاوية أن طارد هذه الحيوانات الصغيرة إلى ولّت هاربةً من القصر.

وفيما هو يغادر توقف أمام ياسمين ولحس جزمتها عرفاناً بالجميل. فقالت له:

– لماذا لا تأتي يوم الجمعة لتسبح معنا في بحيرة "الثلاث مَسَرّات"؟ هكذا نعمّق معرفتنا ببعضنا.

انحنى لها ضاوية بما يعني أنّه موافق، وغادر راكضاً.

كان شديد التوتّر، يروح ويجيء في البيت، يصعد فوق ركبتَيْ

رشيد ليقفز من الجهة الأخرى. ربما أراد أن يقول شيئاً ما لسيّده لكنه في ذلك الصباح فقد ملَكة الكلام، ولم يفُهْ بأي كلمة من أي لغة. عندها راح يموء مثل مجنون. كان يلزمه أكل العسل وشرب حليب الغنم، وهذا أفضل وسيلة لكي يستعيد اللغات التي فقدها. والحال أن الأخ البكر كان يملك العسل الشهيّ وحليب الغنم الطازج.

قصد ضاوية عندها البيت الكبير، وتسلّل بين أوعية الطعام حتى وجد جرّة العسل الصافي. ولحسن حظه كانت هناك قصعة مليئة لم يكد يلمسها أحد فلعقها ولم يترك فيها شيئاً، كما كان على طاولة الفطور قصعة حليب للولد الصغير الذي لم يلمسها بتاتاً.

أولى الكلمات التي عادت إلى ضاوية كانت شتائم، فخجل الهرّ وصمت وانسحب راكضاً. وعندما بلغ المنزل أبلغ رشيد أنهما سيذهبان للسباحة في البحيرة بعد غد، وهو يوم جمعة. فأعلمه رشيد أنه لا يجيد السباحة، فأجاب ضاوية بشكلٍ مستغرَب:

– أحسن!

– أتجد هذا مضحكاً؟

– بشكلٍ ما نعم. رجل بهيبتك وأهمّيتك ولا يتقن السباحة قد يصلح للعرض في سيرك، لو لم تكن من أصل شريف، من سلالة نبيّنا الحبيب. لكن لا أهمّية للأمر، عندي خطة، خطة رائعة للتخلص من حياة الفقر التي نعيشها، وما عليك إلا أن تعمل بتعليماتي.

توجّس رشيد من الأسوأ، لكن هرّه على درجة من الذكاء والدهاء جعلته يقرّر أن يضع ثقته فيه.

صبيحة يوم الجمعة سلك الهرّ وسيّده طريق البحيرة. كان الطقس

جميلاً والشمس معتدلة والنسيم عليلاً والمياه صافية ورائقة كالمرآة. وكان ضاوية يعرف أنّ موكب الحاكم وابنته سيمرّ بالمكان في منتصف النهار، فجلسا تحت الشمس ينتظران. وما إن رأى الهرّ السيارة الرسمية من بعيد حتى أمر سيّده بأن يخلع ثيابه ودفع به إلى المياه. ولم يبدِ رشيد أي اعتراض طالما ظلّت رجلاه تلامسان الأرض. وعندما دنا الموكب راح الهرّ يموء مواءً شديداً ويبالغ فيما كان سيّده يتخبّط في المياه ويصرخ طالباً النجدة. توقّفت سيارة الحاكم فأسرع الهرّ إليه باكياً، وقد عمل بطريقة ما ليجعل الدمع يظهر على خدّه، ثمّ شرح بلغة مجهولة أنه يجب إنقاذ الرجل الذي يكاد يغرق. فأصدر الحاكم، الذي كان برفقة ابنته، الأمر بالإسراع لإخراج صاحب الهرّ من المياه. وفي هذه اللحظة أضاف ضاوية بلغة عربية سليمة:

– صاحب السمو، يا صاحب السمو، لقد سُرِقت ثيابه، مرّ بعض الأشرار من هنا وأخذوا كلّ شيء!

فأوعز الحاكم إلى أحد حراسه بأن يسرع إلى القصر ويجلب منه جلباباً من أجمل ما عنده. فانطلق الحارس كالسهم وعاد بعد دقائق حاملاً عدة أثواب مغزولة من الحرير أو الكشمير. في هذه الأثناء كان الهرّ يتسلّى بالدوران حول الأميرة لكي يُضحكها.

بعد أن ارتدى رشيد الثياب الفاخرة قدّم نفسه منحنياً أمام الحاكم الذي طلب منه أن ينهض وقال له:

– يا صاحبي، دع انحناءتك للملك حفظه الله وأجلّه. أنا أعرفك، وأشكرك على الطرائد التي تنعّمت بإرسالها لي.

أمّا الأميرة التي فُتنت بهذا الرجل فأضافت:

– عندك هرّ مميّز، يحكي عدّة لغات حتى لنظنّ أنفسنا في بلاط الملك سليمان أو والده الملك داود اللذين كانا يفهمان لغة الحيوانات.

وهنا تدخّل الهرّ قائلاً:

– لكن يا صاحبة السمو، هذا جرى منذ زمن بعيد جداً!

– أعرف.

راح قلب رشيد يخفق بقوة وأحسّ بأنه في منتهى الخفة كأنّه يطير فوق الأشجار والبحيرة. كان رأسه يدور ويداه ترتجفان وانعقد لسانه في فمه. ولم تفارق عيناه الأميرة الغارقة في حالة غريبة وممتعة في آنٍ معاً.

وفيما الشابان يتبادلان النظرات من دون أن يتمكنا من التفوّه بكلمة واحدة كان الهرّ يُلهي الحاكم وهو يروي له قصةً غريبة عن حربٍ محتملة بين شامبازية الشمال وشامبازية الجنوب. وقد حدّثه عن هجوم مرتقب يُعِدّ له الذكور الساعون إلى الإناث الموجودات في جنوب البلاد. بدا الهرّ واثقاً من نفسه فيما الحاكم يتملّكه الذهول أكثر فأكثر.

إنه الحبّ من أوّل نظرة! أُغرم رشيد وياسمين أحدهما بالآخر. راح ضاوية يختلس النظر إليهما وهو يحدّث الحاكم. وعندما دعا الحاكم الشاب إلى الغداء في القصر تقدّم الهرّ الموكب وراح يعدو. ومن كان ليعرف إذا كان يركض من الفرح أم كان يدبّر مكيدةً جديدة لخدمة سيّده؟

وتوقّف أمام مزارعين يعملون في الأرض وقال لهم:

– عند مرور موكب الحاكم عليكم أن تحيّوا سيّدي كما لو أنه مالك هذه الأرض. المطلوب فقط أن نوهم كلّ هؤلاء الناس أنّ سيّدي يمتلك هذه الناحية من الأرض.

فأجابه أحدهم:

– وإن لم نفعل؟

– إن لم تفعلوا وقعتم في مشاكل، مشاكل كبيرة.

ورفع المزارع عصاً وهمّ بضرب الهرّ، لكن هذا الأخير رماه بنظرة رهيبة أعادت يده إلى مكانها كأنّ قوةً خفية قامت بذلك.

– حسناً سنقول إن هذه الأرض ملكٌ له!

عند مرور الموكب انحنى كل المزارعين تعبيراً عن الاحترام والولاء، وهو ما جعل رشيد يشعر بالاستياء. وفهم الحاكم أنّ هذه الأراضي ملك للشاب، فهنّأه قائلاً:

– عندك الكثير من الأملاك!

– ليس الفضل لي. أورثني والدي بضعة هكتارات هنا وهناك، وأنا أهتمّ بها قدر الإمكان.

ولم تحد الأميرة بعينيها عنه، وأدرك الحاكم أن شيئاً ما يحدث، هو يعرف ابنته جيّداً، وفهم سريعاً أن حبّاً كبيراً قد وُلد الآن.

سرّه ذلك كثيراً، خصوصاً أن الشاب من أسرة جيّدة وثريٍّ وكريم، جميلٌ وكيّس. ورأى في هذا اللقاء إشارةً منبئة بحياةٍ جديدة لأنه منذ مأساة وفاة زوجته لم يعرف كيف يعيد البسمة إلى وجه ابنته. ثمّ ليس فقط أنّ ياسمين كانت في سن الزواج، بل لأن والدها مستعجل ليُرزَق

بأحفاد لأنّ ابنه البكر عاقر وهذا ما أوقعه في غمٍّ شديد.

تابع الهرّ سيره متقدّماً مسافةً بسيطة عن الموكب المتوجّه إلى القصر، وهو يشعر بالسرور من فعالية حيله ويفتّش أيضاً عن طرق أخرى لإرضاء معلّمه. ولم يلبث أن بلغ قصراً جميلاً واستعلم عنه من بعض الجيران، فقال له رجلٌ عجوز جالس يتشمَّس على مقعد حجريّ:

– هذا القصر، من الأفضل تفاديه.

– لكنه جميل!

– نعم، لكنه ملك أحدهم والأفضل عدم التعرّف به!

– هل هو شرّير؟ أم شيطان؟ مجرم؟ لصّ؟

– صحيح، كل هذا معاً، هو حاليّاً ملك غول. فيما مضى كان قصر آل بِلحاج، وهي من كبريات عائلات البلاد، لكن نزلت بها مصائب كثيرة. عند موت ربّ العائلة، تقاتل الأولاد بسبب الميراث، وقد تقاتلوا بالسلاح لدرجة أنهم ماتوا عن بكرة أبيهم. وفقدت أمهم عقلها وراحت تتسكّع في الشوارع امرأةً بائسةً من دون عقل ولا أمل. وكان القصر مسكوناً، وفي إحدى الأماسي وصل غول واستدعى كلّ الأشباح وحوّلهم إلى رماد ورماهم في النهر وسكن هنا. لا أحد يقترب من هذا المبنى. ومن وقت إلى آخر يُشاهَد أناسٌ غريبو الأطوار يرتدون أثواباً حمراً ويدورون حوله. لكن لا أحد يدخله، فالغول هو سيّد المكان.

– يا لها من قصّة!

ما كانت هذه القصة لترعب الهرّ، فتحمّس جداً وركض نحو

القصر ودخله من شبّاكٍ صغير. لم يجد احداً هناك. المكان معتم والرطوبة تنضح من الجدران. وقد ملأته بيوت العناكب، والخفافيش وحيوانات أخرى هو نفسه لا يعرفها. التفّ ضاوية على نفسه، وفجأةً سمع وقع خطى. إنّه الغول، ضخم الجثة أغبر اللون يكسوه وبرٌ كثيف، وله عينان صغيرتان جدّاً غارقتان في وجهه. كان نصف إنسان نصف حيوان. وانكمش الهرّ على نفسه أكثر، وعندما انحنى الغول لكي يلمّه دفن رأسه في صدره كأنّه نائم وتركه يفعل. وضعه الغول على إبهامه وقال له:

– أنتَ متهوِّر فعلاً! أنت أوّل هرّ تجرأ على اجتياز عتبة قصري. ثمّ هي المرة الأولى التي أرى فيها هرّاً ينتعل جزمةً جميلة جدّاً. عمَّ تبحث؟

– كثيراً ما قال لي أبي إن الحشرية عيبٌ مشين. حسناً، نعم أنا حشريّ.

– ماذا تريد أن تعرف؟

– هل يمكنني؟ يمكنني أن أطرح عليك أسئلة، وتعدني بألا تسحقني بعقب قدمك؟

– لكنك بحجم برغوث، وليس معقولاً أن أستقوي على برغوث!

– قيل لي إنّ هذا البيت مسكون، فهل هذا صحيح؟

– آه، نعم! فيما مضى كان فيه الكثير من الأشباح لدرجة أن القصر كان يتحوّل ليلاً إلى سوقٍ أو إلى ملعب العجائب. كانوا يروحون ويجيئون، يشربون الخمرة ويغنّون ويرقصون. باختصار كانوا يحرمونني النوم. عندها جمعتهم كلهم في إحدى الأمسيات

وقطّعتهم إرباً ورميت الكلّ في النار. بعد ذلك نعمت بالراحة. لكنني أحسّ أحياناً بالندم لأنهم كانوا يخلقون جواً جميلاً في هذا القصر الضخم الفارغ والحزين جداً. ولذا عليّ أن أجد اهتمامات أخرى لكي أملأ وقت فراغيّ.

– قيل لي أيضاً إنّ بإمكانك التحوّل إلى أي حيوان، إلى أسد أو وحيد القرن أو فيل...

– نعم، وبكلّ سهولة. يكفي أن أبتلع ثلاث رؤوس بطيخ وحوالى مائة قطعة من تين الصبّار. فلسوء الهضم تأثيرٌ غريب عليّ وهو يمنحني القدرة على التحوّل.

واستدار الغول وغرف من مستودع يحوي كل شيء، من الثمار التي يحتاجها للتحوّل إلى المناشير والمطارق والسهام المسمومة والدمى المقطّعة قطعاً ورؤوس سعادين وأفاعٍ في آنية زجاجية وأذناب جواميس...

بعد دقائق قليلة وجد الهرّ نفسه أمام أسدٍ بدا له ضخماً. تسلّق ضاوية رفوفاً وضعت عليها جماجم بشرية، واحتمى هناك إلى أن يعود الغول غولاً.

– أنا خائف، أعرف أنّ الأسود والهررة لا تتفاهم بتاتاً، والأسود لا تفاوض بل تلتهمنا من دون بحث. أوف! أفضّل أن تتحوّل حيواناً وديعاً أكثر، صغيراً أكثر، حماراً مثلاً أو أرنباً...

– هل تسخر منّي؟ حمار؟ لكن هل تعرف أن الحمار هو أكثر الحيوانات غباءً على وجه الأرض؟

– لا أوافقك الرأي. فنسيبي، أو بالأحرى شقيق سيّدي، ورث

حماراً يعتاش منه على أحسن ما يكون.

– بالضبط، يتصرف به الناس كما يشاؤون. هو أحمق، أحمق يُرثى له. كلا! أما الأرنب فهناك عدد كبير من الأرانب، فهذا لا يستحقّ العناء. كلا، اطلب منّي شيئاً مفاجئاً أكثر.

– جُرَذ!

– ماذا؟ أقلت "جرذ"؟ جرذ، خلد، هذا أمر مريع، إنها تعيش في المجارير، هذا بشع ومقرف...

– جرذ أو فأرة... أظنّ أنكّ غير قادر على ذلك، هذا ما قيل لي...

– غير قادر! أنا، الغول الأكثر مهابةً في المملكة، الذي هرب منه قطاع الطرق والسحرة والدجّالون والماكرون والدنيئون... هل تعرف أنهم يسمّونني "تارمينايتور" و"إكسترمينايتور"... على كلٍّ لقبي هو "تور"، فأنا كلّ ما ينتهي بلفظ "تور".

أبدى الهرّ تأثره، لكنه ألحّ عليه أن يتحوّل جرذاً أو فأراً.

– أفضّل الفأر، فأنا أظنّ أنّ هذا أصعب عليك!

أحسّ الغول أنّ الهرّ يتحدّاه فقال:

– هذا يتطلّب مني شرب دم ضبع، لأن دمه هو وحده يساعدني على أن أصير شيئاً صغيراً جدّاً. ولحسن الحظّ بقي عندي قليلٌ منه، بضعة ليترات حفظتها لوقت الحاجة. سترى أنه لا يصعب عليّ كثيراً أن أتحوّل من أسد إلى فأر. لكن حذارِ، يجب أن نكون لطفاء مع الفأرة الصغيرة!

– لا تقلق يا عزيزي تور!

شرب تور ليترين من هذا السائل النفيس فتحوّل فأرةً صغيرة

رماديّة اللون مرقّطة ببقع بيضاء، وراحت تركض في صالون البيت مثل المجنونة وبالكاد تصدر صرخات بسيطة حادّة. فانقضّ الهرّ عليها وراح يدحرجها في كلّ الاتجاهات، يحملها بين قوائمه ويرميها من زاوية إلى أخرى ليلتقطها بكل خفّة ومهارة. وقد أمتعه الأمر. وعندما سمع صوت العربات قادمة أغمض عينيه وابتلع الفأرة. وجد صعوبةً في هضمها وانتابته أوجاع في كلّ جسمه لكنه كان مسروراً إذ صار بإمكانه أن يقدّم هذا المكان الرائع لسيّده. ذاك أن تور لم يعد قادراً على الأذى لبعض الوقت وبالتالي يمكن أن يصبح القصر ملك رشيد حاليّاً.

عندما اقترب الحاكم من القصر دُهش لجمال هندسته. كان قد سمع عنه، وبحسب بعض الأساطير فإنّ هذا القصر مسكون ويحتلّه غول أتى من الأصقاع الروسيّة. وتزعم أساطير أخرى أن الغول هو امرأة في الأساس وقد تحولت رجلاً وأنها وجدت ملاذاً لها هنا بعد أن همست خفّاشة في أذنها مقترحةً عليها أن تلحق بها إلى "قصر كلّ الملذّات وكلّ الأهوال".

وقال الهرّ للحاكم:

– يا صاحب السمو، شرّف سيّدي بزيارة قصره. ادخل وانظر بعينيك هذا العالم الغرائبيّ الساحر الجنوني والرائع الجمال في الوقت نفسه. هذا أيضاً من الممتلكات التي أورثه إياها والده، ولم يعرف كيف يتصرّف به. أما الآن وقد أصبح رشيد من مَحْظِيّيك وواحداً من أصحابك، فهل توافق على تزويجه الحسناء، ابنتك الوحيدة ياسمين الرائعة الجمال؟

كان رشيد يسمع ضاوية وانزعج بشكل رهيب. والتفت إلى ياسمين فرآها تضحك من الفرح والسعادة.

أمسك الحاكم بيد ابنته ودخل معها لزيارة القصر. وقد بُهر فيما رشيد يتبعه خافض العينين ولا ينبس بكلمة.

– يا للروعة! أهذا كله لك؟

فأجاب الهرّ:

– نعم يا صحاب السمو!

كانت هناك موائد مُدّت عليها أطباق أشهى المأكولات وألذّها، من كل مناطق العالم، وعصير من كلّ أنواع الفاكهة. ولا خمر، فالدين يحرّمه. كانت الصالونات مفروشة بالأقمشة الحريرية المستوردة من الهند والصين، والثريات من البندقية، والسجاد من بلاد العجم، ويتضوّع عطرٌ رقيق مثير في كل الغرف، وكانت تُعزَف موسيقى لا يُعرَف مصدرها.

دعا رشيد الحاكم وياسمين للجلوس إلى المائدة الرئيسيّة، ما كان عليهم إلا أن يمدّوا أيديهم، فأكلوا وشربوا وأحسّوا بالبهجة.

راح الهرّ يدور ويدور وهو لا يعرف ماذا يبتدع أيضاً لكي يسرّ سيّده. وفجأةً خطرت له فكرة: "ماذا لو نزعت جزمتي التي جعلتني أحقّق كلّ هذه الروائع لأعود مجرّد هرٍّ بسيط، هرّ كغيري من دون قدرات سحريّة؟ نعم، قد يريحني هذا. لكن ماذا سيحلّ بسيّدي؟".

وفيما هو يفكّر في ذلك سمع الحاكم ينطق بنبرةٍ احتفالية بهذه الكلمات:

– يا صديقي، يتوقّف الأمر عليك لكي ترتبط عائلتانا بإحدى أجمل الزيجات، زواج الثروة والجمال، الطيبة والتألّق، السخاء والسمو... هل تريد أن تُصاهرني؟

تقلّب الهرّ على الأرض عدة مرات ثم راح يموء كأحد مغنّي "البلوز".

تأثّر رشيد وانحنى عدّة مرّات ثم تناول يد ياسمين الممدودة وقبّلها، ثم عانقه الحاكم وعلى الفور حدّد موعد العرس.

عندما حلّ الليل غادر الحاكم وابنته تاركين رشيداً والهرّ في هذا القصر حيث يتألّق كلّ شيء. لكن ما إن أغلق الباب حتى انطفأت الأنوار كلها وعاد القصر إلى حالته الأولى ببيوت العنكبوت والخفافيش. وهبّ هواء مفاجئ كسر بعض زجاج الشبابيك وسُمعت أصوات غير معروفة وسيطر الخوف. حمل رشيد الهرّ بين ذراعيه وهمّ بمغادرة هذا المكان عندما سمّرته قوة خفية في مكانه.

وسمع صوتاً جهورياً يقول له:

– الخروج من الحمام أصعب من دخوله!

فتذكّر هذا القول المأثور الذي غالباً ما كان والده يستعمله عندما يريد أن يشدّد على أهمّية الجهد ونبذ السهولة. وأدرك رشيد في الوقت نفسه أن كل ما ظنّه ملكاً له، وكل الأمور الحسنة التي جرت له في الأيام الأخيرة لم تكن ثمرة عمله وإرادته، بل بفعل براعة هرّ موهوب بالكلام وذي قدرات سحرية.

أفلت الهرّ من بين يديه وشمّر عن زنديه عازماً على الخروج من المكان حتى لو اضطر إلى مقاتلة الغول. أمّا الهرّ، الذي فهم كل

ما يجري أيضاً، فراح يموء وهو يلحس جزمته الجميلة. فاندفع رشيد نحوه ونزع حذاءه السحري هذا الذي كان وراء كل هذه الخضّات.

ووقف رشيد والهرّ هناك وجهاً لوجه. الأوّل مفكرّاً والآخر مراقباً لا يفعل شيئاً. فقد عاد ضاوية هرّاً من دون قدرات مميّزة، يكاد يكون غريباً وهرّ أزقّة. وحاولا الاستفادة من العتمة للخروج من القصر. إلا أن الغول تور ظهر مجدّداً في تلك اللحظة ليمنعهما من ذلك واقفاً بالباب سادّاً طريقهما.

– تنويان الفرار؟ مستحيل، فأنا من يقرّر.

لكن رشيد تقدّم، ووراءه الهرّ، ودفع الغول الذي انفجر بضحكة فظّة عصبيّة. انشقّ الباب قليلاً فتمكّن الهرّ من التسلّل خارجاً. وعندها تذكّر رشيد أنّ نقطة ضعف الغيلان هي أصابع أرجلهم فوجّه ضربةً قوية إلى إصبع رجله الصغيرة أسقطت ذلك المخلوق الجبار أرضاً وتمكّنا من الهرب.

وعندما باتا في الخارج وهَمَّا بالاندفاع راكضين وصل إليهما فارس وقال لهما:

– إن صاحب السمو الحاكم يدعوكما إلى العشاء الليلة. إنّه في انتظاركما.

شكره رشيد وحمل ضاوية بين يديه لكن الهرّ لم يعد يفهم شيئاً ممّا يجري. وعندها تركه وقرّر أن يقصد قصر الحاكم، وفكّر أنه حان الوقت لكشف الحقيقة وأنه إذا كان حبّ الأميرة صادقاً فسيتجاوز هذه المحنة.

كان رشيد لا يزال يرتدي الثياب التي أعطاه إياها الحاكم بعد خروجه من البحيرة حيث كاد يغرق. واعتقد أنّه ما زال قادراً بعد على الإيهام. وكان الاستقبال بسيطاً وودّياً. ذهب الهرّ ناحية المطابخ، ثم لم يلبث رشيد أن سأل مضيفه أن يسمح له بمكالمته على حدة، فاختليا في أحد المكاتب حيث اعترف رشيد بكل مخطّطات الهرّ، ثمّ ختم مداخلته بهذه الكلمات:

– يا صاحب السمو، ها أنت تعرف كلّ شيء الآن، ولم أعد أريد أن أكذب عليك ولا أن أتظاهر بما لست عليه. لقد أغرمت بابنتك من النظرة الأولى، وحبّي لها صادق لكنّني أتفهّم تماماً إن أنت رفضت طلبي يدها. وأنا عاهدت النفس على العمل وعلى كسب عيشي بشرف بغية تأسيس عائلة على أسس سليمة وصالحة.

عندها أقرّ له الحاكم أنه اكتشف منذ البداية تصرفات الهرّ. وأضاف أنّ عنده عملاً يقترحه عليه، وصحيح أنه مُرْهِق قليلاً لكنه على الأقل سيسمح له بكسب عيشه بعرق جبينه.

وعمل رشيد على مدى أكثر من سنة في حقول ملاّك قاسٍ، وفظٍّ حتى. لكن مجرى حياة رشيد تغيّر بفعل الجهد الذي بذله يوميّاً لكسب عيشه. ومع أنّه ظلّ مغرماً بياسمين إلا أنه لم يعد يقترب من قصر الحاكم على أمل أن يلتقيها يوماً عندما تتحسّن ظروفه. لكن كتب لها رسائل جميلة من دون أن يتلقّى أي ردّ. إلا أن هذا لم يحبطه وصمد في شخصيته الجديدة وفي رجائه.

ثمّ إنّ الملاّك تعامل معه بعطف في النهاية وساعده على الترقّي إلى أن عيّنه رئيساً على العمال ومحاسباً للمزرعة.

أما ضاوية فراح يتسكّع في الشوارع ويتعرّض لهجمات الهررة الأكثر شباباً والأكثر عدائيةً منه. وأنهى حياته في مأوى القرية حيث كانت سيدة إنكليزية اعتنقت الإسلام تهتمّ بالحيوانات المتشرّدة أو التي تُساء معاملتها.

وفي أحد الأيام استدعى الحاكم رشيداً وأبلغه أن ابنته ما زالت تنتظره، فتزوّجا واقتنيا عدّة هررة.

٥

الجنِّيات

لم يُعرَف قطُّ سبب وفاة حميد الحِرَفيّ، زوج خنسة الرهيبة ووالد جميلة وكنزة. لا مرض ولا حادث، رحل ذات صبيحة جميلة أثناء نومه. لم يُفِقْ، هو الذي لم يفوّت قطّ صلاة الفجر. وولولت زوجته عند اكتشافه حتى هرع إليها كلّ الجيران. جرى ذلك في قرية شاهقة معلّقة في الجبل يصعب بلوغها ومشهورة بالقصص الغريبة التي تجري فيها.

كانت جميلة تشبه أمّها لدرجة أنّ البعض لم يكن يميّز بينهما. بدينتان بوجه بارز القسمات ونظرة قاسية، ويصدر عن كلتيهما شيءٌ سيّئ لا أحد أمكنه تحديده، وبذلك لم تعودا لا جيّدتين ولا جميلتين. كانتا ترعبان الأولاد والغرباء الذين يلتقونهما. ولا هذه ولا تلك كانت على علم بمظهرها هذا، بل بالعكس تعتقد كلتاهما أنها ذات سحرٍ لا يقاوم، وهما متيقّنتان دوماً من قناعاتهما.

وذلك كلّه بعكس ما هي عليه كنزة الصبية الحسناء اللطيفة

المحتشمة. فكنزة كانت تشبه والدها، وهي مثله ذات حسّ فنّي ومزاج حالم. تحبّ الناس ولا تقصّر في مساعدتهم عند الحاجة. إلا أنّ الحياة في الجبل لم تكن سهلة، فلا وسائل راحة والطقس لا يرحم أبداً. لا شيء، شتاءً يحبس البرد والثلوج السكان في منازلهم، وصيفاً يتكفّل بذلك القيظ وشحّ المياه.

وليس فقط أنّ كنزة كانت تشبه والدها جسديّاً بل هي أخذت عنه طبعه الممتاز وطيبته الطبيعيّة وموهبته الفنّية. ولم تكن الشقيقتان متفاهمتين، والحقيقة أنّ الأم كانت تسهم في ذلك إلى أقصى حدّ، فبقدر ما كانت تحبّذ شبيهتها جميلة، كانت تسيء معاملة كنزة التي تذكّرها في الكثير من النواحي بزوجها الذي لم تحبّه قطّ وربما هي من سمَّمته.

وصار يقال: "المسكين توفّاه الله أثناء نومه!" ولم يجرؤ أحد على الإشارة إلى أنّه لم يمت ميتةً طبيعية. إلا أنّ الشكّ تسرّب إلى نفس كنزة وعمّها "سي طيّب" الذي لم يستطع تحمّل فقدان هذا الأخ الذي أحبّه كثيراً.

وعاملت الأرملة ابنتها الصغرى كأنها خادمة عندها، فكانت تفرض عليها أعمالاً مرهقة وتنظيف الأرض أو غسل الثياب أو الذهاب لملء الماء من النبع وهو على مسيرة نصف ساعة. ومن جهة أخرى تدعها تأكل وحدها في زاوية من المطبخ تاركةً لها بقايا وجباتها هي وجميلة. وعانت كنزة من هذا الظلم ولم تعرف ما العمل للتخلّص منه.

وأين الذهاب؟ فالجبل مثل السجن، والجيران يخشون خنسة

القادرة على إفساد حياتهم القاسية أساساً، فلا يجرؤون على قول أي شيء. شاهدوا بأمّ أعينهم سوء المعاملة التي تتلقاها كنزة، لكن حتى عندما يشفقون عليها كانوا يفعلون ذلك سرّاً.

كانت خنسة قد ورثت ثروةً من والدها الذي كان شيخ القرية، وها هي حصلت مؤخّراً على ثروة المرحوم زوجها. وبذلك امتلكت إمكانات ساعدتها على دعوة مجوِّدي القرآن الكريم وإطعامهم جيّداً لتطلب منهم أن يصلّوا لها ولابنتها الحبيبة. وعندما يلفتها أحدهم إلى أنّ عندها ابنة أخرى تجيب: "آه، الأخرى هي ابنة أبيها!".

وفي يوم بردٍ شديد أرسلت الأمّ كنزة لملء الماء من النبع، وكان الطريق موحلاً جداً، فمضت حاملةً جرّتين، حانية الرأس والدموع منهمرة على خدّيها. وفكّرت أن الله قد نسيها ولن ينتقم لها، وبدأ إيمانها بالله يتضعضع، وقد أمضّها كثيراً هذا القدر من الظلم والتعنيف.

وصلت إلى النبع ووجدت المياه مجلّدة. سارت كل هذه المسافة سدىً، وهي تخشى الآن ما ستقوله أمّها أو تفعله. فهي لن تصدّقها ظانّةً أنها كذبت ولم تصل إلى النبع. وراحت كنزة تبكي حظّها.

فجأةً، وكأن هناك من ألقى معطفاً من الصوف على كتفيها، شعرت بتحسُّن وتلاشت أفكارها السوداوية. ولم تعد المياه مجلَّدة، وظهرت لها امرأة عجوز متدثّرة برداء سميك وقالت لها:

– آه يا ابنتي البائسة، أنا هنا لكي أخلّصك من عذاباتك!

– ومن أنتِ؟

– أولاً ناوليني لأشرب من هذا الماء النقيّ والطيّب.

غسلت كنزة إحدى الجرّتين وملأتها ماءً. وعندما شربت العجوز

وضعت صرّةً معها على الأرض وقالت لكنزة:

– هاتي يديك لأدفّئهما. كنتِ طيّبة معي! وليس فقط أنك طيبة القلب بل أنت جميلة أيضاً. سأعطيك شيئاً يغيّر مجرى حياتك.

– لكن لم تخبريني من أنتِ؟

– أنا جنّية، ليس إلا مجرّد جنية عجوز تتنقل من قرية إلى أخرى، تُصَعِّد في الجبال وتعبر الأنهار سعياً وراء نفسٍ صالحة لإنقاذها.

تأثّرت كنزة بكلامها، كانت قد سمعت بالطبع عن الجنّيات، لكنها المرّة الأولى التي تلتقي فيها إحداهنّ، ثمّ طرحت عليها السؤال التالي:

– بما أنّك جنّية فلماذا لا تحسنين إلى نفسك أوّلاً؟ ثيابك بالية وحتى رداؤك ليس من الصوف. اخدمي نفسك وأمّني لها ما يفيدها!

– عزيزتي الغريبة! أنا كما أنا ولا يمكنني أن أتغيّر وإلا خسرت قدراتي. لقد اختارني القدر لكي أكون جنية لكن من دون أن أستفيد أنا نفسي بذلك. هذا هو الوضع وأنا أكتفي بالقليل، ثمّ كما تعلمين لا أهمّية كبيرة للأمور المادّية. وهذا لن يمنعني من أن أتمّم واجبي وأخلع عليك هبةً، فابتداءً من هذه اللحظة كل كلام تتفوّهين به سيكون إما زهرة وإما حجراً كريماً. وهذا سيعوّضك عن سنين الشقاء التي عشتها بسبب المعاملة الشريرة التي تلقّيتِها. شريرة وظالمة. وسترين كيف أنّ أمك وأختك ستغيّران تصرّفهما معك. لن تعرفيهما وستجثوان عند قدميك.

اغرورقت عينا كنزة بالدموع وقالت:

– لكني لا أطلب هذا القدر! لا أحبّ أن أرى الناس أذلاّء محتقرين

حتّى وإن لم يكونوا أناساً صالحين. عندي قلب في منتهى البراءة وأرفض أن أدع الحقد أو الثأر يملآنه.

واختفت الجنّية كما ظهرت. ملأت كنزة جرّتيها، أحسّتهما خفيفتين، ومشت متقافزةً كأنها طفلة تلقّت هديةً كانت تتمنّاها، ولم تعد شاعرة لا بالبرد ولا بالتعب. كانت سعيدة وحسب. وعندما وصلت البيت استقبلتها أمها كالعادة بالصياح والشتائم:

– يا شقية، تأخّرتِ، ماذا فعلت كلّ هذا الوقت؟ أجيبي وإلا ضربتك.

وأخبرتها كنزة الطيّبة القلب بما جرى عند النبع، وفيما هي تتكلّم انطلقت من فمها ورود جميلة ثمّ لؤلؤتان رائعتان تلتهما حبّتا ألماس. وانقضَّت الأم على الجواهر غير عابئة بالأزهار، ونادت ابنتها الأثيرة:

– تعالي، أسرعي، أصبحت أختك مهمّة جدّاً! عندها الكثير من اللآلئ والماس...

وفي ردّة فعل أولى سألتها جميلة:

– من أين سرقتها؟ أنتِ عارٌ علينا، ليس أنك حمقاء وحسب، بل أنت فوق ذلك سارقة.

وردّت كنزة بابتسامة عريضة:

– أنتِ سيّئة، لكن اعلمي أنني لا أكنّ لك أي شعورٍ سيّئ. أنا أرفض بكلّ قواي الأذى والخبث. ولو تركت لهما مكاناً في قلبي لأتلفاني. وعليك القيام بالمثل.

وفيما هي تتكلّم كانت الجواهر تتساقط من فمها بشكل طبيعي. وسرعان ما تغيّرت نبرة الأمّ وصارت تكلّم البنت التي لا تحبها

كلاماً لطيفاً عذباً، كان فيها من المكر ما يجعلها تحاول استغلال الوضع لصالحها. واستعلمت عن الجنيّة وعن قدراتها الشهيرة. وفي اليوم التالي أرسلت جميلة لتأتي بالماء، وقبل انطلاقها قدّمت إليها بعض النصائح:

– تظاهري بالبساطة. وإذا طلبت منك الجنية أي شيء قولي لها إنك مجرّد فتاة بائسة يتيمة وأنك بحاجة إلى المساعدة. العبي دور الفتاة المهملة التي تستدرّ دموع المارّة.

– لكن ليس لدي أي رغبة في الذهاب لنقل الماء. لماذا أُجبر على ذلك؟ عندنا الحمقاء من أجل هذا!

– تظاهري فقط وهذا كل شيء، أريد أن يتساقط الماس واللؤلؤ من فمك لا من فم أختك.

استاءت جميلة وراحت ترغي وتزبد صابّةً جام غضبها على كنزة، فبسببها وقعت عليها الآن كارثة نقل الماء. في الخارج، كان الثلج يتساقط، ولم تعد تحسّ بيديها ووجهها بسبب الزمهرير القارس. وركضت على أمل أن تتدفّأ. ووصلت إلى النبع مقطوعة النفس، وخاب أملها لأنها لم تجد أحداً هناك. فقالت في نفسها: "هذا مقلبٌ آخر من تلك البلهاء". وراحت تصيح: "كنزة حمقاء! كنزة شنيعة!" وإذا بعجوز ذات عينين غائرتين لامعتين تظهر لها:

– هل ناديتني؟

– كلا! ومن أنتِ؟

– أنا صديقة الحمقاء والشنيعة... هل عندك المزيد من الشتائم تطلقينها؟

وأدركت جميلة أنها في حضرة الجنّية الشهيرة، فسارعت إلى سؤالها:

– أنتِ هنا لكي أسقيك، أليس كذلك؟

– أنتِ قلتها!

– أمّي هي التي أرغمتني على المجيء في هذا البرد القارس لنقل الماء، علماً أن أختي الحمقاء هي التي تُكلَّف بذلك عادةً.

– يبدو أنّك سيئة الطباع فعلاً أيتها الفتاة المسكينة!

– هيّا! عجّلي في منحي هبتك، هكذا تُسرّ أمّي وتعود أختي إلى وضعها كخادمة في البيت.

– هل صحيح أنكما تطعمانها من بقايا ما تأكلان؟

– هذا كلّ ما تستحقّه. إنها بلهاء ومغرورة.

– وما أدراكِ بالجنّيات والحياة؟ ها أنتِ هنا تصدرين الأوامر علماً أنك ذات نفس شرّيرة. لا يمكنني أن أخدمك. وها أنتِ كلما تكلّمتِ تبصقين أفاعي وضفادع. هذا قصاصك.

ارتعبت جميلة وقد أدركت أنها أساءت التصرّف مع الجنّية، وسدّت فمها بكفها كي لا تتكلم. لكن فات الأوان وما أُنزل عليها بات في داخلها. وأسرعت هاربةً حتى من دون أن تملأ الجرّتين. وعندما وصلت إلى البيت راحت تلطم رأسها بالجدران، وأمها تصرخ:

– ماذا جرى لابنتي؟ هي ممتقعة، تغيّرت سحنتها وصارت باهتة وعيناها جاحظتان. زال جمالها، راحت به هذه الجنية الشريرة! آه يا ابنتي، ماذا جرى؟ أخبري أمّك المسكينة...

– كلّ هذا بسبب كنزة. لقد حكت كلّ شيء للجنية، فانتقمت منّا.

وفيما هي تتكلّم سقط من فمها أفعيان وضفدع كريه إلى أقصى حدّ، يسيل لعابه وهو ينقّ. أما الأفعيان فراحتا تزحفان في أرجاء البيت مفتّشتين عن طعام.

وراحت جميلة وأمها تصرخان مرتعبتين، وأسرعتا إلى المطبخ حيث تنام كنزة عادةً، تريدان شتمها وتهديدها بانتقام رهيب.

لكن كانت كنزة قد ابتعدت. فما إن عادت أختُها إلى المنزل حتى انتابها حدسٌ قوي فقصدت الغابة وكأنّ صوتاً ما وجّه خطاها. واستقبلتها هناك مجموعة من قرود الشمبانزي وهي تقوم بالألعاب البهلوانية الشهيرة لأولاد حمادو موسى. حملوها من تحت إبطيها وصعدوا بها إلى رأس شجرة أرز جميلة وأجلسوها على عرش أمسك به بعض القرود بثبات. أحسّت بالسعادة كما لو أنها في حلم أو في رحلة في بلاد العجائب. وكانت تخرج من فمها الزهور من كلّ الألوان فراح أصدقاؤها الجدد يتناتشونها لأنها كانت تتحوّل فاكهةً غريبة.

من مكانها أمكنها أن ترى منزلها وحتى أن تسمع ما يقال فيه. وهكذا علمت أنّ المصيبة قد حلّت بأختها وأمها اللتين، بسبب الحقد الذي يتأكّلهما، تحولتا إلى اللون الأخضر ثم الأصفر. كانتا تتقيّآن كلّ ما تأكلانه، وتلحق بهما الأفاعي أينما ذهبتا. وقد خلطت الأم بعض قطع اللحم بسمّ الجرذان على أمل أن تبتلعها الحيّات. إلا أن السمّ انزاح وسقط في جرّة الماء، وعندما شربت منها الأمّ جرعةً سقطت متيبّسةً ميتة. أمّا جميلة فقد جُنَّت وخرجت من المنزل طالبةً

النجدة، لكن لم يُنجدها أحد، فهامت على وجهها في القرية ولم تعد تعرف طريق بيتها. وهي الآن شحّاذة في الشوارع ومظهرها يزداد بشاعة. وقد صعدت روحها الشريرة من جسدها واستقرّت على وجهها الذي يزداد إثارةً للاشمئزاز.

ثم أنّ الجنيّة توجهت إلى كنزة بهذه الكلمات:

– انسي هذه العائلة، وتطلّعي إلى المستقبل. سيأتي أحدهم، لا أعرف متى، سيكون رجلاً بلا ثروة كبيرة، لكنه أمير اللياقة والعدل. وإن عرض عليك الزواج فلا تتردّدي، سيغمرك بالسعادة.

في العشية ساعدها قرود الشمبانزي على النزول من قمة الشجرة وأجلسوها على طبقٍ من الفضّة وساروا بها إلى مخرج الغابة حيث كانت تنتظرهم عربة مذهّبة. ساعدها خادم على الصعود إليها ووزّع بعض الموز على القردة وسار بها في اتّجاه قصرٍ صغير يقع على المقلب الآخر من الجبل، وهو في الحقيقة مزرعةٌ في جوار بستان فاكهة. كان هذا منزل أمير شاعر غنائي جوّال، شابّ وجميل، يعيش حياةً بسيطة ويخدمه بعض المعجبين الأوفياء له. فاستقبل كنزة منشداً لها:

– "أنتِ التي انتظرتها
أنتِ المولودة من نور
أو من سفر.
جمال روحك أنقذك.
وإلى هذه الروح أنا أتطلّع،
أجعلها إيماني وأنتِ حارستها والنعمة.

وجسمك الذي عانى الكثير
قد اغتسل، وها روحك تعانق روحي
لكي يسود العالم العدل المنشود.
ما نفع الماس واللآلئ؟
طالما لنا نبع الماء العذب
والقلب النقيّ
لنعيش بلا كراهيّة
بلا إحراج الفقير
بلا احتقار ولا إذلال.
أمامنا عالمٌ بأكمله نعيد صنعه!
أهلاً بكِ، حبيبتي كنزة
يا كنزي الثمين".

تأثّرت كنزة بتواضع هذا الشاب ولطافته وهو يتكلّم مثل شيخ حكيم، فلم تعرف بما تجيب. فتّشت عن كلمات، وتلفّتت حولها مكتشفةً عالماً بدا أنْ لا عنف فيه.

أمسك بيدها وقبّلها برفق وسألها:

– إلى من يجب أن أتوجّه لأطلب يدك للزواج؟

لاذت بالصمت وحدّقت فيه ثمّ خفضت عينيها:

– أنا يتيمة، لكن عندي عمّ، سي طيّب، وقد حظرت أمنا علينا رؤيته. هو إنسان صالح، وما علينا سوى أن نفتّش عنه لنجده. هو شقيق والدي وهو متأكّد من أن أمّي هي التي سمّمت والدي، وأعتقد أنّ عنده الأدلة على ذلك.

وقرّر الأمير أن يُرسل أحد أتباعه للتفتيش عن سي طيب الذي كان ندّاف قطن، وهي مهنة نادرة اشتهر بها أوائل الصوفييّن المسلمين الذين كانوا يغزلون القطن الذي يستعملونه في نسج الثياب البسيطة التي يرتدونها.

بعد أيام وصل سي طيّب إلى القصر سعيداً برؤية ابنة أخيه مجدّداً! ورُوِي له ما جرى في العائلة، فأطلق تنهيدة عزاء وقال:

– كل من يسبّبون الأذى، رجالاً كانوا أم نساءً، لا بدّ أن تصيبهم شظاياه دوماً.

وقال الأمير ملاحظاً:

– ليس دوماً، فالعالم مليء بالأشرار الذين يخدمون الشيطان بأعمالهم وأهوائهم. وهم يتمتّعون بكل الفرص التي توفرها لهم الحياة. فلا مشاعر ولا قيم، ليس إلا الجشع إلى المال واللامبالاة بمصير الفقراء.

وردّ سي طيّب على ذلك:

– نعرف أن هناك أناساً يقتلون ويموتون بسبب توافه الحياة، توافه المال المُفسِد.

وجرى حفل الخطوبة في يوم جمعة بعد صلاة الظهر، من دون مهر ولا هدايا. فقط بعض الصلوات والأشعار. كانت للأمير بعض الموارد البسيطة ويعتاش بشكلٍ خاص من خيرات المزرعة.

وعند كتب الكتاب ظهرت الجنّية، بحلّة جميلة هذه المرّة، وأحرقت البخور مخلوطاً بالصندل والعنبر، فتضوّعت الروائح الطيبة. ثمّ جلست في زاوية صالة الأعياد ريثما تتمكّن من مكالمة

كنزة. وعند انتهاء الاحتفال اختلت بها وقالت لها:

– يجب أن أقرّ لك بأمورٍ خطيرة. عليّ أن أريح ضميري.

– ما الأمر؟

– أنا المذنبة في كل ما حدث. فأنا من دفع أمك إلى أحضان الموت، وأنا رميت أختك في الشوارع وجعلتها مجنونة بائسة. لكن مذّاك فقدت قوتي الخارقة وعدت امرأةً عادية كسائر النساء. وأنا أتنقّل من منزل إلى آخر عارضةً خدماتي في الطهي أو تدبير المنزل. وأتمنّى عليك أن تتوسَّطي لدى زوجك لكي يوظّفني في خدمتك. ولا تحكمي عليّ من مظهري، لست عجوزاً بقدر ما تظنّين، فأنا أتمتّع بصحةٍ جيّدة ويمكن أن أكون نافعةً حتى وإن فقدت قوّتي.

ذُهلت كنزة، فكيف لجنّية أن تفقد قوتها الخارقة؟ كيف ستصمد في الحياة؟ وكلّمت الأمير في الأمر فصارحها بأنه لا يثق بالجنيات لكنه يعترف بأنّ تلاقيهما كان بفضل هذه الجنية.

– سنبقيها في كنفنا.

وأطلقت على نفسها اسم "وردة" وكانت لها معرفة بعلم النبات وتتقن تحضير خليط من النباتات يشفي من القلق والخوف. ولأن كنزة لم تُشفَ كلّياً من ماضيها فقد كان وجهها يتجهّم عندما تعاودها الذكريات السيئة وتسبّب لها الكوابيس. كلّم الجنية السابقة في الموضوع فنصحته بأخذ زوجته إلى مكانٍ ما لتنقية ذاكرتها. فوجئ الأمير واستوضحها الأمر، عندها قالت له وردة وقد غمرتها السعادة:

– نحن نمضي حياتنا في تكديس الذكريات، الجيّدة منها والسيّئة. ونحن لا نتحكّم بها، هي تسكننا وتظهر من حيث لا ندري وليس

في وسعنا أن نفعل شيئاً. تكفي رائحةٌ ما، عطرٌ ما، صورةٌ تمرّ سريعاً في خاطرنا لكي تتراقص بعض الذكريات أمامنا. أعرف مكاناً، هو كناية عن مزار، ضريح وليٍّ صوفّي، حيث بالإمكان، بفعل التركيز الشديد وقوّة الإرادة، التخلّص من الذكريات السيّئة، علماً أنها في الحقيقة لا تزول كليّاً بل تتغلغل في ذاكرة أشخاص آخرين. ويزعم البعض أنها تُباع، وآخرون أنها تُخزّن في عَنبر حيث ينتهي بها الأمر إلى الانطفاء والتحوّل غباراً هباء.

تأثّر الأمير بحديثها وأذن لوردة أن تقوم بالتجربة مع زوجته الشابة.

وفي صبيحة أحد الأيام غادرتا في عربة إلى وجهةٍ مجهولة. وبعد سفر يوم وصلت وردة وكنزة إلى قرية تدعى "دار النسيان"، ووجدتا حول المزار نساءً من كل الأعمار ينتظرن. وكان هناك رجلٌ أسود يدعى بلال منهمك بالعمل، متنقلاً بالكلام من واحد إلى آخر. وهو الذي يتولّى إدخال النساء إلى قلب الضريح.

دسّت وردة ورقةً نقدية في جيبه وهمست بشيءٍ ما في أذنه. أجفل بلال وتراجع قليلاً إلى الوراء لينحني كأنه في حضرة شخصيةٍ مرموقةٍ جداً، ثمّ قال لهما:

– اتبعاني!

اقتربت المرأتان من القبر والتمستا الأقمشة السوداء المطرّزة بكتابات بخيوط الذهب، ثمّ انعزلتا في غرفةٍ معتمة حيث تجري عملية تطهير الذاكرة. ولهذه الغاية أحرقت وردة بخوراً خاصاً تصدر منه رائحةٌ خانقة، فراحت كنزة تسعل بكلّ قوة وتتفّ من فمها

بلغماً أخضر وأصفر وبيضاوياً. وكلما تفّت كلما أحسّت بتحسّن. وكانت وردة تساعدها بضربات خفيفة على ظهرها حاضّةً إياها على الاستمرار:

– تابعي، اسعلي، استخرجي ما هو سيّئ فيك وتخلّصي من كل ما يضغط عليك، هيّا، لا تخافي شيئاً، انتهينا، شدّي أكثر بعد...

بعد حوالى ساعة كان السعال قد أنهك كنزة فألقت رأسها على كتف وردة وتثاءبت. وجاء بلال ونظّف الأرض بمساحيق فعّالة جدّاً لكنه استغرب صعوبة التخلّص من المواد التي تفّتها، فقال:

– الشابة المسكينة كانت ممتلئة بالكثير من الذكريات السيّئة، وقد قامت بعملية التطهّر الكبيرة هذه في الوقت المناسب.

نامتا في المزار. أحضر لهما بلال فطائر بالعسل للعشاء ثم اختفى. في اليوم التالي عادتا إلى القصر، وفي الطريق لم تتكلّم كنزة أبداً. كانت مرهقة بما واجهته. وتطلّب الأمر بضعة أيام لمعرفة ما إذا كانت ذاكرتها قد تطهّرت فعلاً.

وبالفعل تبيّن أن ذكرياتها السيّئة تلاشت كلها تقريباً وأنها نسيت كل شيء عن طفولتها ويفاعتها، وباتت الآن حياتها تبدأ من عند النبع، مساء التقائها بالجنّية التي أعطتها لتشرب.

لا هي ولا وردة ذكرتا شيئاً عن زيارة الضريح. وباتت الحياة بسيطةً وجميلة، وغمر الحبّ العريسين الشابين. وإذا ما فكّرت كنزة بأمها وشقيقتها، كانتا تتراءيان لها في جنينة وهما تحضّران لها باقة زهر. تبدوان لها باسمتين جميلتين ولطيفتين، ولا يحوم حولهما أي ظلّ. غمرت السعادة كنزة وقد اتّخذت حياتها منحىً جديداً، فهي

الآن حبلى، وقد نظم الأمير عدّة قصائد بالمناسبة، ثم ولدت توأمين، فتاتين رائعتي الجمال.

وأحبّ الزوجان كلتا الفتاتين بالقوة نفسها، بالقدر نفسه، وجعلا منهما شخصيّتين رائعتين طبعتا عصرهما بإنسانيّتهما وحكمتهما. وما إن بلغتا سنّ الرشد حتى اعتبرت وردة أنّ مهمتها قد تمَّت، فاختفت صبيحة أحد الأيام ولم يرها من بعدها أحد.

وقد تبيّن أنها كذبت، وأنَّها ظلّت تتمتَّع بقدراتها، لكنها وظّفتها لبلسمة جراحات كنزة نهائيّاً بغية جعلها تعيش السعادة والهناء طوال أيام حياتها.

٦

سندريلا

كان ما كان في قديم الزمان رجلٌ فاضل وثريٌّ ومرح، غادرت زوجته منزله في إحدى الليالي ولم تعد قطّ. كانت قد خرجت لزيارة والدتها المريضة واختفى أثرها. وبعد أشهر من البحث بتّت السلطات في موت المرأة الشابة وسلّمت الزوج وثيقة بوفاتها وذلك بعد أن اكتشف أحد عملائها جثةً متحلّلة في الغابة المجاورة للمدينة.

كانت ابنتهما سكينة قد بلغت الخامسة من عمرها، فغرقت في حالة من الحزن وقلَّ كلامها، وإذا ما سألت عن والدتها يُقال لها إنها صعدت إلى السماء، فتروح تتسلّق سلّماً قائلةً إنها ستلحق بها، وتستسلم للبكاء فلا يعرف والدها كيف يواسيها.

أثار اختفاء تلك المرأة بلبلةً كبيرة في تلك النواحي، فبدا بعضهم متأكّداً من لحاقها بعشيقٍ غريب، فيما زعم آخرون أنّ ساحرةً ابتزّتها إذ وعدتها بجعلها تنجب ولداً ذكراً. تخيَّل الناس شتّى أنواع القصص لكنّ الحقيقة لم يعرفها أحد. وأصيب الرجل بالإحباط فأهمل أشغاله

وغمرته كآبة أثبطت عزيمته، إلى أنْ اقترحت عليه يوماً سكينة، الحادّة الذكاء، أن يتزوج مرّةً ثانية.

– ماذا؟ وهل أنسى والدتك، أكثر النساء لطافةً ونبلاً؟ كلا يا ابنتي فأنا أفكّر فيها كلّ الوقت.

فأجابته سكينة كشخص راشد:

– يا أبي، الحياة تستمر، وأنا واثقة من أنك ستوفَّق بزوجة تتمتّع بهذه الصفات. ما رأيك في جارتنا؟ هي أرملة ولا مَنْ يسلّيها. ولها ابنتان فاتنتان. معاً ستتغلّبان حتماً على الحزن، وأنا أحظى بعائلة جديدة ويصبح لي شقيقات، ومَن يدري ربما هي أنجبَتْ لك صبياً.

ذُهل الرجل لحكمة ابنته وبعد نظرها، ووافق على إرسال مَنْ يطلب يد الأرملة الجميلة والشابة. رفضت في البداية على أساس أنها تستحقّ عريساً أفضل، لكن بالتأكيد هي لم تصرّح بذلك وقد تقبلّت باقة الزهر التي أرسلها لها، لكنها طلبت مهلةً للتفكير ولبحث الأمر مع ابنتيها على حدّ قولها. ثمّ وافقت في الشهر التالي، وتمّ الاحتفال بالزواج سرّاً.

ما إن انتقلت ابنتا خالتها زوجة أبيها، كنزة ووردة، للعيش معهم في المنزل حتى أحسَّت سكينة أن الأمور ستتعقّد بالنسبة إليها. ذلك أن والدتهما فاطمة، أقنعتهما بأنّ سكينة الصغيرة هي هنا في خدمتهما. وممّا قالت:

– أنتما بجمالكما ونَسَبِكما تتفوّقان كثيراً على هذه الفتاة الصغيرة التي اختفت والدتها في ظروفٍ مشبوهة، ولكلٍّ مقامه وموقعه.

وما كانت بحاجة لتلقينهما الدرس، فهما من الخامة نفسها. وفي

نظراتهما إلى الناس ما ينمّ تماماً عن تشوّفهما، كأنّهما ولدتا لتُخدَما وفي الوقت نفسه لإذلال الآخرين.

ولم تلبث فاطمة أن فرضت نظامها، فمنعت سكينة من تناول الطعام إلى المائدة نفسها مع ابنتيها ومن ارتداء ملابس أجمل من ملابسهما. أرادتها خادمةً تُعامَل بدونيّة.

رضخت سكينة ولم تنبس بكلمة. وجدت والدها خاضعاً لسيطرة زوجته الجديدة، وعند التقاء ناظريهما كان يخفض عينيه كمن يريد الاعتذار والقول: "ليس بيدي حيلة، إنها أقوى منّا نحن الاثنين معاً". آلم سكينة ضعف والدها لكنها تحلّت بالصبر واثقةً من أن العدالة ستتحقّق يوماً ما. لذا كانت تنصاع لأوامر النساء الثلاث، وعندما تنتهي من الأعمال المنزلية تنسحب منعزلةً في غرفتها حيث كانت تحب الجلوس بالقرب من المدفأة ووضع رجليها في الرماد المنطفئ. وفي أحد الأيام مرّت كنزة بالمكان، وهي أشدّ البنتين شرّاً، فقالت لها:

– من الآن وصاعداً سندعوك سندريلا.

وانفجرت ضاحكةً وغادرت بعد أن وجّهت ركلةً إلى سكينة.

ولم تلبث وردة أن زايدت عليها:

– سندعوها ساندري، إنه اسم أكثر ابتذالاً من سندريلا.

لم تعلّق الأم على الأمر، وحاول الوالد الاعتراض لكن بلا كبير حماس:

– والدتها هي التي أصرّت على منحها اسم خالتها الحبيبة، بالنسبة إليّ هي سكينة وستبقى دوماً سكينة.

وردّت فاطمة:

– ونحن نزدري هذا الاسم. والآن عليك أنت أن تعطيني المال لأتمكّن من استلام الفساتين التي أوصيت الخيّاط عليها لارتدائها في حفلة الأمير الراقصة.

فتح الأب صندوقة ماله وعرض عليها أن تأخذ ما تشاء. ويبدو من الواضح أن المرأة عموماً، في هذا البلد الشرقي، وبعكس ما تقول الخرافات، هي التي كانت ذات شخصيّة قوية وتسيطر على الرجل. طبعاً لم تتمتع بحقوق متساوية مع الرجل، لكن في المنزل كانت هي السيّدة وكانت تستغلّ سلطتها المنزلية. أخذت فاطمة كلّ ما في العلبة من نقود، علماً أنها لم تكن بحاجة لكلّ هذا المال، لكنها من باب الاحتياط خبأت قسماً منه في خزانتها. ولم يستغرب الزوج تصرّفها، كان يعرف أنه يتعامل مع امرأة لا تكنّ له الكثير من المودّة وأنها عقدت معه "زواج مصلحة" على حدّ قولها هي نفسها.

تقام حفلة الأمير الراقصة في أول أيّام الربيع وهو احتفال تنتظره المدينة أكثر من غيره. وفيها يتلاقى الشباب وتنشأ أحياناً علاقات تفضي إلى الزواج. وقد أُطلق على هذا الحفل اسم "موسم الخطبة". لكن لا كنزة ولا وردة وفّقت إلى عريس ما جعل أمهما تشعر بأسى كبير، فأوعزت إليهما بحزم:

– تقرّبا من أكبر عدد ممكن من الشباب، إنها فرصتكما الأخيرة لإيجاد عريس. لكن إيّاكما والإتيان بشاعر أو منشد جوّال أو حرفيّ! فليكن غنيّاً!

أمضتا النهار تتحضّران. قصدتا أولاً الحمّام حيث نتَفَتا الشعر

عن جسمهما على يد مدلّكة سوداء. فلطالما نبّهتهما والدتهما: "تخلّصا من الوبر على الأخصّ، فقط الفتيات الفقيرات يتركن الوبر عليهن، وهذه قلّة نظافة!". ثمّ حضر المزيّن إلى المنزل واستغرق وقتاً طويلاً كي ينجز لكلتيهما تصفيفة شعر مميّزة استثنائية، ولتجميلهما بمساحيق مستوردة من فرنسا. وفيما هما تستعدّان طلبتا من سكينة إعداد الشاي والبسكويت، ثمّ قالتا لها من باب التنكيد:

– سندري، ألا تريدين أنت أيضاً الذهاب إلى الحفل. من يدري؟ قد يقع الأمير في غرامك فتصبحين أميرة، ولاحقاً ملكة!

– سندري، لا تنسي تمريغ رجليك بالرماد، يبدو أن ذلك يجلب الحظّ!

– أنتما تسخران منّي. ليس هذا لطيفاً منكما!

– إذن اجلبي لنا عصير الفاكهة، فنحن بحاجة إلى مزيد من الطاقة لكي نرقص ونفتن أجمل شباب المدينة. وإن أردتِ، يمكننا اختيار عريس لك من بين الخدم. لا بأس بهم متى اغتسلوا وانصاعوا مطأطئي الرؤوس.

أسرعت سكينة لتحضير العصير، وبكت بصمت فسقطت بضع دمعات منها في كوب عصير ليمون. ضحكت لذلك وتوقفت عن التذمّر من سوء حظّها، ووصلت عندهما مبتهجةً وعلى يديها صينية مزيّنة جيّداً. لا شكراً ولا كلمة لطيفة منهما، فتاتان عديمتا التهذيب، فظّتان وسوقيّتان. تأمّلتهما وفكّرت في أنها لا تودّ أن تكون في وضعهما.

بعد مغادرتهما إلى قصر الملك باتت سكينة وحدها ولبثت جالسةً

قرب المدفأة. كانت حزينة وراحت تفكّر بأمها. وفجأةً خُيّل إليها أنها تراها أمامها. فركت عينيها وتأكّدت فعلاً من وجود امرأة أمامها، لكنها لم تكن أمّها، فسألتها سكينة:

– من أنتِ؟ لستِ أمّي؟ لا يُعقل، أنتِ عجوز جدّاً، وأنا لا أعرفك...

– بلى تعرفينني، لكنك نسيتِني. أنا لالا عايشه، عرّابتك. ما إن عرفت أنك حزينة حتى هرعت إليك وها أنا. ماذا، أتريدين الذهاب إلى الحفل؟ حسناً، ستذهبين وترين، سيكون الأمر رائعاً.

– كيف ذلك؟ ليس عندي فستان، وأنا بشعة فلا يمكنني الذهاب بهذه الهيئة.

– كفّي عن التذمّر وثقي بي وأسرعي واجلبي لي يقطينة.

أطاعت سكينة وهي تتساءل ما الحاجة إلى يقطينة. ولم يكن العثور على واحدة بالأمر السهل. لكن البستاني العجوز حلّ في النهاية مشكلتها إذ كان يحتفظ بواحدة في المخزن:

– إنها ثقيلة جداً عليك، دعيني أساعدك. من يريدها؟ أهي خالتك صاحبة الأفكار الغريبة؟ هي شريرة مع الجميع. تعاملني كما لو كنت عبداً لها. فمنذ أيام مثلاً استدعتني وأمرتني بأن أحضر فوراً بعض الباذنجان من البستان، ولم يكن الباذنجان قد نضج بعد. وعندما رأته صغيراً جداً وأخضر راحت تصرخ وطردتني بعد أن أشبعتني شتماً. لا ريب أن والدك المسكين يعاني كثيراً من تلك الفاجرة.

وضع البستاني اليقطينة الكبيرة في عربة صغيرة ونقلها الى منزل سكينة. وعندما رأى لالا عايشه عرفها فوراً فحيّاها قائلاً:

– لقد عدتِ! إن كنت لا تزالين تحتفظين بقدراتك ساعدينا على التخلّص من هذه المرأة الشريرة...

– انتظر تَرَ!

راحت سكينة تراقب لالا عايشه محاولةً اكتشاف ما تنوي فعله، وعندها رأت طرف عصاً فضية خارجاً من جيبها. قالت في نفسها: "هذه جنيّة! كيف ذلك، لكن في هذه الأيام لم يعد هناك جنيّات؟".

نقلت لالا اليقطينة إلى الباحة وبضربة من عصاها السحرية حوّلتها عربةً في غضون ثوانٍ. فركت سكينة عينيها عدّة مرات وانفجرت ضاحكةً ثم هتفت:

– ياي! هذا مذهل! كيف فعلت ذلك؟

– لا تطرحي أسئلة واجلبي لي... أو بالأحرى قولي لي أين يمكنني إيجاد مصيدة فئران؟ عندكم حتماً فئران في العليّة أو في المخزن...

رافقتها سكينة الى قلب الجُنينة حيث نُصبت بعض المصلايات. فكّكتها الجنيّة ووضعتها في كيس خَيْش مبلّل بالزيت، ثم وضعت الكيس أمام فتحة يُفترض أن تؤدي الى الجحر حيث تعيش الفئران. التقطت ستّاً منها وأحكمت ربط الكيس عليهنّ. ظلّت بحاجة إلى جرذ، فدلّها البستاني على فتحة ضخمة في الحائط، فكرّرت العملية وبات معها جرذ في كيس آخر. عندها عادتا قرب العربة. وجّهت لالا عايشه ثلاث ضربات بعصاها إلى كلا الكيسين، فلم يحدث شيء، فطلبت عندها من سكينة الابتعاد:

– أنت لا تؤمنين بالسحر، أليس كذلك؟

– بلى، قليلاً...

– إذن عودي إلى المنزل واستحمّي. تبرّجي وانتظريني.

تناولت العصا السحرية من جيبها ووجّهت ضربةً خاطفة إلى كلا الكيسين، وفي لحظة ظهر ستّة أحصنة وحوذيٌّ بدين ذو شاربين كثيفين، ثمّ نادت الذي كان يتابع ما يجري مذهولاً:

– أحتاج ستّ عظايات.

– ليس الطقس حاراً لتخرج العظايات لكنني أعرف أين تختبئ. عظايات الصيف المنصرم كانت عاشقة، وتعرف أسرار كلّ الناس. كانت غريبة وكسولة وغير قابلة للتدجين. وقد أوقعت أضراراً لا بأس بها.

ومع تحويل العظايات غلماناً خَدَماً بات كلّ شيء جاهزاً لمواكبة سكينة إلى القصر الملكي. ارتدت ثوباً يلائمها جيداً من أثواب أمّها وتكفّلت لالا عايشه بتصفيف شعرها وتبريجها، فبدت في منتهى الجمال والبهاء.

– ستذهبين الآن إلى حفل الأمير، وتدخلينه دخولاً لافتاً. لا تخجلي لكن أظهري بعض التحفّظ. لا تتكلمي كثيراً، والأهمّ لا تقولي شيئاً عمّا رأيتِ. ستمضين وقتاً ممتعاً وسيجثو الشباب عند قدميك. ازهي بنفسكِ ولا تطأطئي رأسك. أنت أميرة حقيقية بكامل حسنها. لكن احفظي جيّداً ما أقوله لك: يجب أن تعودي حكماً قبل منتصف اللّيل. أكرّر: قبل منتصف الليل. لا تسأليني لماذا، في مطلق الأحوال يجب مغادرة القصر قبل منتصف الليل.

قبّلت سكينة يد الجنيّة واعدةً بطاعتها، ثمّ جلست مكانها في العربة المتلألئة بزينتها.

عند وصولها إلى القصر بُلِّغ الأمير:

– صاحب السمو، وصلت للتوّ إحدى الأميرات.

رحّب بها الأمير لاثماً يدها. وعندما نظر إليها صُعِق بكلّ هذا البهاء والجمال! وقالت له سكينة:

– مولاي، أنا سكينة، جارتك. رافقني للرقص!

أخذها الأمير من ذراعها ودخلا دخولاً مؤثّراً. توقّف الموسيقيّون عن العزف وسارعت النساء لرؤية فتاة الأحلام هذه عن كثب. واقتربت كنزة ووردة بدورهما وانحنتا أمامها. طبعاً لم تتعرّفا عليها وسألتاها من أي مملكة أَتَتْ، ولم تجبهما سكينة.

لم تفارق ذراعَيْ الأمير الذي راقصها طول السهرة، فيما شقيقتاها تبكيان في إحدى الزوايا. وأثناء الرقص كانت تسأل دوماً عن الوقت.

– انسي الوقت. ارقصي واضحكي وامرحي!

– أنا سعيدة، لكنني وعدت والدي بالعودة في ساعةٍ محدّدة، وأنا أحبّ أن أفي بوعودي.

وقبل ربع ساعة من حلول منتصف الليل استأذنت الأمير وركبت العربة عائدةً إلى المنزل حيث كانت تنتظرها لالا عايشه. وقد سرَّ رحيلها النساء خصوصاً إذ تخلّصن أخيراً من تلك المنافسة الصعبة.

صبيحة اليوم التالي، عادت كنزة ووردة إلى التهكّم بها:

– آه يا سندري! لو حضرت الحفلة لأعياكِ الضجر! لم يكن هنالك سوى صبايا جميلات وثريّات، خُلقن ليصبحن أميرات. لكن الأمير لم يُعِر اهتماماً إلا لتلك الغريبة، هي أميرة قادمة من بلاد يصعب لفظ اسمها. الحقيقة أنها جميلة وقد غطّت علينا جميعاً، فكيف لو كنتِ

هناك، لسحقتك! يجب منع الغرباء من دخول بلدنا. فلو راحت كلّ الأميرات الغريبات يحضرن حفل أميرنا، لن تبقى لنا أيّ فرصة لإغراء هذا الرجل الفائق الحسن والجاذبية!

لم تعلّق سكينة على الأمر، وراحت تضحك في عبّها شاكرةً الجنية. ثمّ استدعاها والدها ليطلعها على مشروع حضّره لها ليبعدها عن هذا المنزل حيث تُساء معاملتها:

– تعرفين نسيبك الذي فقد زوجته في حادث، حسناً، هو طلب يدك منّي. لديه ثروة لا بأس بها وأنا متأكّد من أنه سيحسن معاملتك. عنده ثلاثة أولاد، وهو لا يزال شاباً مُعافى. فما رأيك؟

فأجابته سكينة بصوت خافت:

– أبي، أنا سأتزوّج بأمير!

قهقه الوالد وقال بدوره:

– نعم، بالطبع يا ابنتي، زوجك سيكون أميراً...

– أبي، أنا جادّة في ما أقول. أتتني رسالة واضحة من الشمس والقمر: قريباً أصير أميرة. ويجب ألاّ أعارض حكم السماء وإلاّ استجلبت المشاكل لنفسي.

وانسحبت فوراً بعد أن شكرت والدها طبعاً على عرضه النبيل.

بعد خمسة عشر يوماً نظّم الأمير حفلةً ثانية. ظهرت لالا عايشه مجدّداً وأمرت سكينة بالاستعداد.

– هذه المرّة، يا ابنتي، ستكونين أكثر تألّقاً، ويبقى الشرط نفسه حكماً: عليك العودة قبل منتصف الليل.

واستوضحتها سكينة عن السبب، فأجابتها:

– بعد منتصف الليل أفقد قواي السحرية وأعود امرأةً عادية، امرأة هرِمة كغيري متهالكة وبلا أسنان. لا أريد أن تقعي ضحية ذلك، لذا لا تنسي. وليس أنني أفقد قواي بل أصبح شرّيرة لأنني لا أحبّ وضعي هذا.

انتظر الأمير سكينة، هو الذي لم يكفّ عن التفكير فيها، ممنّياً النفس بأن يبدي لها، أكثر من المرّة الماضية، المزيد من الاهتمام واللباقة والودّ. أمّا سائر الصبايا فانتابهنّ القلق ورحنّ يتهامسنَ فيما بينهنّ:

– هل ستأتي مرّةً ثانية؟

– كان يفترض بنا أن ننصب لها فخّاً لمنعها من الحضور وإفساد احتفالنا مرّةً أخرى.

– نعم، لكن كيف؟ نحن لا نعرف حتى من أين تأتي. أميرة من بلاد غريبة! ما هي تلك البلاد؟ قد لا يكون الأمر حقيقيّاً إلى الدرجة التي يبدو عليها...

ومرّةً أخرى دخلت سكينة القصر. وفي منتصف السهرة تماماً باح لها الأمير بحبّه، فتأثّرت جدّاً وارتمت بين ذراعيه ناسيةً العالم والوقت. وفجأةً سمعت الدقّة الأولى من ساعة الجدار معلنةً منتصف الليل! فاندفعت على عجل نحو المخرج من دون أن يتسنّى لها الوقت للاستئذان، وفي طريقها وقعت من قدمها فردة حذائها اليمنى، كان حذاءً بلّورياً. وانتبّهت سكينة لذلك بعد أن جلست في العربة، لكنها لم تفكّر حتى في العودة لاستعادتها، لقد فات الأوان.

لَمَّ الأمير الحذاء الثمين ودسَّه في جيبه. ها هو مُغرَم، وهذا ما

لاحظته كل الصبايا الموجودات. ومن تلك اللحظة غرق الأمير في حالة حنين محبّبة، يداعب الحذاء في انتظار أن يأتي من يطالب به. وعبثاً أوعز إلى مستشاريه العثور على عنوان تلك الصبيّة، إذ تبيَّن أنّ لا أحد يعرفها. عندها استدعى إلى القصر الساحرة العجوز، العرّافة البارعة إذا ما كانت في مزاج جيّد. لكنها في ذلك اليوم كانت في مزاج سيّئ جدّاً، فجعلت ترغي وتزبد، وتبصق أرضاً وتشتم الخدم. وعندما رأت الأمير أمامها قالت له وهي تضحك ساخرةً:

– يبدو أنك بحاجة إلى خدماتي؟ أتريد سمّاً أم مسحوق نخاع الضبع؟ قل لي، ممّن تريد التخلّص؟

وسدّ الأمير أنفه إذ كانت تنبعث منها روائح كريهة، وقال:

– كلا، لا أريد التخلّص من أحد. أوَتحسبينني قاتلاً؟

تذكّر أنها تستطيب أكل رأس الخروف المطبوخ على البخار، فطلب أن يقدّموا لها رأسين دسمين، وعاد لرؤيتها في موعد احتساء الشاي. كانت قد هدأت حتى ليقال إنها لطيفة وخدوم. وأراها الأمير الحذاء وسألها:

– أيمكنك أن تقولي لي من صاحبة هذا الحذاء؟

وضعت نظّارتيها، تفحّصته ثم قالت:

– لا أحزر لمن. إنه لِقدَم صغيرة جدّاً، صبيّة من طبقة رفيعة. لكن أقترح عليك أن تستدعي جميع صبايا المدينة الشابات والجميلات وأن تطلب منهنّ تجريب الحذاء. إنها الوسيلة الوحيدة للعثور على الحسناء التي كانت تلبسه.

وانتشر البلاغ في كلّ أرجاء المدينة. ومع فجر اليوم التالي امتدّ

أمام القصر صفٌّ من حوالى مائة فتاة. لكن الحراس الذين لم يُبلّغوا بالأمر حاولوا طردهنّ. لكنهنّ أصرّين على البقاء ورحن يهتفن: "عاش الأمير!". قرابة الظهر فُتحت أمامهنّ الأبواب، فرحن يتدافعن، ثمّ أعاد أحد مستشاري الأمير النظام بعد هذه الفوضى الكبيرة وأدخلهنّ بصمت وهدوء الواحدة تلو الأخرى.

أمسك المستشار بالحذاء البلّوري للقدم اليمنى، وراح يحاول إلباسه للقدم التي تُمَدّ له، وفي كلّ مرّة يهزّ رأسه نافياً، ولم تؤخَذ أي صبيّة. وبالطبع تقدّمت كنزة ووردة للتجريب لكن من دون جدوى وعادتا أدراجهما في حالة من الاستياء الشديد. وفي طريق العودة التقتا سكينة، فسألتاها:

– أين تذهبين؟

– لأجرّب حظّي، يبدو أن أميراً يبحث عن صبيّة ذات قدمين نحيفتين، وأنا قدماي نحيفتان جدّاً...

– يا للوقاحة! أنت عارٌ علينا! عودي فوراً إلى المنزل!

ابتسمت سكينة وحدّقت فيهما، ثمّ قالت لهما بنبرة هادئة:

– أنا لست خادمتكما، وأفعل ما أشاء، وفي حال اختارني الأمير سأعيّنكما في منصب مهمّ في حاشيتي.

انفجرت الشقيقتان بالضحك عند سماعهما ذلك، وأرادت كنزة ضرب سكينة، لكن وردة منعتها من ذلك.

– تعالي، دعيها، إنها فتاة بائسة، ليست لديها أيّة فرصة، هي تتوهّم. لا يُعقل كم أنّ الفقراء مغرورون!

ثمّ التفتت إلى سكينة قائلةً لها:

– هيا اذهبي، اذهبي واجعلي نفسك أضحوكة! نلتقي لاحقاً في المنزل، وسترين أيّة مفاجأة نحضّر لك!

كانت روح لالا عايشه ترافق سكينة في سيرها، فأحسَّت في نفسها قوّةً وعزماً على تجربة حظّها هي أيضاً، لكن ليس من دون أن يراودها شيءٌ من الريبة، إذ إن ذكرى الليلتين اللتين زارت فيهما القصر لم تكن واضحة في ذهنها. أيُعقل أن تكون قد حلمت بذلك؟

وصلت أمام القصر، كانت الأبواب مقفلة، وما زالت هناك بعض الفتيات يبكين في إحدى الزوايا. فتوجّهت إلى أحد الحرّاس بالقول:

– أنا هنا لأجري تجربة الحذاء.

– تأخّرتِ يا صغيرتي. عودي إلى بيتك.

وصادف أن خرج المستشار من القصر في تلك اللحظة، وعندما شاهد سكينة تهيّأ له أنه رآها من قبل، فأمسك بيدها واقتادها إلى الأمير المغتَمّ لعدم عثوره على تلك اللؤلؤة النادرة. وبمجرّد أن رآها لم يساوره أدنى شكّ:

– هاتي قدمك اليمنى.

ولبست القدم الحذاء بأتمّ وجه. فسألها:

– ما اسمك؟

– سكينة يا صاحب السمو.

– هل كنت في الحفلة تلك الليلة؟

– نعم، لكن ليس في الواقع على الأرجح بل في الحلم. يبدو أنني حلمت طوال الليل بهذا القصر وبالحفلة الراقصة، حتى أنني حلمت أنني أضعت فردة حذائي. لكن في الحقيقة يبدو أنّني كنت نائمة في

كوخي مرتعدةً من البرد لأن الحطب نفد من المدفأة.

وما إن همَّت بالنهوض والانسحاب حتى أحسّت ضربة عصا خفيفة على رأسها وسمعت الجنيّة تقول لها:

– دورك الآن في المبادرة. ابقي على طبيعتك وسترين كيف يتجلّى جمالك.

إذّاك عرفها الأمير وقال لها:

– لا أنسى أبداً ابتسامتك. ها أنتِ أخيراً! فجأةً بدا لي هذا الجمال وهذه العذوبة مألوفين عندي. أودّ أن أرى أهلك في أقرب وقت ممكن.

واغرورقت عينا سكينة بالدموع:

– والدتي متوفاة، ووالدي سيأتي لمقابلتكم متى شئتم. هو رجل طيّب وفي غاية اللطف، لكن...

وحثّها الأمير على متابعة الكلام قائلاً:

– لا داعي لأن تخافي. قولي لي ما الذي يجعلك حزينةً إلى هذا الحدّ.

كفكفت سكينة دموعها وقرّرت الاكتفاء بهذا القدر. حملت بيدها حذاءها وهمّت باستئذان الأمير عندما تلقّت ضربة عصا أخرى على رأسها، فإذا هي متدثّرة بثوبٍ من نور، فدارت على نفسها وانحنت محيّيةً ذاك الذي حمل بيده مجدّداً الحذاء البلّوري، ولاحظ أنها تنتعل الحذاء نفسه في قدمها اليسرى، فمدّت له اليمنى، فإذا الكلّ في تناسقٍ تام. وأوعز الأمير إلى مستشاره بإحضار والد سكينة.

في غضون ذلك، أحسّت سكينة أنها دُعيت إلى التنزّه في متاهات

الحديقة، وحدست بأنّ لالا عايشه تنتظرها هناك. كان عليها العبور من رواق الى آخر، ومعرفة طريقها، وقد نجحت في ذلك بتتبّعها رائحة عطرٍ خاص نشرتها الجنيّة من مِبخرة. وفي لحظة ما اضطرت إلى التوقّف إذ شعرت أن كلّ شيء حولها يدور. أصابها دوار وخُيِّل إليها أنها انتقلت إلى عالمٍ آخر يشبه ذاك الذي رأته في الحلم. وكانت تتساءل عن كيفية الخروج من هذه الحديقة ذات الممرّات المتشعّبة عندما اقترب منها رجلٌ عجوز، أعمى وأنيق، ومدّ لها يده قائلاً:

– اتبعيني يا آنسة.

لم تجرؤ على مخالفته ولا على سؤاله كيف سيتمكّن من ذلك وهو كفيف. لكنّه قال لها:

– أنا أعمى لكنني قرأت جميع الكتب. في الحقيقة وقعت في تلك المتاهة وأنا أقرأ كتاب **ألف ليلة وليلة**. وربما هذا ما ذهب ببصري شيئاً فشيئاً. منذ ذلك الحين وأنا أدور على نفسي في انتظارك، لأن أحدهم أبلغني أن صبيّةً عذراء وبالغة ستأتي يوماً ما لإخراجي من هنا. تغادر صفحات الكتاب العظيم في فجر أحد الأيام، وتدعى شهرزاد، تمدّ لي يدها لتأخذني خارج تلك الممرّات التي خطّطها جنيناتي عمِل لملكٍ أولى الأشجار اهتماماً غير معهود.

مشيا متتبّعين عطر الجنّة والعجوز يحكي لسكينة قصّة أمير فَقَد شقيقه التوأم واعتبر نفسه مذّاك نصف رَجُل، وأن صبيةً صغيرة القدمَين ذات روح مفعمة بالعطف هي وحدها ستكون قادرةً على ملء هذا الفراغ الذي يعاني منه ليل نهار.

– ويبدو لي يا آنسة أنكِ أنتِ هي تلك الروح وذاك الجسد الذي

يحتاجه أميرنا. أستشعر ذلك لأنني منذ فقداني بصري اكتسبت حاسّةً جديدة هي الحَدْس، وحدسي يصدق دوماً.

عندما خرجا من المتاهة كانت سكينة واثقةً من أن حلمها يتحقّق، فقد رأت نجوماً في وضح النهار تتراقص فوق رأسها، لا بدّ أنّ لالا عايشه كانت تحوم في الجوار. وسألت العجوز عن اسمه:

– ناديني "يا عمّي"، أنا هنا لأقصّ لك الحكايات وألقي عليك القصائد وأختلق الشخصيات وأسلّيك وربما لأعلّمك. أنا المسؤول عن مكتبة القصر الضخمة ومتخصّص في مخطوطات القرن الثاني عشر، تلك الحقبة يوم كان العالم يتحدث اللغة العربية وكان الإسلام دين الأبرار.

انطلقت أصوات الطبول والأبواق معلنةً بدء الاحتفال. خرج الأمير لاستقبال والد سكينة الذي أقيمت له مراسم التشريف وبدا عليه التأثر. في هذه الأثناء اختفى الرجل العجوز تاركاً لسكينة أن تعانق والدها.

وتقدَّم الأمير بطلب يدها، فتلعثم الوالد الذي تهيَّب الموقف وتمتم بعض كلمات الشكر، ثمّ التفت إلى ابنته قائلاً:

– يا ابنتي، هل سمعتِ ما قال الأمير؟ الكلمة لكِ، وأنا ليس لي إلا أن أمنحكما بركتي، ولن أقرّر عنك.

اغرورقت عينا سكينة بالدموع، إذ فكّرت بوالدتها وبوضعها هي كخادمة.

– نعم، يا صاحب السمو. إنه لشرفٌ كبيرٌ لي أن أعيش في كنفك.

ومع ذلك أراد الأمير أن يسمع رأي الأب:

– وأنت سيدي، ما رأيك؟

– أقول نعم، مثل ابنتي، وأشكرك على الشرف العظيم الذي حَبوْتَنا إياه.

وصل رجال بجلابيب بيضاء، حاملين سجلاً ضخماً وقديماً من حوالى مائتي عام، ووضعوه على طاولة واطئة وباشروا بالكتابة. وهكذا وُضِع كتاب الزواج بين الأمير وسكينة. وطلب الأمير من الكتبة إضافة التفاصيل التالية على العقد: "يتعهّد الزوج بإلغاء الحقّ الشّرعي في تعدّد الزوجات والتطليق. ويتمتّع الزوج والزوجة بالحقوق نفسها وهما ملزمان بالاحترام المتبادل بينهما الى أن يفرّق بينهما الموت. أما في ما يتعلّق بالميراث، فيتعهّد الزوجان معاملة أولادهما الذكور والإناث بالتساوي".

فوجىء الرجال بذلك واغتاظوا، فنهضوا مغادرين وهم يقولون:

– نحن مسلمون، ولن نكتب أبداً كتاب زواج ينتهك النصوص القرآنيّة.

فطردهم الأمير بحركةٍ من يده واستدعى كتبةً آخرين نفّذوا تعليماته من دون أن يرفعوا رؤوسهم.

وقّع الزوجان في أسفل الصفحة الأخيرة من كتاب الزواج. وبدأ أحد الشباب بعزف لحنٍ على البوق فيما شرعت حسناء سوداء في غناء نشيد الفرح والسعادة.

في المساء عادت سكينة إلى منزلها لتجمع أغراضها. لم تخبر كنزة ووردة بشيء. لكن والدتهما استدعتها إلى غرفتها وضربتها بالسوط لأنها نادتها عدّة مرّات ولم تحضر. انتزعت سكينة السوط

من يدها ورمته من النافذة وقالت لها:

– إنّي أسامحك، أنت وابنتيك. قلبك العديم الإحساس بحاجة إلى أن تسري فيه دماء الطيبة. روحك تبكي بصمت ولا تسمعينها. سأحرص من الآن فصاعداً على أن يتحلّى قلبك وروحك بالإنسانية.

في تلك اللحظة دخل الوالد الغرفة فعانق ابنته ومنحها بركته مجدّداً. ولم تفهم زوجته ما يجري.

– تزوّجت ابنتي بالأمير!

أغمي على الأمّ بعد أن أطلقت صرخةً سمعتها ابنتاها. وعندما استعادت وعيها راحت تتكلم هاذيةً:

– يا للكارثة! انقلب العالم رأساً على عقب! فتاة بهذا القبح تحظى بقلب الأمير! هذه الفتاة ساحرة، نعم، يسكنها الشيطان...

حيّتها سكينة مودّعةً كالعادة وانسحبت على رؤوس أصابعها. وفي الرواق التقت أباها وهو في مزاجٍ سيّئٍ جداً. قبّلت سكينة يده وهمست له:

– دعها تقول ما تريد.

ومن بعيد كان يُسمع صراخ الزوجة التي انهارت لما عرفته للتوّ، وانضّمت ابنتاها إليها وغرقن وقتاً طويلاً في البكاء والعويل والنحيب.

كانت في انتظار سكينة عربة لإعادتها إلى القصر، وقد ارتدت أجمل أثوابها وانتعلت حذائها البلّوري واستدعت والدها ليرافقها. وصل هو أيضاً بكامل أناقته وبدا مرتاحاً إذ عرَف كيف يسوّي الأمر مع زوجته الفاجرة بعد أن خدشت خدّه.

أُجريت مراسم الزفاف في الأسبوع التالي. وقد أصرّت سكينة

على أن يكون الاحتفال متواضعاً. وأُعجب الأمير بطلبها هذا ولم يدعُ إلى الحفل سوى الأشخاص المقرّبين جداً. ووصلت خالتها متأخّرةً تتبعها ابنتاها المتظاهرتان بالسرور. استقبلتهنّ سكينة بفرح وضمّتهنّ إلى صدرها، ثمّ أجلستهنّ في أفضل مكان وقدّمت لهنّ الهدايا. ولشدّة دهشتهنّ أسقط في أيديهنّ، فراحت كنزة تعبّر عن أسفها لتصرّفها وطلبت منها وردة أن تسامحها. أما والدتهما فلاذت بالصمت وهي تراقب بنظرةٍ عابسة ما يجري حولها، تتأكّلها الغيرة والحسد فيتغيّر لونها وتحسّ بارتفاع حرارتها. ولذلك راحوا يأتونها من وقتٍ إلى آخر بماءٍ منعش نُقعت فيه أوراق من عشبة معروفة بتهدئة النفس والأعصاب.

أُعجب الأمير برصانة ورزانة زوجته التي دعت في نهاية المطاف كنزة ووردة، "أختيها" كما صارت تدعوهما، إلى الانتقال إلى القصر والعيش معهم. اعترضت الأم بادىء الأمر ثمّ عادت ورضخت، وقد أعدّت لهنّ الأميرة الجديدة بعض المشاريع.

بعد أشهر حبلت الأميرة سكينة، فنظّمت مع زوجها، احتفالاً بهذا الحدث، حفلاً راقصاً أملت منه أيضاً تعريف أختيها بسادةٍ نبلاء يبغون الزواج. وبعد ولادة الصبي انهمكت سكينة، إلى جانب التحضير لحفل العماد، بالتحضيرات لخطبة أختيها اللتين ما عادتا تعرفان ما يجب فعله لتمحُوَا من ذاكرة سكينة صورة سلوكهما الفظيع.

كان الرجل العجوز يزور سكينة من حين إلى آخر، فيطيب لهما السير في الحديقة وهو يتلو عليها نصائحه:

– المهمّ يا صاحبة السمو هو أن يعرف المرء كيف يردّ الإساءة

والكره لأصحابهما. ترفّعي عن تلك المشاعر السيئة وحافظي في الوقت نفسه على التواضع والبساطة. لا تتركي أبداً الحسد والغيرة يسوِّدان قلبك، فإن تركتهما يتسرّبان إلى قلبك ملآ عروقك سمّاً. ليست الطيبة ضعفاً. ارفقي بالناس وهم يعرفون أنّ بإمكانك أن تكوني قوية أيضاً، وحتى بلا رحمة.

فسألته عندها:

– كيف نكتسب القوة؟

– عندما نكون على طبيعتنا.

فلفتَتْه إلى أنه لولا تدخّل عرّابتها الجنيّة لما استطاعت أبداً دخول القصر، فوافقها الرأي وأضاف:

– نعم، قد تكون المساعدة البسيطة ضرورية أحياناً، لكن لو لم تكوني مهيّأة لتصبحي أميرةً أو ملكة لما توصّلت إلى ذلك قطّ. لقد قست عليك الحياة، وفي الوقت نفسه برهنت لك أن الشرّ موجود في كلّ مكان. الألم يعلّمنا. لقد لمست عندك الجنية قوّةً لم تَعِيها. بالمناسبة، هل تؤمنين فعلاً بوجود تلك الجنيّة؟

– لالا عايشه؟ طبعاً! وإلاّ كيف كنت لأحصل على تلك الأثواب الرائعة وتلك الأحذية البلّورية النادرة جداً، وأن أبدي تلك الإرادة الحديدية؟

– فلْيَكن! لكن لا يمكنك أن تغيّري رأيي في أن الجنّية هي أنتِ نفسك!

قهقهت ضاحكةً وتابعت نزهتها مع العجوز الأعمى الذي أوصاها بأن تقرأ من دون تأخير حكايات **ألف ليلة وليلة**.

٧

حكيم أبو خُصْلَة

كان هناك في قديم الزمان ملكة اسمها شاما، تباينت الآراء حول نباهتها ولباقتها. البعض، من ممالقيها، لا يني يمتدح جمالها و"حدّة ذكائها" كما كان يحلو لهم القول. في حين كان آخرون يجدون جمالها سطحياً، مجرد مظهر برّاق يحجب وراءه قبحاً طبيعياً. وما كانوا يصرّحون بذلك علانيةً، لكنهم لم يتورّعوا عن الإدلاء برأيهم مضيفين: "رجاءً لا تذكروا هذا عن لساننا!". وكان لزوجها انشغالات أخرى تستغرق كلّ وقته. وكان يدعوها "حبيبة قلبي" فيروقها ذلك. أحياناً كان يتساءل: "متى ستنجب لي حبيبة قلبي وريثاً؟" فتجيبه دوماً: "الأمر لله".

يوم حمِلت، نظّمت حفلاً كبيراً في القصر ودعت جميع نساء المدينة الحوامل. كانت تلك لحظة مؤثرة شعرت فيها بالبهجة تغمرها، مع أنّ القابلة أصيبت بوعكة صحية في ذلك اليوم واضطرت إلى ملازمة الفراش، فيما اضطرّ الزوج إلى المغادرة في غمرة الاحتفال

ليسهر على والده الذي توفّي للتوّ.

بعد بضعة أشهر وضعت الملكة صبياً لا يشبه المولودين العاديين. كان أقرب إلى السواد وأصغر من الحجم الطبيعي وكثير التجاعيد، وله فوق ذلك حَدَبة صغيرة في ظهره، وفي وسط رأسه خصلة كثيفة من الشعر الأسود الداكن. لم يجرؤ أحد على التلميح إلى أن الولد سيكون أحدب، ولم يُبدِ الزائرون أي ملاحظة. وفي يوم كان الملك يروح ويجيء في الغرفة، أشار على القابلة أن تأتي إليه وقال لها:

– هذا الطفل ليس طبيعياً!

– أنت مخطئ يا سيدي، إنه طبيعي تماماً. الأطفال لا ينكشف جمالهم على الفور. يجب انتظار بضعة أيام قبل أن تتّضح قسماتهم وشكلهم.

– لا. ابني ليس جميلاً وأنا مقتنع أنه لن يكون كذلك أبداً. ثمّ ما خصلة الشعر هذه على رأسه؟ هل سبق لك أن رأيت طفلاً بهذا الشكل عند ولادته؟

– سيدي، هي ليست غلطة أحد.

أخرجت الملكة الجميع من الغرفة وراحت تبكي لاعنةً نفسها:

– أي ذنب اقترفت كي ألد ابناً شنيعاً إلى هذا الحدّ؟ حتّى إنه لا يبكي. يحرّك شفتيه فقط ليمسك الثدي عند الرضاعة.

وأجابها صوت امرأة:

– كفّي عن التذمّر. هذا الصبي يتمتّع بهبةٍ استثنائية. سيتحلّى بالكثير من الفكر والنباهة. صحيح، لن يكونَ جميلاً، لكن ذكاءه

الهائل سيمنحه لباقةً وظرفاً نادرين في هذا العالم. القبح والجمال مجرد مظاهر، المهمّ ما وراء ذلك، ما في الداخل.

كفّت الملكة عن البكاء والتفتت لتنظر من يكلّمها.

لم ترَ أحداً.

– أنا الجنيّة ميمونة، تلك التي لا تأتي سوى بالأخبار الجيّدة. أعني إلى حدٍّ ما...

اغتاظت الملكة وردّت عليها:

– أوتعتقدين أن هذه الولادة خبر جيّد؟

– نعم، حتى أنها فأل حسن. سترين كم سيفاجئك هذا الطفل. اختلافه عن الآخرين إشارة من السماء تنبئك بأن هذه الولادة حدث سعيد! لذا تحلّي بالصبر.

هجر الملك قصره. رفض، في اليوم السابع بعد الولادة، الاحتفال بهذا الحدث ولم يُعطَ الطفل اسماً. حتى ديك واحد لم يُذبح في المناسبة. كانت والدته تدعوه "الولد" والقابلة "الصبي ذو الخصلة السوداء". وقد تلقّى الملك لوماً من أحد أعمامه:

– علينا تقبّل ما منحنا إيّاه الله. هذا الطفل هبة من الله، لا يحقّ لك رفضه، وبالأخصّ عدم إعطائه اسماً. ستُعاقب لأنّك تتجاهله. لم تحمله قطّ بين ذراعيك ولم تُعره أيّ اهتمام. أنت مخطئ. آمرك بتصحيح هذا الخطأ الفادح.

– كيف؟

– بمنحه اسماً! إنسان بلا اسم كأَنْ لا وجود له. كيف تريد تمييزه عن الآخرين؟

قرّر الملك تنظيم حفل لتسمية الطفل، وأوعز بذبح عجل وسبعة خراف.

بقي اختيار الاسم، فاقترح عليه عمّه تسميته "حكيم" وهو يعني "العاقل" و"صاحب الفطنة".

تردّد الملك بين هذا الاسم واسم "أمين" أي "الوفي". واختارت الملكة اسم حكيم على أمل أن يحمل هذا الطفل إلى العالم بعض الحكمة. أما القابلة فظلّت تدعوه "الخصلة السوداء"، فصُرفت من الخدمة.

أوّل مرّة سمع حكيم اسمه يُلفظ افترّ ثغره عن ابتسامة عريضة. لم يسبق له أن ابتسم. أسعد ذلك أمّه كثيراً، وبدأت نظرتها إليه تتغيّر. لم تعد ترى عيوبه الجسدية، والجدير بالذكر أن ابتسامة حكيم كانت فاتنة ساحرة، وجميلة بكلّ بساطة.

سبق حكيم عمره في كلّ شيء. مشى في الشهر السابع ونطق بأول كلمة في الشهر التاسع وركّب جملة في الشهر الثاني عشر. وفي عمر السنة ما عاد بحاجة إلى الحفاضات، ما إن يشعر بالحاجة إلى قضاء حاجته حتى ينادي مربّيته ويُفهمها بنظراته أن عليها أن تجلسه على المِبولة. إلا أنّ حدبته الصغيرة كانت تتضخم وخصلة شعره تكبر.

مرّة جديدة تدخّلت الجنية ميمونة وقالت:

– قصّوا له هذه الخصلة ومسّدوا حدبته.

لكن الملكة لم تتجرأ على لمسه.

وراح حكيم يكبر مغطّياً على بشاعته بشعرِه وفصاحة كلامه، كما تمتّع بحسّ الفكاهة فعرف كيف يُضحك والديه عندما يكون

مزاجهما سيّئاً. وسرعان ما أصبح حكيم محور اهتمام العائلة. نسي الجميع خصلته وحدبته وعينيه الصغيرتين الغائرتين وتكشيراته وقصر قامته. كان شعلة معرفة وذكاء. وثبت أنّ الجنيّة كانت على حقّ، وبات الملك والملكة فخورين بابنهما الذي شعّ ذكاؤه في كلّ مكان لدرجة أنه أصبح أسطورة، أو أقلّه مضرب مثل.

وكان حكيم، من جهة أخرى، طيّب القلب إلى أقصى درجة. فكم من مرّة دعا إلى القصر أولاداً مشرّدين وحمل والده على مساعدتهم! لم يكن يوازي طيبته سوى حسّ العدالة الذي تميّز به. حتى أنه كان يحكم في الخلافات بين جيران أو يعمل على فرض حقوق امرأة طُلّقت ظلماً. وترك له والديه حرية التصرّف على أمل أن يحسّن صورته عبر تدخّلاته إذ كان بحاجة إلى ذلك خصوصاً بعد أن خسر الحرب مع المملكة المجاورة من جهة الشرق.

وراودت الملك فعلاً فكرة تعيين حكيم وريثاً للعرش، لكن شقيقه الأصغر هو الوريث الشرعي كما كان يشغل منصب الصدر الأعظم.

ثمّ إنّ الملكة في البلد المجاور من ناحية الشمال وضعت ابنتين توأمين. إحداهما رائعة الجمال، بيضاء البشرة واسعة العينين حريرية الشعر، ضحوك وهادئة، فيما الأخرى على العكس تماماً: صغيرة وصلعاء، طويلة الأنف وكثيرة التجاعيد، وتبكي دوماً. وراحت الأم تتنقّل بينهما وقد أسقط في يدها ولم تعرف كيف تفسّر هذا الوضع الغريب. تتفحّصهما الواحدة ثمّ الأخرى وتبكي. عندما علم الملك بالخبر غضب كثيراً وقال:

– هذا ما كان ينقصني، ليس أنها لم تنجب ولداً ذكراً وحسب،

بل وضعت فتاتين معاً! هذه مأساة مضاعفة، هذه لعنة. لا شكّ أنّ شقيقي سيسعد بذلك، إذ سأضطر لتسميته وريثاً لي وإلى ترك العرش له عند وفاتي.

لم تنبس الملكة بكلمة. كفكفت دموعها وأدارت ظهرها لزوجها. فجأةً سُمع طرق على الباب، والأمر غير مألوف، فما من أحد قادر على الوصول مباشرةً إلى غرفة الملك والملكة. مرَّت لحظة صمت ثم فُتح الباب وظهرت امرأة، لا هي عجوز ولا شابة، ملتفّة بوشاح أبيض، اقتربت من التوأمين وقدّمت نفسها وسط ذهولٍ عام:

– أنا ميمونة، الجنيّة التي تأتيكم بالأخبار الجيّدة.

وردّ الملك:

– في الحقيقة عندنا ما يكفي من الأخبار الجيّدة!

– لا يا سيدي، كن صبوراً واقبل بما أتاك به القدر.

– نعم، مع بنتين، من أين نأتي بالصبر...

تنحنحت الملكة وأشارت على الجنيّة بالاقتراب:

– أوضحي...

– هنالك خبر جيّد وآخر أقلّ جودة. بأيّهما أبدأ؟

ردّ عليها الملك وقد نفذ صبره:

– لا يهمّ، تكلّمي...

– الفتاة الأولى، الجميلة، ستكون أميرة غبية. عذراً لكنني أكتفي بقول ما أعرف. لا أكذب ولا أختلق شيئاً.

وردّ الملك:

– لا أستغرب الأمر! بنت وغبية، تتلاءمان...

فقاطعته الملكة:

– سيدي، لا تتفوه بالحماقات!

طلبت الجنية كوب ماء، شربت وارتاحت قليلاً، ثمّ توجّهت نحو سرير الأميرة الثانية:

– أما هي فأقترح، بعد إذنكم، أن تسمّوها نور، أي "الضوء" و"الإشراق". ستتمتّع هذه الفتاة بالذكاء والفكر والطيبة. نورها الداخلي سيشعّ حولها حتى تُنسي الناس ما فاتها من جاذبية وجمال. انتظروا، سيُشرق بها العالم.

قال الملك مستغرباً:

– هذا ما ينقص! امرأة قبيحة يشرق بها العالم! إنك تنطقين بالترّهات أيتها الساحرة!

في تلك اللحظة تحديداً طرق عصفوران على زجاج النافذة الرئيسية، وألحّا في الطرق، ففتحت لهما إحدى الخادمات، وتحوّل العصفوران ملاكين أبيضين يحومان فوق سرير الأميرة القبيحة. وبطقّة من إصبعَيْ الجنّية اختفى الملاكان، ثم قالت:

– سيدي، لو كنت ساحرة لما دخل ملاك إلى هذه الغرفة. أنا جنيّة ولست مسبِّبة للمآسي.

وارتفعت السجادة الموجودة في وسط الغرفة عن الأرض ثمّ عادت ووقعت. فأوضحت الجنية أنّ هذا إشارة إلى ضرورة مغادرتها، لكن عندها قبل ذلك شيء تقوله:

– سيدي، لا يمكنني منح الأميرة الأولى عقلاً، فقد استأثرت الثانية بكلّ عقل المملكة. لكن ما باستطاعتي فعله للحسناء هو منحها

قوّةً معينة، وهي أن تضفي الجمال على كلّ كائن ينال إعجابها، وهي قدرة هائلة شرط ألاّ يُساء استعمالها.

لاذ الملك بالصمت مكسور الخاطر. راح ينظر إلى زوجته كأنها عدّوته وسبب شقائه. ثمّ نهض وهمّ بركل مهدَيْ الطفلتين، لكنه أمسك في اللحظة الأخيرة وراح يحدّث نفسه: "لو كنا في الزمن الماضي لوأدْتُهما فوراً. في الماضي، كانوا يبقون على المواليد الذكور فقط وبعض الإناث في حال كانت عائلاتهنّ قادرة على حمايتهن. لكن منذ مجيء الإسلام، ومنذ أن حرَّم النبي محمّد هذه الممارسة، أنا مرغم على العيش تحت سقف بيتي مع بنتين، يبدو أن واحدة منهما فقط ستتمتّع بالعقل. لكن ما لي وللعقل؟ ما أريده أنا هو صبيّ، صبيّ جميل ورائع. لكن يبدو أنّ لعنةً نزلت على الملكة لا أعرف ممَّن".

وقد نصحته الجنية قبل مغادرتها بما يلي:

– سيدي، اِعرف كيف تتقبَّل ما وهبك إياه اللّه العليّ العظيم. أنت لا تعرف أين يوجد الخير. لا يمكنك التكهّن بالمستقبل. إذن أطع ربّك وكفّ عن التذمّر والتشكّي.

ثم اختفت مخلِّفةً وراءها رائحة عطرٍ ناعمٍ زكيّ ما خفّف قليلاً من الجوّ الخانق.

لم يعد الملك يأتي على ذكر الموضوع وراح يتصرّف كأن لا أولاد له. وإذا حدث واضطرّ إلى زيارة الملكة لم يكن يسألها عن أخبار الأميرتين. لكن في إحدى الليالي قالت له الملكة إنه يجب تسميتهما.

– عمّن تتحدثين؟

– عن ابنتيك!

– ابنتَي؟ أنا ليس لي أولاد!

في اليوم التالي استدعت الملكة والدها ورجته أن يذبح خروفين مع الحرص على وضعهما في اتّجاه مكّة، للاحتفال بتسمية الفتاتين. وسُمِّيت الأولى "جوهرة" والثانية "جميلة". وجرى الاحتفال بشكل مختصر وقد رفض الملك حضوره. في النهاية، لم يؤخذ باقتراح الجنية بتسمية الأميرة "نور"!

مع الأيّام راحت جوهرة تتفوّه بالمزيد من الحماقات، وكلما تقدّمت في تعلّم الكلام تلاشى جمالها. أما جميلة فكان قبحها يتزايد إنما تزداد ذكاءً وإثارةً لإعجاب مَنْ حولها. إلا أنّها كانت مبتليةً بنوع من حبّ الشباب المبكّر احمَرّ بسببه وجهها كلّه، وقد تقلّصت عيناها لدرجة أنها كانت تخفيهما وراء غلالة صغيرة، كما وكانت تجد صعوبةً في السير بشكلٍ مستقيم. كان جسمها منحنياً دوماً فيصعب عليها الوقوف منتصبة. لكن ما إن تتكلم حتى تأسر سامعيها. كانت مطّلعةً على آخر المكتشفات العلمية وتناقش الحياة السياسية وتروي قصصاً مضحكة ومؤثرة.

كانت الملكة فخورةً بجميلة بقدر ما كانت حانقةً وغاضبةً من غباء جوهرة، متألمةً في الحقيقة بعد أن هجر زوجها مخدعها، إذ توقّعت أن يتخلّى عنها الملك ليتزوج بامرأة أخرى تنجب له الصبيّ الذي يحلم به. ففي ذلك الزمن كان تعدّد الزوجات لا يزال شائعاً خصوصاً عند الملوك الراغبين في إنجاب وريث. ويُروى أن والد

هذا الملك تزوج في الليلة نفسها بأربع نسوة على القدر نفسه من الجمال. وقد ضاجع كلاً منهنّ واعداً بالاحتفاظ بتلك التي تمنحه صبياً. وبعد تسعة أشهر وضعْنَ جميعهنّ صبياناً، فأبقى الأربع وأسكن كلاً منهنّ في قصر. ولتعيين وليّ العهد استقدم حكيماً عجوزاً وطلب نصيحته، فقال له هذا الأخير:

– لا تعيّن أيّاً منهم. قل لهم إنّ الوريث هو مَن يبرهن عن قدرة على الاستماع إلى الناس، وعلى فعل الخير وخدمة الشعب من دون كذب ولا خداع. والولد الذي يتحلّى بهذه الصفات يفرض نفسه تلقائياً ويؤيّده أشقاؤه بشكل طبيعي.

في هذه الأثناء كبر حكيم، الصبي ذو الخصلة، وازداد شكله قبحاً، لكن ذكاءه حقّق المعجزات. لم يُتقِن لغة الحيوانات على غرار الملك سليمان لكنه كان قادراً على رصد أيّ إشارة تصدر عنها وتفسيرها. وهو ما انطبق على البشر الذين استعصى عليهم إخفاء أي شيء عنه إذ كان قادراً على سبر أعمق الأفكار عند الجميع على حدٍّ سواء. فإذا ما انضمّ إلى مجلس أحسّ الناس أنهم منكشفون كلّياً، مفضوحة عيوبهم كما أفكارهم. كانت تكفي نظرةٌ واحدة من حكيم لينكشف أمر الكاذب. وقد خشيه الناس واحترموه. وتحلّى بالتواضع ودماثة الأخلاق من دون أي أحكام مسبقة، وبذل كلّ جهد ليكون موضع محبة الكلّ على السواء.

أمّا مع النساء فكانت الأمور أكثر تعقيداً. فقد تمكّن من إغرائهنّ لكن من دون أن يحظى بهنّ. وتلك هي مأساته التي تكتّم عليها.

وفيما هو يتنزّه يوماً في الغابة التقى جوهرة، الحسناء الغبية. كانت

حزينة ومكتئبة جدّاً، وعلى وشك البكاء في كلّ لحظة. ومن أوّل نظرة أدرك حكيم ذلك فقال لها:

– لا يحقّ لامرأة بهذا الجمال أن تكون حزينةً إلى هذا الحدّ.

– وما نفع الجمال عندما يكون مجرّد حجاب يستر عيوباً فظيعة؟

– يبقى الجمال ميزةً، خصوصاً للمرأة. أنا لست جميلاً ولا أمل لي إطلاقاً بأن أستيقظ ذات يوم لأجد نفسي في جسد بهيّ. وُلِدتُ مشوّهاً وسأبقى كذلك حتى الموت. لكن يجب أنْ نعرف كيف نستفيد ممّا يُثقِل علينا.

مسحت جوهرة دمعةً وقالت متنهّدةً:

– جمالي سطحيّ وحسب. ليتني قبيحة مثلك ولي ذكاؤك.

– هناك في الحياة ما تمنحنا إياه الطبيعة، وهناك ما نفعله بهذه الموهبة لنعيش بشكل أفضل. لقد تقبّلتُ على الفور وضعي وأردت أن أجعل منه ورقة قوة بيدي. أعلم أن الفطنة هبة، لكن كلّما زادت كلّما احتجنا المزيد منها. لقد نمّيت هذا الذكاء الذي وُهِب لي، وطوّرته إلى أن أصبح ميزتي في ما أنا عليه.

– يا لسوء حظّي! فأنا تعيسة لأنني أعلم أنّني محكومة بالغباء...

– إن أردْتِ بإمكاني أن أخلّصك من هذا العذاب. فأنتِ تعين حالتك في حين أن كثيرين لا ينتبهون إلى قصورهم، ويرهقون المجتمع بتعجرفهم الفارغ.

– أتعني إذن أن بإمكانك مساعدتي؟ كيف ستتمكّن من ذلك؟

– لدي القدرة على منح الذكاء. قست عليّ الطبيعة من جهة

وعوّضتني عن عيوبي بالذكاء من جهة أخرى. وعندي من الذكاء أكثر ممّا ينبغي.

– أيمكنك القيام بذلك؟ أن تمنحني بعض الذكاء؟

– نعم، لكن بشرط...

– سيغدق عليك أهلي المال والذهب.

– لا، لست بحاجة لهذا التوافه. الشرط هو أن تتزوجينني.

تراجعت جوهرة خطوةً إلى الوراء وكادت أن تقع أرضاً. ثم تمالكت نفسها كاتمةً ضحكتها.

لم يستغرب حكيم ردّة فعلها، وأضاف قائلاً:

– أمنحك عاماً للتفكير. يجب أن تعتادي فكرة أن تصبحي زوجة أقبح رجل في هذه النواحي. لكنك، في المقابل، ستحصلين على الذكاء وتصبحين أكثر ارتياحاً في المجتمع. سيصبح لجمالك معنى.

راقت الصبيّة فكرة الزواج هذه لكنها كانت بحاجة إلى بعض الوقت لتتخيّل نفسها بين ذراعي هذا الرجل. قالت في نفسها: "طالما هو يتكلم أنجذب إليه، لكن ما إن يتوقف عن الكلام حتى تتراءى لي كلّ شوائبه".

فكّرت ملياً وبحثت الأمر مع شقيقتها التوأم ومع والدتها، وهنا اختلفت الآراء.

قالت الأم بواقعيتها:

– يا ابنتيّ، أسوأ ما تواجهه المرأة هو أن تصبح عانساً، فتتحوّل أشبه ببضاعة غير مرغوبة حتى إن عُرِضت لا تجد من يأخذها. لذا سلّما بأن الرجل رجل، لا داعي أن يكون جميلاً. من المستحسن

أن يكون جميلاً، لكن ليس هذا هو المهمّ. بالنسبة إلى المرأة الأمر مختلف. جمالها مفيد لها، قد يكون أحياناً شرط الزواج.

وأدلت جوهرة برأيها وقد بدأت تكتسب بعض الفطنة:

– نعم يا أمي، الرجل هو رجل.

فعلّقت شقيقتها التوأم:

– لا أكفّ عن التساؤل: أمن الأفضل أن تكون الفتاة جميلة وبلهاء، أم قبيحة وذكية؟ لا أتحدث عن حالتي، فقد سلّمت بها منذ زمنٍ طويل وسأحمل عبء مصيبتي حتى النهاية. إنها الحقيقة، ليس بيدي حيلة وليس بإمكان أحد أن يغيّر شيئاً.

أطلعت الملكة الملك على الأمر، فلم يبدِ رأياً. وبعد فترة قرّرت جوهرة الزواج بحكيم، لكنها قرّرت ألاّ تطلعه فوراً على ذلك مفضّلةً انتظار مرور سنة. وبمجرّد أن قرّرت بينها وبين نفسها أن تقول "نعم" لحكيم أصبحت أقلّ غباوة.

كان تحوّل جوهرة صارخاً. فاضت بالذكاء الذي منحها إياه حكيم. قلّ كلامها لكن القليل الذي تقوله بات له وقعٌ جيّد في الآذان. وقد بات جمالها الجسدي متساوقاً مع كلامها. لم تكد الملكة تصدّق هذا التغيير، فيما انبهر الملك بابنته، ولأوّل مرّة عانقها وقال لها إنّه يحبها. وراح شباب القصر يغازلونها وينظّمون مباريات في المناظرات الخطابية لاستمالتها. عندما كانت تنظر إلى نفسها في المرآة كانت تدرك كم أن الجمال الجسدي مخادع. لم تعد تتبرَّج وباتت تعتمد على ذكائها، الذي أصبح خصباً ومتألقاً، لتحظى بإعجاب كلّ محيطها.

في غضون ذلك الوقت كان حكيم ينتظرها.

وفي حالة من السعادة قرّرت في أحد الأيام التنزّه في الغابة المجاورة للقصر. كانت تحلم وتتخيّل نفسها في مكانٍ آخر، في عالمٍ آخر، محاطةً بأناس أذكياء ومتحضّرين. وفيما هي تمشي سمعت أصواتاً تقول:

"أعطني هذه القِدْر..."

"اجلب الدست..."

"أشعل النار..."

توقّفت ونظرت حولها ثمّ، إذ خفضت رأسها، رأت الأرض تنشقّ عند رجليها. لم تخَفْ بل، بالعكس، اغتبطت بهذه المعجزة التي تحصل أمامها، إذ شاهدت منزلاً كبيراً ينشط فيه كثيرٌ من الناس. زاد استغرابها وتقدّمت لتجد نفسها وجهاً لوجه مع حكيم:

– صديقتي العزيزة، اليوم مضت سنة تماماً على العرض الذي قدّمته لك. فماذا قرّرتِ؟

تظاهرت بالتردّد، وقد باتت تعرف أنه لا يجب الاستسلام فوراً للرجل. حتماً فعل الذكاء فعله...

– لم أقرّر بعد. صحيح أن هبتك غيّرت حياتي، لكن كلّما أمعنت في التفكير كلّما صعب عليّ اتّخاذ قرار.

– حيَّرتِني يا صديقتي العزيزة! إن كنتُ قد غيّرت حياتك فلكي أحظى برضاك، فلنسِرْ معاً صوب النقطة نفسها عند الأفق، كي أتشارك معك كلّ ما يجعل الحياة محتملةً وجميلةً ورائعة. لقد صبرت وانتظرت انقضاء العام. راودتني أحلام، تخيّلت مشاريع

تلعبين فيها الدور الرئيسي. وضعت خططاً لحياتنا المشتركة. راهنت على فطنتك الجديدة. إذاً، ماذا قرّرتِ؟ لن تجعليني أتألم، أليس كذلك؟ تكلّمي، لقد استعددتُ لكلّ شيء. أنا مستعدّ لسماع كلّ شيء، لمواجهة كلّ شيء!

بعد لحظة تفكير قالت جوهرة:

– من قبل، كنت غبية ولم أرِد الزواج بك. لقد أعماني غبائي. لكن الآن، وقد اكتسبت الذكاء والبصيرة، كيف تريدني أن أتزوّج شخصاً مثلك؟

– هل ستجعليني أندم على ما فعلته لأجلك؟

مالت برأسها وقد أحسّت بالخجل:

– عندما أزَلْتَ عيبي الأساسي، فتّحت عينَيّ، لدرجة أنّي بتُّ أرى بوضوح تام ما كان غبائي يمنعني من رؤيته.

تسرّب الشكّ إلى نفس حكيم، وأحسّ أنه أمام معضلة، وهذا ما لم يحصل له منذ زمنٍ طويل. فقال في نفسه: "لقد نصبت فخّاً لنفسي بنفسي، كالغبي"، ثمّ طلب من جوهرة أن تعطيه ذراعها ليتمشّيا في الغابة. تردّدت لحظة ثمّ مدّت له ذراعها.

– قولي لي، يا صديقتي العزيزة، هل تشعرين بالتعاسة إزاء ذكائي وروحي المرحة وفكري المنفتح والسمِح؟ هل أن فكرة ارتباطك برجل لا يتطابق مع النموذج الذكري تزعجك إلى هذا الحدّ؟

وإذ لزمت جوهرة الجميلة الصمت، قرّر حكيم أن يشرح لها سبب ولادته مع هذه الخصلة وهذه الحدبة:

– كان يُفترض بوالدي أن يتزوج بنسيبةٍ له مشهورة بجمالها

وطيبتها. طلبت والدته يدها، وكما هو معهود لم يتقابل العروسان قبل ليلة الزفاف. وكانت نسيبته تُدعى حَسْنة، ولها شقيقة كبرى قبيحة جداً وبلهاء لم يوفَّق الأهل إلى تزويجها. لذا، عشية ليلة زفاف والدي سلّموه الشقيقة الكبرى! عندما اكتشف والدي الخديعة كان الأوان قد فات، لأنّه فضّ بكارتها، فسكت عن الأمر ولم يُثِر فضيحة. وأنا ابنه الوحيد، ورثت عن أمّي قبحها وعن والدي ذكاءه واستقامته. تلك هي قصتي.

توقّفا وبدت جوهرة حزينةً ومنفعلة، واعترفت له بأنها تحبّ كلّ شيء فيه، ثم سكتت. ابتسم حكيم وأخذ يدها وقبّلها:

– إن تزوّجنا أعرف أنك ستجعلينني أشدّ الرجال جاذبية.

– لكن كيف ذلك؟

– الجنية نفسها التي منحتني القدرة على خلع الذكاء على من أريد، منحتك أيضاً القدرة على إضفاء الجمال على الشخص الذي تحبينه!

– أن أحبّك...

كرّرت هاتين الكلمتين، ثمّ اتكأت على ذراع حكيم ووشوشته:

– لقد ربحت! سأجعل منك أجمل أمير في العالم!

وفجأةً ضاءت الغابة وانشقّت أمام حكيم وجوهرة طريقٌ من نور. خُيّل للمرأة أنها ترى ملائكةً تُحوِّم فوق رأسيهما، وتهادت إلى مسمعها موسيقى ذات لحنٍ آسر. وكلّما تقدما كان شكل حكيم يتغيّر في نظرها. ازداد طولاً بضعة سنتيمترات إلى أن أصبح أطول من زوجته العتيدة بقليل. وإذ استقام جسمه اختفت حدبته ولم تعد

عيناه فجوتين غائرتين. اتّخذ أنفه جحماً طبيعياً وزالت في الوقت نفسه تلك الخصلة التي كانت تزيد جداً من بشاعته.

هكذا باتت الأميرة تراه. لم يتغيّر شيء في شكل حكيم الخارجي، لكن الحبّ يحوّل الحَجر تفاحةً والشتيمة إطراءً.

ساور جوهرة الشكّ إذ تساءلت ما إن كانت هذه العملية التجميلية ستجعله غبيّاً. قرأ حكيم أفكارها وطمأنها قائلاً:

– جمالي رهنٌ بك، كما أن ذكاءك رهنٌ بي. طالما تحبينني تريننني جميلاً. الأمر إذاً يعتمد عليك. لقد خُلقنا لنلتقي ونتكامل. هذا هو الحبّ!

– نعم يا أميري، نحن الآن مرتبطان مدى الحياة!

أضاف أن الناس يخلطون الجمال والطيبة، والقبح والشرّ. الأمور لا تُحدَّد بهذا الشكل. كلّ شيء رهنٌ بخامة النفس. ثم ضحك وقال لها:

– يمكن المرء أن يكون غبياً وشريراً، دنيئاً وذكياً، جميلاً ولصّاً، بشعاً ودمثاً...

ثم روى لها قصة أحدبٍ فقير، بشع مثل كراكومودي، رأى فتاةً شابة تمشي على حافة نهر، وكادت أن تنزلق وتغرق فسارع إليها وسحبها نحوه كي تتمكن من السير على اليابسة. وإذ رأى بعض المارّة المشهد أوقفوه وأبرحوه ضرباً وشتموه متّهمينه بأنه أراد استغلال الفتاة. لقد قُرنت بشاعته بالشرّ!

اعترفت جوهرة بأنها هي نفسها كان عندها هذا الحكم المسبق، وذكرت المثل القائل: "من الأفضل أن يكون المرء جميلاً وبصحة

جيدة، لا فقيراً وبشعاً ومريضاً". وعلى ذلك ردّ حكيم بالقول: "لا أحد يختار مظهره".

في اليوم التالي أطلعت والدها على قرارها، فأصدر الملك أمراً بإقامة حفل زفاف كبير.

لم تكن عينا جوهرة لتريا في حكيم سوى الجمال والصفات الحسنة، ولم تتورّع عن الاستهزاء بما كان يراه فيه الآخرون. كانت تحبّ زوجها وهذا الأهمّ في نظرها. وأكثر ما أحبَّت هو أوقات النقاش الطويلة التي ساعدتها على التخلّص من قناعاتها وأفكارها المسبقة.

أنجبا الكثير من الأولاد، وكلّهم جميلون وأذكياء. وبعد زمن طويل، عندما أصبحت جوهرة جدّة، كانت تحبّ أن تروي لأحفادها قصة أميرة جميلة وغبية، ازدادت، بفضل الحبّ، جمالاً واكتسبت الكثير من الذكاء. واستنبطت من هذه القصة العبرة التالية: إياكم والمظاهر، الجمال غشاء النفس وهو لا يعني دائماً الطيبة والفضيلة.

٨

الإبهام الصغير

كان ما كان في قديم الزمان حطّاب وحطّابة يعملان بشقّ النفس لتأمين لقمة عيشهما. كانا فقيرين لدرجة أنهما كانا يقتاتان أحياناً بما يرميه الجيران من فضلات الطعام. كان لهما سبعة أولاد تتراوح أعمارهم بين سبع وعشر سنوات. فلثلاث مرّات متتالية وضعت المرأة توائم. أما الولد الأخير فولد منفرداً. لكنه بخلاف الآخرين كان هزيلاً وقصير القامة، لا يبتسم وبنوع خاص لا يصرخ. حتى ليُخيّل لمن يراه أنه يسمع بعينيه الصغيرتين الغريبتين، عينين مشدودتين كعينَيّ آسيويّ.

كان صغير الحجم لدرجة أنّ والده سماه "الإبهام الصغير" لأنه بدا له بحجم هذه الإصبع. وهو ما اعتبرته العائلة نذير شؤم خصوصاً أنهم في تلك الفترة انتقلوا من الفقر إلى الضيق الشديد. كانت ولادة الإبهام الصغير إذاً أشبه بمأساة أو لعنة لم يجد الوالدان تفسيراً لها. اعتبرا أنهما مصابان بشقاءين: أفواه كثيرة يجب إطعامها وولد يحمل

المشاكل. قالت لهم الولّادة:

– ليس هذا الصبي طبيعياً. إنه منغولي لأن عينيه مشدودتان، وسيكون ذكاؤه ضعيفاً. وهو في الوقت نفسه هبة من الله. عليكم حمايته لأنه سيحميكم.

منذ ذلك اليوم صار والده يناديه أحياناً "الإبهام الصغير" وأحياناً أخرى "الصيني". وأول كلمة تلفَّظ بها: "مْـ...غولي، مْـ...غولي".

عرف بعض الجيران بوضعهما وصاروا يضعون خفيةً الطعام قدّام بابهما، خشية أن يجرحوا مشاعرهما بالتصدَّق مباشرةً عليهما. لكن الجميع كان على علم أن عندهما الكثير من الأولاد ويتساءلون كيف يتدبّران أمرهما لإطعامهم.

لم يكترث الإبهام الصغير بتهكّمات أشقائه. كان يصمت، ويبتسم أحياناً، وهي طريقته في التعبير عن طيبته ولامبالاته. لكن كلّما تصرّف بطيبة كلّما أساؤوا معاملته. كانوا إلى مائدة الطعام يعطونه أصغر حصّة، ويتجاهلون حتى إطلاعه على توفّر شيء ما للأكل. لم يحقد على أحد منهم ولاذ بالصمت والعزلة. وفي أحد الأيام قالت امرأة لوالدته التي التقتها في الحمّام:

– إنه ابن الشيطان، من الأفضل إبعاده عن أخوته. الولد غير الطبيعي هو دوماً مصدر مشاكل.

في الواقع كان الإبهام الصغير ذكياً. ولأنّ عينيه مشدودتان وصغيرتان وغائرتان، لم يكن فيهما أي إشراق، علماً أن هذا الصبي غير المحبوب والذي يلقى سوء المعاملة كان يعرف كم أنّ حياة أهله صعبة. وقد استشعر، حتى وإن لم يبح بذلك، أن والديه سيرتكبان

عاجلاً أم آجلاً عملاً سيّئاً. حدس بذلك من دون أن يعرف تحديداً ما الذي ينوون فعله للخروج من حالة الفقر المدقِع هذه. فقلبه كان دليله وهو أسرع من الجميع في فهم كل ما يجري، وهذا هو سرّه.

في ذلك الزمن، إذا اعتُبِر أحد الأولاد غير طبيعي واختلفت ردّات فعله عن الآخرين، وخصوصاً إذا تأخر في النطق، كان يُستبعد من العائلة، إذ يخجلون به فيخفونه أو، أسوأ من ذلك، يرمونه في أقرب بئر. أمّا والداه اللذان كانا يخافان الله فصارا يأخذانه إلى أحد مزارات الأولياء ويتركانه هناك بضع ليالٍ مربوطاً إلى شجرة على أمل أن يخرج الشرّ منه. لكن الإبهام الصغير تمتّع بحاسة سادسة تحميه من مصيبة من هذا النوع. كان متنبّهاً ومتيقّظاً، فصحيح أنّ مظهره الخارجي لا يسعفه إلاّ أن قلبه وذهنه كانا ينقذانه.

في إحدى الليالي، وإذ غفا الأولاد جميعاً ما عدا الإبهام الصغير، صارح الزوج زوجته بعزمه على التخلّص من أولادهما. فتظاهر الإبهام الصغير بأنّه غارق في النوم وتابع الحديث باهتمام كبير. لم يفاجئه الأمر، بل ارتعد من الخوف، لكنه بدأ التفكير في حلّ.

قال الأب:

– لم أعد قادراً، لا يمكنني أن أؤمّن ما يكفي لسدّ جوع هؤلاء الأولاد السبعة. قد نتحمّل نحن الاثنان الجوع، لكنّ أولادنا ضعفاء، هم بحاجة إلى حليب وخبز يومياً. أعرف جيداً أنّ ما سأقوم به أمرٌ مُدان وأعلم أن أهلنا ما كانوا ليفعلوا ذلك إطلاقاً. أرواح أجدادنا لن تسامحنا أبداً. لكن ما العمل عندما نرى أولادنا يموتون جوعاً؟ ما العمل عندما نكون عاجزين ويسقط في أيدينا؟ ثم إن ولادة

"المنغولي" إشارة من النجوم على أنه يجب إيداعم فوراً في الغابة.

فردّت الأم:

– ما تقوله يقلقني. هل تذكر أنّ ربّنا لن يغفر لنا أبداً؟ كيف أترك فلذات كبدي في الغابة وأرميهم فريسةً للذئاب والحيوانات المفترسة؟

زاد الوالد اضطراباً وقال:

– أنا أيضاً أفضّل الموت على أن أترك فلذات كبدي يموتون جوعاً. على الأقلّ إذا تركناهم في الغابة قد يجدهم رجلَ برٍّ فيأويهم وينقذهم من البؤس. وقد يجدون بأنفسهم ما يأكلونه، فالجوع سيدفعهم إلى الدفاع عن أنفسهم للبقاء على قيد الحياة. أنا لم أنجح في ذلك. إنني أشعر بالخجل، الخجل الشديد...

وراح يبكي، وكذلك زوجته. ناما متعانقين من دون أن تجفّ دموعهما. فرأيا في منامهما ملاكاً متّشحاً كله بالأسود يدور حولهما وهو يهدّدهما بأشد عقاب:

– من يتخلَّ عن ولدٍ له يتخلَّ عنه القدر بدوره! ومن يؤذِ ولداً يمُت في عذابٍ شديد!

استيقظ الإبهام الصغير في الصباح الباكر وخرج من دون أن يثير ضجّة فلم يتنبّه أحد إلى غيابه. قصد الغابة المفضية إلى البحر. قادته خطواته إلى هذا المكان من دون أن يعرف السبب. كان مقتنعاً أن عنده مهمّة يُنجزها، وهي إفشال خطّة أهله وإنقاذ إخوته.

في الطريق، التقى في مكانٍ مكشوف من الغابة عجوزاً يُطعم عصافير من مختلف الألوان. كان الرجل يكلّمها فيما يسحب من

كيس معه حبوب قمح وذُرة ويرميها لها. عندما رأى الإبهام الصغير لم يقل له أي كلمة، وقدّم له قطعة خبز ساخنة محشوّة بقطع دجاج فأكلها بنهم وشكر الرجل العجوز. وإذ تحرّك مغادراً سمع صوتاً يقول له:

– أين تذهب؟ قد تضيع في المكان.

– أنا هنا لأستدلّ على الأماكن المعتمة حيث ينوي أهلي رمي أولادهم.

– هم ليسوا أهلاً، إنهم وحوش.

– أعرف، لكنهم أهلي، ولا يمكنني التقليل من احترامهم. كثيراً ما سمعت أنه يجب محبّة الأهل ومعلّمي المدرسة إذ يقال: "احفظ جميل من وهبك الحياة ومن علّمك القراءة والكتابة".

أعطاه العجوز كيساً مملوءاً بأصداف متنوّعة الأشكال:

– خذْ، إليك هذه الأجسام البحرية الرائعة. إفعل بها ما تشاء، وإن أحببت سماع صوت البحر ضع أذنك على الصدفة الكبرى بينها فتعرف ما يرويه لك البحر.

شكره الإبهام الصغير مقبّلاً يده كما يفعل مع والده، وذهب مفتّشاً عن طريق العودة.

قاد خطاه شعاعٌ من نور. فتّش في الكيس وأخرج منه أكبر صدفة وألصقها بأذنه، فسمع هدير الأمواج وخشخشة الزبد وصوت تكسّر المياه على الصخور. بعد قليل استند قليلاً على جذع شجرة، وإذ جلس سمع صوتاً من بعيد يقول له:

– قريباً يصبح قمرنا بدراً ويرسل ضوءه على الأرض والبحر، يفسد

نظام الأمواج ويحرم البشر النوم. عندها، أنت الولد المختلف، أنت غير المحبوب، أنت المفعم بالحبّ والطيبة، كن واثقاً بأنّك سوف تنقذ أشقاءك، وتؤمّن لهم ما كانوا هم سيمتنعون عن تأمينه لك. هذه هي الحقيقة. أنت أكبر من النميمة. أنت أمير. لا تنسَ ذلك...

تبع تلك الكلمات صوت موسيقى. ونهض الإبهام الصغير وتابع سيره. وبوصوله إلى المنزل رأى والديه وأشقاءه يتّجهون نحو الغابة، فحنى رأسه وانضمّ إليهم من دون أن يفوه بكلمة. وراح يلقي، كلّ عشرة أمتار، صدفةً على الأرض، وقد تميّز بعضها بألوان فوسفوريّة برّاقة تلتمع من بعيد.

كان الوالد يمشي في المقدّمة، وعندما وصلوا إلى مدخل الغابة قال:

– سنجمع الحطب ونجعله حزماً نبيعها في القرية. هيا إلى العمل، لا نضيّعنّ دقيقة واحدة. سيروا إلى الأمام، وعلى الأخص لا تستديروا أبداً لتروا ما يجري وراءكم!

أطاع الأولاد وجمعوا الكثير من الحطب، وعند انتهائهم كان الوالدان قد اختفيا. بحثوا عنهما ونادوهما، فلم يأتهم أي جواب سوى صدى صراخهم. وقف الإبهام الصغير على انفراد منتظراً أن يزول وقع المفاجأة. وفجأةً خيّم الصمت على المكان. تبادل الأولاد النظرات، بعضهم بكى، وبعضهم صمت مخبولاً. ظنّوا أنّ والديهما يلعبان معهم لعبة الاختباء وانتظروا أن يكشفا عن نفسيهما.

كان الإبهام الصغير قد احتفظ بقطعة خبز بالدجاج، فأخرجها من كيسه وقسّمها سبع حصص، ولاحظ أن الخبزة تضخّمت فأكل

منها الجميع حتى شبعوا. فإذا الأخ البكر، الذي كان يسخر دوماً من الإبهام الصغير، يشعر بتبكيت الضمير:

– سامحني، لقد كنت شريراً، لقد كنّا جميعنا سيئين معك. لكنك تعرف، المشكلة أنك لست كالآخرين. أما اليوم فأنا ألمس أنك أفضل منا كلنا معاً. أنت سِمحٌ وطيّب القلب.

ومن دون أي تعليق أشار عليهم بأن يتبعوه:

– سأعيدكم إلى المنزل، يكفي أن نتبع هذه الأصداف البرّاقة.

راحوا يتقدّمون ويلمّون في طريقهم تلك الأشياء الرائعة. وعند خروجهم من الغابة رقصوا وغنّوا. ووضع الابهام الصغير الصدفة الكبيرة على أذنه فسمع صوتاً يقول:

– دراهم... دراهم...

فهم من ذلك أن مالاً قد دخل المنزل. وبالفعل كان الشيخ أحمد، سيّد القرية، قد أرسل لهم الدراهم العشرة التي كان يدين بها لهم، ومعها دجاج وشرائح لحم كبيرة وأطباق فاكهة مجففة ومَراطبين عسل صافٍ وبعض الفاكهة الموسمية. كان هناك ما يكفي لإطعام قبيلةٍ بأسرها.

وصل الأولاد قرب المنزل وعلى رأسهم الإبهام الصغير، فأشار عليهم بالتوقف للتنصُّت على ما يتحدّث به والداهم. فإذا دهشة الوالدين وفرحتهما تتحولان بسرعة شجاراً. سمعوا الأب يتجشأ ويشكر الله على تلك النعم. لكنه بين جشأتين تساءل ملاحظاً:

– أين هم أولادي الآن؟

ازدادت الأمّ غضباً ولم تلبث أن انقضّت على زوجها وانتزعت

من يده فخذ دجاج كان يأكله:

– يا لك من وحشٍ أناني، لا تجيد إلا الأكل، الأكل والتجشّؤ كالخنزير. في الحقيقة، أنت خنزير، فاقد الإنسانيّة، لا تفكّر إلا بنفسك وقد جلبت العار على قبيلتنا. أتتخيّل ما كان ليقوله والدك أو جدّك لو علموا أنك رميت أولادك في ظلمات الغابة؟

مسح الزوج فمه بكمّ جلبابه، تجشأ مجدّداً ونهض عازماً بقوة على ضرب زوجته. التقط حطبة ضخمة ورماها عليها، لكنها تفادتها وصرخت بكامل قواها:

– أولادي، أين أولادي؟ إلهي! آه يا إلهي! أطلب منك الغفران، أرجعهم إليّ!

عندها شقّت صاعقةٌ كبد السماء، ثمّ برقت وأرعدت. ارتجّ المنزل وبعد لحظة سُمع صوت طلب نجدة:

– أمي، نحن هنا، لقد عدنا، افتحي لنا من فضلك. أمّي، نحن أولادك، لقد أفلتنا من الغابة ونجونا من الذئاب والغيلان!

لم يصدّق الأب ما يسمع فقال:

– هذا مستحيل. أنا أهذي.

إلا أنه فتح الباب فدخل الأولاد السبعة وقد أنهكهم التعب وهزِلوا، وانهاروا على الأرض من شدّة الإرهاق.

اختلت الأم بنفسها في إحدى الغرف وراحت تصلّي لله الذي استجاب دعاءها. ثمّ أعدّت لهم عشاءً طيّباً.

عندما فاجأها الزوج وهي تصلّي انفجر بالضحك وقال لها:

– أتعتقدين أن لا شغل لله سوى تلبية طلباتك؟ ليس الله من أعادهم.

إنه الشيطان الذي يريد أن يخضعنا مجدَّداً للتجربة.

أكل الأولاد وناموا على الفور. في اليوم التالي لم يتبقَّ أي طعام، ولا حتى فتات خبز. فقد مرّت الكلاب والهررة بالمكان ونظّفت الردهة من كل شيء. وفي أواخر النهار عاودهم الجوع وسُمع الأب يقول:

– معدتي لا تحتمل الخواء. إنها تحتجّ بأصوات حادّة.

فأجابته الأم:

– لو كنت رجلاً وأباً جديراً بهذا الإسم لما قبعت هنا متشكّياً؛ لكنت أحسست بالخجل من نفسك وخرجت بسرعة لإيجاد أي عمل لإطعام عائلتك، لكنك مجرّد شخص أناني!

وباشرت الأم التفتيش عن عمل. كانت مستعدّة لتنظيف ردهات المنازل الكبيرة وغسل ثياب الآخرين أو القيام بأي عمل لإطعام أولادها. في هذه الأثناء، أيقظهم الأب قائلاً:

– هذه المرة، علينا السير لفترةٍ أطول كي نجد طعاماً. اتبعوني.

كان الإبهام الصغير قد خرج من المنزل بعد أن لاحظ غياب والدته، وإذ لم يجدها عاد أدراجه فوجد باب المنزل مقفلاً بالمفتاح، فأدرك أنّ والده قد قرّر مجدداً تضليل الأولاد في الغابة. ترقّب قليلاً، ثمّ أعطته جارة لهم قطعة خبز كبيرة وأبلغته أن العائلة بأكملها غادرت منذ الصباح الباكر. كان الخبز شهيّاً فأكل ربع القطعة وبكل حرص احتفظ بالباقي داخل قلنسوته وانطلق للبحث عن أشقائه. وبدلاً من رمي الحصى أو الصدف استعمل قطعة الخبز ليحدّد معالم الطريق. مشى ولم ينتبه إلى أنه يبتعد أكثر فأكثر عن المنزل. وعندما قرّر العودة

أدراجه لم يجد قطع الخبز التي رماها وراءه، فقد أكلتها العصافير والحيوانات الأخرى. ولم يلبث أن هبط الليلة وارتعب وسط الظلمة الشديدة. خاف من الظلام ومن المجهول ومن الصمت ومن أدنى صوت في الغابة، وراح يرتجف وأحسّ أن حرارته ترتفع. بكلّ بساطة، تاه فعلاً هذه المرّة.

ألهمه حدسه بالتوقّف وانتظار نهاية الليل. بدأ المطر ينهمر فيما الهواء يعصف بقوة وعنف بالأشجار الضخمة. شبّه الإبهام الصغير نفسه بحبّة رمل، بورقة يابسة، بحصاة مدفونة تحت التراب. تعطّل تفكيره واشتدّ خوفه ضاغطاً على عنقه ومعدته. يغمض عينيه فيرى وحوشاً وحيوانات برأسين وأفاعٍ طائرة وأسراباً من الوطاويط وعناكب عملاقة تحيك شباكها حوله وأشجاراً تنحني لتسحقه. دفعته غريزة البقاء إلى تسلّق إحداها، فالتفّ على نفسه فوق غصن كبير أمكنه منه مراقبة كلّ ما يحدث ما وراء الغابة. لكنّه كان منهكاً لدرجة أنه غفا على الفور. لم يرَ لا حلماً ولا كابوساً، واستيقظ بعد قليل فشاهد ضوءاً صغيراً يتلألأ في البعيد. كان ضوء منزل يتصاعد منه الدخان. فقال في نفسه: "حتماً هناك أشخاص يسكنون هذا البيت. سأقصده وأنقذ نفسي!".

مع الفجر سلك الطريق، وعندما وصل أمام المنزل انتابه إحساس داخلي وارتياب: "عادةً أرى بقلبي، وأنا هنا لا أرى شيئاً. قد يكون هذا المنزل فخّاً. حتى أنه قد لا يكون موجوداً، وقد أكون ضحية هذياني... أنا ضائع، ضائع... لا أرى سوى السواد ولم أعد أميّز أي شيء محدّد".

وفيما هو يكرّر تلك الكلمات سمع صوت امرأة يكلّمه:

– أهلاً وسهلاً بك أيها الصغير! أشقاؤك هنا، ينتظرونك! تعال، لا تخف. إنه مجرّد منزل صغير يسكنه زوجي الغول. غول ليس كالغيلان! هو رائع لا يقتات إلا بلحم الأولاد الطازج. اقترب، ادخل... لكن من أنت؟ لست كالآخرين! من أين تأتي؟ لماذا عيناك صغيرتان إلى هذا الحدّ وعلى شكلّ خطّ؟

فقال لها الإبهام الصغير:

– أنا آتٍ من بعيد، من مكان لا تغيب فيه الشمس أبداً ولا تنضب فيه ينابيع الماء. من مكان الرجل فيه ذئب والمرأة شيطانة. إن دنوتِ منّي تُصابي بمكروهٍ كبير.

تراجعت المرأة وصرخت:

– الشيطان هنا!

كان الأولاد مقيّدين ويبكون بصمت، وظهر عليهم الغول، لم يكن كبيراً ولا صغيراً، لا وحشاً مرعباً ولا حيواناً مسخاً. رجلٌ عاديّ، لا يكاد يلفت الانتباه. بدين ويبدو كربٍّ عائلة طيّب. لا شيء في شكله الخارجي يوحي بأنه مِن أَكَلة الأولاد.

أدرك الإبهام الصغير فوراً أن ليس بالضرورة أن يكون الغول مسخاً ليكون مفترساً. فالجمال والطيبة، كالشرّ والبشاعة، ليسا متلازمين دوماً. قد يكون المرء جميلاً ويتصرّف كالمجرم. ثمّ تأمّل هذا الغول وتساءل عن مكمن الشرّ فيه.

صرخ الغول بزوجته: "يا امرأة! أطعمي هؤلاء الصغار، يجب تسمينهم! أنا أحسّ بشهية غول!"، وقهقه بعدها بصوتٍ عالٍ ضحكةً

صاخبةً وثقيلةً جداً، فانبعثت من فمه رائحة كريهة ملأت الغرفة. كان هذا الرجل أسوأ من الحيوان.

رمت على الأرض أمامهم عصيدةً رديئة من حبوب الشمار اليونانية التي تستعمل لزيادة الوزن، وفيها أيضاً بضع قطع من اللحم الفاسد. أكل الأولاد كما لو كانوا حيوانات. واستغلّ الإبهام الصغير ذلك ليهمس في أذن أحد أشقائه أنّ لديه خطّة لإخراجهم من هنا وأن عليهم بالصبر والصمت.

كان للغول سبع بنات قبيحات جدّاً، حتى ليمكن القول إن الطبيعة انتقمت عبرهنّ. وكلّما ارتكب والدهنّ المزيد من الجرائم زادت بشاعتهن. تفوح منهنّ رائحةٌ نتنة ولهنّ أسنانٌ طويلة ومروّسة، وكنّ شرّيرات بحقّ بعضهنّ البعض ويضربن أمهن، وإذا ما واجهن أولاداً آخرين انقضضن عليهم يمصصن دماءهم. كان والدهنّ يحبهن لدرجة العبادة وينظر إليهنّ كما لو أنهنّ أميرات جميلات وذكيات ورائعات. كان يغمرهنّ بالمجوهرات فيَنَمن وعلى رأس كلّ واحدة منهنّ تاجٌ من الذهب.

في منتصف الليل، سرق الإبهام الصغير تلك التيجان واستبدلها بقلنسوات أشقائه. عاد لينام وهو يتخيّل ما سيلي ذلك من هلع. لم ينتظر المجزرة التي كان الغول على وشك ارتكابها، فأيقظ أشقّاءه وأشار عليهم بعدم إحداث أي صوت. غادروا المنزل على رؤوس أصابعهم ولم ينتبه أحد لهروبهم. مشى الإبهام الصغير في الطليعة بخطى حثيثة للابتعاد عن منزل الشؤم هذا.

في غضون ذلك ذبح الغول بناته السبع على أنهنّ الفتيان التائهون،

وعندما انتبه للخطأ الذي ارتكبه بدأ يصرخ بكل قواه إلى أن أيقظ القرية بأكملها. ملأت الدماء المكان وخدشت الأمّ وجهها مرّةً تلو الأخرى كأنما تعاقب نفسها على عدم تيقّظها. وراح الزوج يرغي ويزبد ويقسم على تقطيع الصبيان الذين احتالوا عليه إرباً. ثم راحت الأم تلطم صدرها إلى أن سقطت مغمياً عليها حيث ما زال الدم حارّاً على الأرض. سمعت بشكل مبهم زوجها يسأل عن جزمة الألف ميل القفّازة ليلحق بالأولاد. لكنها كانت عاجزة عن التصرّف وعندما استعادت وعيها كانت ملطّخةً بالدماء لا تعرف أدمها هو أم دم بناتها. ازداد الغول وحشيةً وترك زوجته في حزنها الكبير وانتعل جزمته الشهيرة وانطلق مزمجراً.

ابتعد الإبهام الصغير وأشقاؤه لكن هذا لا يعني أنهم باتوا في منأى عن الخطر، وقرّروا الاختباء في ما يشبه المغارة تحت صخرة. وجلس الغول اليائس والمنهك على هذه الصخرة، وراح يشحذ سكاكينه الكثيرة محدّثاً نفسه:

"بخسارتي بناتي قد أخسر قواي. يجب أن أثأر لهنّ قبل مغيب الشمس وإلاّ أصبحت لا شيء. لن يبقى أمامي سوى أن أقتل نفسي أو أن أتحوّل دبّاً شريراً. كانت بناتي السبع رأسمالي من أجلهنّ أعيش وأقتل. الآن وقد غِبْن عن هذا العالم سوف أموت. لكن قبل ذلك سأقتل هؤلاء اللقطاء الذين أذلّوني. سيكون ثأري عظيماً".

سمع الإبهام الصغير وأشقاؤه كلّ ذلك وارتعدوا كلهم خوفاً. لكن فجأةً خيّم صمتٌ عميق تبعه شخيرٌ قوي كصوت الرعد، هو الغول قد غفا. خرج الإبهام الصغير زحفاً ورأى أن الغول لم يعد خطراً بعد أن

غرق في هذا السبات المفاجئ. رمى حصاةً عليه فلم تصدر منه أيّ ردّة فعل، فعاد إلى المغارة وأشار على أشقائه أن يتبعوه. كان عليهم سحب جزمته الضخمة من رجليه، توزّعوا المهمّة وشدّوا بكلّ قواهم وتوصّلوا إلى نزع هاتين الآلتين اللّتين كانتا تسمحان له بالانتقال إلى أبعد ما يمكن بأقصى سرعة.

في تلك اللحظة بالذات ظهر جنّيٌّ نصفه إنسان ونصفه حصان، نحيف وأصيل، ضاحك النظرات ممدود اليدين. فوجئ الإبهام الصغير، وارتاب في الأمر أولاً، ثم دنا من الجنّي وسأله:

– من أرسلك؟

– سؤال في غير محلّه! ما همّ من أرسلني! أنا هنا في مهمّة لمساعدتك على الخروج من هذه الورطة.

– ماذا تقترح؟

– حسناً فعلتم بنزع جزمته. أعطني إياها، سأتلفها، وعندما يستيقظ لن يتمكن من انتعالها والركض. أقترح عليك امتطاء هذا البساط السحري الذي سيقودك حيث تشاء.

وكما في ألعاب الخفّة طَقَّ الجنّي بإصبعيه فظهر بساطٌ رائع.

طلب الإبهام الصغير من أشقائه الاختباء مجدّداً في المغارة وجلس على البساط الذي انطلق بسرعة مذهلة. وقف الجنّي عند مدخل المغارة وراح يعزف على الناي. أما الغول فكان يتقلّب في نومه وقد اشتدّ شخيره.

وما هي حتى أوصل البساط الإبهام الصغير أمام منزل الغول حيث وجد زوجته تبكي. كانت تمزّق ثيابها وتضرب رأسها بالحائط.

– يا سيدتي! زوجك في خطرٍ كبير. لقد أرسلني لأطلب منك أن تبعثي له معي كلّ ما تملكون من ذهب ومال، وإلاّ فإنّ اللصوص الذين يأسرونه مقيّد اليدين والرجلين سيقطّعونه إرباً. الوضع في غاية الخطورة. وما أنا إلا رسول، لكنّ اللصوص قبضوا على إخوتي وهم أيضاً في خطرٍ كبير.

– كيف وصلت إلى هنا؟

– بعد أن جرّده اللصوص من جزمته أعطوني هذا البساط الطائر.

لم تقتنع المرأة بما قال، فجعل الإبهام الصغير يبكي ليبرهن لها أنه يقول الحقيقة. لكنها ألحفت في السؤال:

– أيريد اللصوص كلّ ما نملك من ذهب ومال؟

– نعم سيدتي. كلّ شيء. يجب أن تسرعي لأنهم سيذبحونه عند هبوط الظلام. الوقت يداهمنا، كما أن البساط لا يطير إلا على الضوء الطبيعي.

نظرت إلى السماء، لم تكن الشمس بعيدةً جداً عن الأفق، ستغيب بعد أقلّ من ساعة. ثم عادت تحقّق معه:

– أعطني دليلاً. قل لي أين يوجد الذهب والمال؟

فكّر الإبهام الصغير برهةً فسمع مَنْ يهمس في أذنه: "... في مقبرة أهله"، هو الجنّي أملى عليه الجواب.

– قال لي إن الذهب والمال في مقبرة أهله.

فردّت المرأة عندها:

– هذه المرّة أصدّقك.

وذهبت وراء المنزل حيث نبشت كيسَيْ خَيْشٍ وسلّمتهما للإبهام

الصغير. وقبل جلوسه على البساط سألته لماذا عيناه مشدودتان؟

– لأنني صيني يا سيدتي.

طار ووصل في غضون دقائق حيث كان أشقاؤه في انتظاره. وجد أن الغول ما زال نائماً فيما اختفى الجنّي. فجلس الأولاد السبعة على البساط الذي نقلهم بقوة الهواء والضوء إلى منزل أهلهم.

وضع الإبهام الصغير أمام والدته الكيسين المليئين بالمال والذهب وقال لها:

– لقد ولّى زمن المجاعة والفقر. أُسلِّمك هذه الثروة، لكن بالأخصّ لا تعطيها لوالدي الكسول الذي لم يبحث قطّ عن عمل.

وقفت الأم وسط أولادها وقالت لهم:

– أحبّكم جميعاً، لكنّ قلبي إلى أصغركم أمْيَل. هذا الذي فاجأنا، هذا الذي وِلد مع بعض المعوّقات، لا جميلاً ولا كبيراً ومن دون مناعة. ليست المصيبة في إنجاب الكثير من الأولاد، بل بالعكس، هي نعمة يجب أن نعرف كيف نثمِّرها. ولد الإبهام الصغير مختلفاً. في البداية لم يكن يتكلم، فسخرتم منه وبعضكم كرهه، ووجده الناس شاذّاً. قالوا إنه شبه إنسان، حتى أنهم نصحوني أن أخفيه أو أن أرميه في بئر. حتى أن أحد أفراد عائلتنا قال لي إنه قد يجلب السوء وأنه رسول الشيطان ليودي بنا إلى الكوارث. طبعاً كلّ ذلك مجرد ترّهات. فهذا الولد الذي لا يشبه سواه من الأولاد هو الذي أنقدنا للتوّ من البؤس. هو الذي حمل الرخاء والسلام إلى عائلتنا. هذا الولد نعمة من الله. إنه رسول السعادة والحقيقة والخيال. فبفضل طيبته وذكائه وخياله الواسع تمكّن من إنقاذنا

جميعاً. إنه مختلف لكنه إنسانيٌّ، في منتهى الإنسانيّة.

حمل الأولاد الستّة شقيقهم الصغير ورفعوه صارخين:

– فليعش الرجل الصغير العظيم! فليعش أخونا، أجملنا وأفضلنا!

مسحت الأمّ دمعةً. أما الأب فتناول معولاً ورفشاً وقال:

– أنا ذاهب إلى العمل!

٩

إهاب الحمار

كان في قديم الزمان ملك متيّم بحبّ "سندوس"؛ آخر امرأة تزوّج بها. ليس أن جمالها كان يجعل الرجال يقفون صاغرين أمام بهائها وأناقتها، بل كان يُخرِج الطيور من أوكارها لتغرّد فوق رأسها ولمواكبتها كلما تنزّهت في حدائق القصر. كانوا يتحدثون عن سندوس الجميلة كأمرٍ بديهي قلب حياة الملك رأساً على عقب. وقد أراد بعدها إقفال حريمه المؤلَّف من اثنتي عشرة امرأة، كلّ واحدة منهنّ تمثّل منطقةً من مملكته. وكان في الحريم ثماني سمراوات وثلاث شقراوات وامرأة صهباء. كان يحبّهن ممتلئات الجسم ويرغمهن على تناول النشويات ليَسْمنّ. واتّبع بعضهنّ، النحيفات جداً، نظاماً لتناول الشمار اليوناني. وشكّل وصول سندوس انقلاباً بالنسبة إليهنّ.

لم يردَّهُنّ الملك إلى بيوتهنّ بل حرّرهن وقدّم لهنّ الهدايا، حتى أنه وجد لهنّ أزواجاً في القصر. فقد أحبّ سندوس لدرجة أنه كان

مستعدّاً لفعل أي شيء ليبرهن لها عن تميّزها في نظره. وحتى أقاربه فوجئوا بتغيّره.

زواج الملك جعله أكثر رأفةً برعاياه وأكثر اهتماماً بمشاكل شعبه. ذلك أن تلك الزوجة الرائعة كانت متحدّرة من بيئة متواضعة وأمكنها إفهام الملك أن هنالك الكثير من الأمور التي يجب تغييرها في طريقة حكمه للبلد. فقد ولّى زمن التعسّف والترقيات غير القانونية والامتيازات الفضائحية. لقد انتهت سهرات العربدة التي كانت حديث الناس في الأكواخ، وتبذير ثروات البلد وسيطرة سياسة الجشع التي كان ممنوعاً التحدث عنها تحت طائلة السجن بتهمة التهجّم على قدسية الملك وعائلته.

تغيّر الملك ولسندوس الفضل في ذلك. طرد بعض وزرائه المعروفين بعدم كفاءتهم والمتمرّسين بشتّى أشكال الفساد، وأعاد تنظيم حكومته ومنع صراع المصالح، وكان يصغي كلّياً إلى زوجته وينفّذ ما تشير به عليه لتحسين أوضاع الشعب.

أما ما تبقّى من الوقت فكان يمضيه بين ذراعي سندوس التي عرفت كيف تُمتّعه وعلّمته أن الحبّ ليس سلسلةً من المجامعات وحسب. راح الملك يكتشف حلاوة ممارسة الجنس برفق ولطف، وهذا ما حسّن من طبيعته وجعله مميّزاً.

كان في المكان حمار، لا هو كبير ولا صغير، شكله عاديّ جداً، وقد أُسكِن غرفةً جميلةً عند مدخل القصر، لا يحقّ لأحد أن يضايقه أو حتى أن يلمسه. لم ينقص الحمار أي شيء، تُقدَّم له أفضل أنواع الأعشاب وأفضل الخضار، ويُسقى من مياه الشفة، وغالباً ما كانوا

يتحقّقون من حرارته للتصرّف بأسرع ما يمكن في حال مرض.

حارت سندوس في أسباب الرعاية التي أحيط بها هذا الحيوان. كانت تحبّ الحمير والأحصنة، لكن لِمَ كلّ هذا التمييز؟ وفي أحد الأيام حدّثت زوجها في الأمر فابتسم وقال لها:

– هذا الحيوان كنز. يبدو أنه ثمرة تهجين مدهش. وعلى ما يبدو هو يتكلم لكنني لم أسمعه قط، إلا أنه يفهم لغتنا. غداً أريكِ ما الذي يعطينا إياه هذا الحمار وستتفاجئين.

في اليوم التالي، وبعد الاستعلام عن الساعة التي يقضي فيها الحيوان حاجته الطبيعية، حضر إليه الملك وزوجته، فوشوشه أحد الحراس بكلام ما في أذنه، فإذا الحمار يهزّ رأسه ويطلق من مخرجه كميةً كبيرةً من قطع الذهب تلتمع تحت الشمس وتفوح منها في الوقت نفسه رائحةٌ طيبة.

انبهرت سندوس، وانحنى الملك والتقط بعض القطع النقدية وقدّمها لجميلته:

– المسيها، ما زالت ساخنة!

ثمّ سألت إن كان يتمتع بالقدرة على الكلام، فهزّ الحارس برأسه إيجاباً وكذلك فعل الحمار وانفجر ضاحكاً.

قالت سندوس:

– هذا ليس حماراً كغيره، إنه "السيّد الحمار!".

وأجابها الملك:

– بهذا الذهب سنبني الطرقات والمدارس والمستشفيات، وننشر الخير حولنا.

أرادت سندوس معرفة قصة هذا الحمار، فأخذها الملك من ذراعها وراح يحكي لها وهما يتنزّهان في حدائق القصر. قال لها:

– حبيبتي، هنالك أحياناً أمور في الحياة لا يمكننا فهمها ولا تفسيرها. لقد عدلت منذ زمن طويل عن محاولة فهم كلّ شيء. كان والدي حكيماً كبيراً ويقول لي دوماً: "الذكاء، يا بني، هو عدم فهم العالم". كان فيلسوفاً محبوباً من شعبه. أخيراً، في أحد الأيام، أهداه أحد الفلاّحين هذا الحمار عربون شكر على تدخّله لإحقاق الحقّ في قضيّة سرقة أرضه. فوجئ والدي بهذه الهدية، فقال له الفلاح: "سيدي، هذا كلّ ما أملك. اسمح لي أن أقدّمه لك. الآن وقد استعدت أرضي سيكون لدي ما يكفي لشراء قطيع. هذا الحمار كان ضائعاً وقد أويته عندي البارحة. وبما أنه حيوان جميل، أرجو أن تقبل مني هذه الهدية".

لم يكن الفلاّح يعلم أن حماره يصنّع ذهباً. لكن والدي شعر أن هذا الحمار مختلف عن سائر الحيوانات. وهو من أسكنه في هذه القاعة وعيّن إبراهيم للاهتمام به.

عندما أخرج قطعاً ذهبيّة للمرّة الأولى فقد إبراهيم وعيه، وسارعت زوجته إلى كبير الوزراء تطلب منه الحضور لمعاينة هذا الأمر الغريب. وعندما أُبلِغ والدي بالأمر لم يُفاجأ، وقال لي: "كنت أعلم، لكنّي لم أجرؤ على التصريح بذلك".

ولم تردّ سندوس إلا بجملة واحدة:

– معك الحقّ، ولا أريد أن أفهم!

عندما وُلِدت شهرزاد أقام الملك احتفالاً دُعِي إليه كلّ الأزواج

الذين ولد لهم طفلٌ في اليوم نفسه. عجّ القصر بالزوّار من مختلف الفئات الاجتماعية، وسخا الملك بلا حدود، لكن ليس من مال خزينة الدولة بل من مدّخراته الخاصة. وقد استغرب البعض هذا القدر من الاحتفاء بولادة فتاة. لكن سرعان ما أعلن الملك وقف جميع أشكال التمييز التي تُمارس بحقّ المرأة، وعيّن مجلساً أعلى لإصلاح قانون الأسرة. ولم يرق الأمر لرجال الدين الذين لم يتردّد بعضهم في التعبير عن ذلك، وبعبارات قاسية، في خطب صلوات يوم الجمعة. فاستدعاهم الملك وتلا عليهم بعض الآيات القرآنية التي لا يميّز فيها الله بين الرجل والمرأة، فتلا كبير الأئمة سنّاً بدوره آيات تؤكّد العكس. عندها تجرأ الملك على القول:

– طبعاً، لكن الله عادل وقد دعا إلى المساواة بين المؤمنين والمؤمنات.

أُقفلت القضية عند هذا الحدّ وأُقرّ قانون العائلة الجديد بعد بضعة أشهر، بالرغم من أنّ بعض رجال الدين استمرّوا في الاعتراض عليه في الجوامع وداخل جمعيات الخير والفضيلة.

شعرت سندوس بالفخر لأنها ألهمت زوجها هذا القدر من الحكمة والطيبة. وقد ضاهت شهرزاد أمّها جمالاً وذكاء، وكان الملك يمضي بعض الوقت معها ويحكي لها القصص ويتنزّه برفقتها في حدائق القصر ويهتمّ بتربيتها عن كثب. وسارت كلّ الأمور على خير ما يرام.

كلّ الأمور ما عدا صحّة سندوس. كانت تصاب بنوبات سعال وتفقد من وزنها. وهرع الأطباء من كلّ أنحاء البلد لكن وضعها

تدهور يوماً بعد يوم، وراح الملك يحتجب عن الأنظار ليبكي في سرّه.

استقدم من الخارج أساتذة في الطبّ وأخصائيين في أمراض الرئة. لكنهم جميعاً عادوا أدراجهم معبّرين له عن أسفهم. استُنفدت كلّ الوسائل، وتفاقم المرض وراحت سندوس تفقد حيويتها. ولم تعد حرارتها تنخفض حتى صارت المسكينة تغرق في هلوسات لا تنبئ أبداً بالخير.

وقبيل أن تُسلِم سندوس الروح حمّلت الملك وصيّة:

– سامحني لأني فارقتك قبل الأوان بكثير، إنّما الأعمار بيد الله العلي العظيم. أرجوك أن تكمل حياتك وأن تهتمّ بابنتنا الحبيبة كما كنت تفعل دائماً. والأهمّ أن تتزوّج من بعدي...

فاعترض الملك باكياً:

– لا، أبداً، لن أتزوج ثانيةً أبداً، لن أستبدلك أبداً. ما من امرأة جديرة بالنوم في سريرك...

– لا يا سيدي، ستتزوج مجدّداً، إنما عدني أن تكون أجمل وأفضل مني!

– لكن ما من امرأة أجمل وأفضل منك...

وكان آخر ما قالته سندوس:

– سامحني، فِ بوعدك، المعذرة، سيدي، حبيبي...

توفيت في منتصف الشتاء، والبلد تحت طبقة كثيفة من الثلج، وسادت الشعب حالة من الكآبة. توافدت النساء من كل الطبقات إلى القصر لإلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليها. وخيّم الحزن الشديد في

أرجاء البلاد. لم يعد الملك يخرج ولم يعد يجمع وزراءه ومستشاريه. امتنع عن استقبال أيٍّ كان. أحسّ بفاجعةٍ كبيرة ولم يعرف كيف يصمد في الحياة بعد هذه الخسارة.

من جهته، توقف السيّد حمار عن إعطاء الذهب وراح يبكي بصمت. أما شهرزاد فسرعان ما استلمت زمام الأمور وحلّت مكان والدتها على رأس جمعيات الدفاع عن حقوق المرأة. كانت جميلة ومفعمة بالحياة، رشيقة ومشرقة. ومع أن حزنها كان عميقاً وصادقاً، إلا أنها تخطّته بالعمل. وسرعان ما دفع هذا والدها إلى الخروج من حزنه ومعاودة العمل لإنهاء المشاريع التي بدأتها زوجته الراحلة. وبسحر ساحر عاد الحمار يعطي ذهباً مرّة كلّ يومين.

مضى الوقت لكن ذكرى سندوس بقيت حيّةً كما من قبل. حتى أن الملك راودته بعض الرؤى، أي ما يسمونه اليوم بالهلوسات. وعندما ينظر إلى ابنته يرى زوجته الراحلة. بالطبع كانتا مشابهتين جداً إنما ليس لدرجة الخلط بينهما، ومع ذلك صار يتهيّأ للملك أنه يرى قسمات زوجته ترتسم في ملامح ابنته. وعندما يحملها بين ذراعيه لمداعبتها كان يضمّها بقوة لدرجة أنها تشعر بالانزعاج. وأدركت شهرزاد أن والدها بدأ يفقد اتّزانه وصارت تتفادى معانقته. بدا واضحاً أنه لم يعد يداعبها كأب إنما كرجل يرغب في امرأة. وقد صعب عليها تقبّل هذه الفكرة التي أدركتها بفضل ذكائها وحدسها الصادق. لكن لم يكن عندها من تركن إليه، وفي الليل يصيبها الأرق وتفكّر أن والدها العاجز عن نسيان زوجته قد يقترف يوماً ما وفي لحظة جنون ما لا يمكن إصلاحه. هذا تحديداً ما كانت تقوله في

نفسها في إحدى الليالي عندما سمعت طرقاً على الباب، فوقفت وسألت:

– من هنا؟

جاوبها صوت امرأة:

– أنا شِمسة، شِمسة العجوز.

وشمسة جنيّة، وشهرزاد لا تعتقد بوجود الجنيات، لا بل كانت تَحْذرهن. لكن شمسة اعتنت بها في صغرها وهي اعتبرتها كمربّيتها.

– يا ابنتي، أعلم أنك لا تنامين. لقد أحضرت لك حشائش تغلينها وتشربينها لتتخلّصي من الأرق. وأنا أعرف لماذا تجدين صعوبةً في النوم. أعرف كلّ شيء، لكن فلننتظر ونرى. على أية حال، سأكون هنا إن احتجتِ إليّ.

ثمّ غادرت وتناولت شهرزاد الشراب الساخن وغرقت في نومٍ عميق.

في اليوم التالي، استدعى الملك ابنته ليتحدّث إليها. حرصت شهرزاد على تغيير مظهرها فصبغت شعرها الأشقر الرائع باللون الأسود وارتدت ملابس مهملة وذهبت عند الملك كما لو أنها غريبة. لكن بالرغم من حرصها على تبشيع نفسها لم تنجح فعلاً في ذلك، لا بل أن مظهرها المهمَل ترك وقعاً معاكساً لما كان مرجوّاً. فقد أطلق والدها صرخة استحسان وهو يفتح لها ذراعيه:

– لكنك أجمل من ذي قبل!

تراجعت خطوةً خشية أن يضمّها إليه بقوة، فقال لها:

– اقتربي يا ابنتي، عندي ما أقوله لك.

جلست قبالته على كنبة وقالت خافضةً عينيها:

- كلّي سمعٌ لك يا أبي.

- قبل أن تلفظ والدتك أنفاسها الأخيرة طلبت منّي أن أتزوج مجدداً وأنا رفضت ذلك. لكنها أصرّت عليّ ووضعت هذا الشرط الصعب التحقيق، وهو أن تكون زوجتي الجديدة أجمل منها. وأنتِ تعلمين يا ابنتي العزيزة أنْ ما من امرأة يمكن أن تكون أجمل من والدتك.

فردّت عليه بنبرةٍ جافّة:

- إذن لا تتزوج!

- يا ابنتي، لا تروقني هذه النبرة.

- عذراً يا أبي. أكمل.

- لا يمكنني ألاّ أتزوج، وديننا يرغمني على ذلك وشعبي لن يتفهمّ الأمر... أعلم أنه يرغب أن أُنجب وريثاً للعرش... لقد فكّرت في الأمر وأجريت بعض التحقيقات في كلّ أرجاء البلد. من المستحيل إيجاد امرأة أجمل من سندوس. لكن منذ ليالٍ كنت نائماً وساورتني الفكرة التالية: ليس من امرأة سواكِ يا ابنتي تفوق سندوس جمالاً. فلكِ عيناها الواسعتان وهذا الشعر الرائع وقامتها الرشيقة الناعمة، ولكِ مشيتها وأناقتها وذكاؤها وروحها المرحة. باختصار، لديك كلّ شيء منها وأنت الجديرة بتمثيل جمالها وطيبتها، ولذلك قرّرت أن أتزوّجك.

نقزت شهرزاد من هذه الكلمات، فنهضت وهربت باكية.

تحدّث الملك مع فقيهٍ موفدٍ من مكّة. فزواج الرجل بابنته أمرٌ

يحرّمه الدين. وأفهمه هذا الأخصّائيّ أن ذلك يتعارض مع كلّ الشرائع وقد يتسبّب بكوارث طبيعية كالزلازل أو الفيضانات التي قد تتسبّب بتدمير البلد نهائيّاً. ثمّ استشهد بالآية ٢٣ من سورة "النساء": ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ...﴾.

حاول الملك، وهو يعي وقاحة قراره، أن يُقنع الإمام أن شهرزاد ليست ابنته وأن سندوس وصلت حُبلى إلى القصر. وانتهى به الأمر أن صدّق كذبته وأشاع الخبر أنه قرّر الزواج من شهرزاد بعد أن اكتشف أنها ليست من ذرّيته.

كان مُصمّماً بقوة وأجرى تحقيقاً في عائلة زوجته للتأكّد من صحّة أقواله. عاد الرجال الذين أُرسلوا للاستقصاء ومعهم اسم وعنوان والد شهرزاد المزعوم، وهو يتيم من أقرباء سندوس ترعرع معها واستغلّها عند بلوغها سنّ النضوج.

حيكت الدسيسة بكلّ براعة، لدرجة أنّ أحداً لم يعد يلوم الملك، خصوصاً وأن ابنته كانت تطابق بجمالها الشروط التي وضعتها المرحومة. وحدهم رجال الدين عبّروا عن استيائهم لكن لا أحد منهم تجرأ على معارضة الملك. إلاّ أن أحدهم، وهو بمثابة عميدهم، اقترح على الملك الحلّ التالي:

– شهرزاد ليست ابنتك ولا ابنة زوجتك الراحلة. أنتَ وجدتها في أحد الأيام موضوعةً في سلّة على عتبة القصر. تبنّيتَها من باب

الإحسان ولأن قلبك لا يتحمّل رؤية طفلة بريئة مرميّة. وإذا كان لا بدّ، يمكنك الزواج بها لكن شرط إقامة الدليل على أنها قادمة من بلد بعيد.

أعجب هذا الطرح الملك وقرّر تبنّيه.

لكن شمسة، البعيدة عن القصر آنذاك، استشعرت أن أموراً غريبة تُحاك وأن الصغيرة بحاجة إليها، فقصدت القصر ووجدت شهرزاد في حالةٍ مُزرية، تبكي منتحبةً وترتجف ممزّقةً ثيابها.

– لا تخافي يا ابنتي، عندي خطّة تنقذك من هذه الأحابيل. ثِقي بي وحسب وسترين أن الزواج لن يتمّ أبداً. في البداية، غيّري تصرّفك وأطيعي والدك. لكن بما أن والدتك وضعت تلك الشروط، عليه في النهاية، إن كان يصرّ على هذا الزواج الشاذ عن الطبيعة، أن يلتزم بها. وهذا يتطلّب وقتاً. نعم، الوقت هو الكفيل بإنقاذنا!

عندما سمعت شهرزاد هذا التعبير من شمسة كفّت عن البكاء ومسحت دموعها وابتسمت، لأنها حدست أنها ستفلت من هذا الفخّ. الأمر يتطلّب منها أن تناضل وألاّ تجابه الملك مباشرةً، بل أن تلعب لعبتها بمهارة لتجعله يعدل عن هذا العمل الجنونيّ.

– يا ابنتي، اذهبي وقابلي والدك. قولي له إنك قرّرتِ أن تخضعي له وتطيعيه، وبكلّ لطف اشترطي عليه، لقبول طلبه، أن يؤمّن لك ثوباً عجيباً، وليس المهمّ نوع القماش إنما المهمّ أن يكون بلون الطقس.

انشغل بال شهرزاد ورمقت الجنية العجوز بنظرةٍ قلقة.

– يا ابنتي، مهما كانت ثروة الملك، ومهما كانت سلطته كبيرة، لن يتمكّن من إيجاد ثوب بلون الطقس.

أطلعت شهرزاد الملك على طلبها فلم يفهم ما هو هذا اللون واستدعى كلّ كبار خيّاطي العاصمة وأمهلهم أربعاً وعشرين ساعة ليأتوه بهذا الثوب.

كان بين الخيّاطين شخصٌ يهوديّ يُدعى عمران الكوهين، حزر على الفور ما هو لون الطقس. فانسحب إلى مشغله وجمع على الفور عدّة أقمشة مختلفة الألوان تعكس تماماً ألوان السماء في ذلك اليوم، وفيها الأزرق اللاّزوردي الناعم والأبيض المائل إلى الرمادي لتمثيل الغيوم، والأبيض السكّري للربط بين الأبيض والرمادي. فُصّل الثوب وخيط بخيطان من ذهب. فهذا الخيّاط الذي ينتمي إلى عائلة كبيرة من يهود إسبانيا الذين طردتهم إيزابيل الكاثوليكية العام ١٤٩٢، والذين تخصّصوا في الحرير والخيطان الذهبية، كان الوحيد في العاصمة الذي يملك منها.

وصل عمران إلى القصر فسارع الملك إلى استقباله واستدعى ابنته. أعجبها الثوب كثيراً وشكرت الخيّاط قبل أن تنسحب لتجتمع بشمسة التي كانت تنتظرها في الغرفة المجاورة. في الواقع، كان الثوب يتطابق مع ألوان الطقس في ذلك اليوم. فتنهّدت شمسة عميقاً لكنها قرّرت عدم الاستسلام.

– يمكنك أن تقولي ليس هذا لون الطقس، لكن هذا لا ينفع إذ إنّ هذا الخياط سيتدبّر أمره لإيجاد حلّ. لذا ستطلبين منه ثوباً أكثر لمعاناً مصنوعاً من قماش غير عاديّ، مثلاً حرير مستورد من البلد الذي يقع على قمة أعلى جبل. ثوب له بريق القمر ولون المجرّة.

كرّرت شهرزاد الكلمات نفسها على الملك الذي استدعى كبير

حاخامي المدينة وأمره بإيجاد خيّاط موهوب أكثر من عمران وأن يأتي به بأسرع ما يمكن.

كان كبير الحاخامين حريصاً على المحافظة على العلاقات الجيدة التي كانت قائمة آنذاك بين اليهود والمسلمين، فذهب لمقابلة موشيه، المطرِّز والخيّاط الأكثر مهارةً في الطائفة اليهودية. كان طاعناً في السنّ وتوقّف عن العمل، لكن لم يكن بإمكانه رفض طلب الملك الذي طالما ساعد وحمى اليهود المولودين في هذا البلد. فرافق الحاخام الكبير وأنصت إلى أوامر الملك، وكرّر وراءه:

– ثوب حريري من أعلى الجبال بلون القمر والمجرّة... حسناً سيدي، اعتبر الأمر حاصلاً، حفظك الله وأطال عمرك...

بعد يومين، كان الثوب جاهزاً، أكثر لمعاناً من القمر ونجومه، ومن حرير ذي نعومة لا تُضاهى. سُرَّ الملك وأمر بإعطاء موشيه كيساً صغيراً من قطع الذهب، فرفضه هذا الأخير قائلاً:

– سيدي، خدمتك كانت من دواعي سروري. لا أريد أن أفسد هذا السرور والفرح بقطع من الذهب. أرجوك سيدي أن تعذرني. يمكنك أن تمنح هذا المال لمن هم بحاجة إليه أكثر منّي، مع أنني أعلم أن ابنتك تهتّم أساساً كثيراً بالمحتاجين وتبذل الكثير لتخفّف عنهم وطأة العيش. أشكرك سيدي.

تأثّر الملك بردّة فعل موشيه وأرسل أفضل عمّاله للمباشرة بترميم كنيست من الكُنس العشرة الموجودة في العاصمة. وبدا هذه المرّة مقتنعاً بأنّ شهرزاد لن تجد ما تعترض عليه بعد. وبالفعل، ذُهلت بجمال ولمعان الثوب. فما الذي يمكنها اختراعه لتُعْجِزَه؟ انسحبت

متذرّعةً بتجريب الفستان وذهبت للتحدّث إلى الجنية التي نصحتها بعدم الاستسلام والمطالبة بأشياء يصعب إيجادها أكثر فأكثر. ونصحتها أيضاً بالاستمرار بادّعاء الرضى والتصرّف كفتاة صغيرة مطيعة ومصمّمة على إسعاد والدها. قالت لها: "الحيلة يا ابنتي، الحيلة كفيلة بإنقاذنا أيتها الأميرة!".

ذهبت شهرزاد إلى الملك وقالت له:

– شكراً يا أبي على هذا الثوب الرائع. أنا في غمرة السعادة. لم أعتقد أن بالإمكان إبداع مثل هذا الجمال.

– حسناً أيتها الأميرة! ألم يعد هذا الزواج يخيفك؟

– آه يا أبي، أنا مضطربة جداً، لكنني سمعت أنك قد لا تكون أبي الحقيقي. لو كان هذا صحيحاً لا شيء إذاً يمنعنا من الاحتفال بزفافنا. لكن قبل ذلك أودّ، إلى جانب الثوب بلون الطقس والثوب بلون القمر، أن أستكمل مجموعتي بثوب من لون الشمس، لكن ليس الشمس العادية، بل تلك التي تولّد الشعاع الأخضر، تلك التي قبل مغيبها بلحظات تبعث السعادة في قلب من تتسنّى لهم رؤيتها.

– سأحقّق لك ذلك يا أميرتي.

استدعى الملك هذه المرّة ساحرةً هي الأكبر سنّاً والأكثر فجوراً وبشاعةً والأشدّ فعّاليةً بين كلّ ساحرات البلد. جاءت من أقصى الجنوب، وعندما وضعت بقجتها أرضاً خرج منها أفاعٍ وعقارب ونمال ضخمة سوداء حيناً وصفراء حيناً آخر، وصراصير ذات مجسّات طويلة. ثمّ صرخت فيها بلغة مجهولة فعادت على الفور إلى كيس الخيش.

– لا تخف يا سيدي، هؤلاء أولادي. يحبّون أن يعرفوا أين هم. مُرْني، أنا تحت أوامرك سيدي.

نصحها الملك أولاً أن تحسن تربية "أولادها"، ثم قال لها إنه بحاجة إلى ثوب بلون الشمس عندما تبعث الأشعة الخضراء. نظرت إليه ومطّت شفتيها استياءً وقالت:

– استقدمتني من آخر الدنيا من أجل ثوب! يا لسخرية الزمن! ما من أحد للقضاء عليه أو تعذيبه أو حتى تنكيده. مجرد ثوب... ولمن هذا الثوب المميّز؟ هل أنت مغرم مجدداً، سيدي؟ سبق أن نبهتك إلى ضرورة اتّقاء جنس النساء، وإلى أنه خطير كالطاعون وجذّاب كلمعان الأفعى عندما تتشمَّس. أما عن هذا الثوب، فالأمر صعب، ليس هذا من اختصاصي. أنا فعّالة أكثر في مجال الأذى، لكنني أعرف مبتدئةً في هذه المهنة قادرة على نبش ما تبحث عنه. امنحني بعض الوقت للاتصال بها وستحصل على ما تريد. على فكرة، من مصلحتك أن تتصل بي من وقت إلى آخر، فأنا متعطّلة وفي حال لم أمارس المهنة قد أخسر رخصتي. أعني، قوّتي. قل لي سيدي، ألا تريدني أن أهتمّ بالمخادع الكبير الذي سرق مالك وأجرى صفقات باسمك؟ أودّ كثيراً أن أعذّبه وأن أذيب الحجر الأسود الذي يحمله مكان قلبه.

غادرت القصر وذهبت على ظهر حمار كان ينتظر قدّام الباب. بدا حماراً واهناً عادياً بسيطاً وخائر القوى. لكن ما إن امتطته الساحرة حتى اجتاحته طاقة مفاجئة وراح يعدو بسرعة فاجأت الجميع. ولم تلبث أن وصلت أمام مقبرة وتشاورت مع حارسها، فخرجت عندها صبيّة من أحد القبور حيث كانت تنام وسألت عمّا يجري. عرفت

معلمتها فانحنت إكراماً لها.

– ثوب بلون الشمس... حسناً سيدتي، يمكن أن يُنفَّذ فوراً.

بعد ساعات مثلت الساحرة أمام الملك حاملةً ثوباً بهره ضوءُه لدرجة أنه آلم عينيه واضطرّ أن يميل بنظره عنه. كان يلتمع لدرجة أنه لم يعد هنالك حاجة لإشعال أضواء القصر. الآن لم يعد بإمكان شهرزاد أن تقول شيئاً. فقد حصلت على أثوابها الثلاث وتحقّقت كل أمنياتها، وبات عليها إيجاد شيء آخر لمنع هذا الزواج. كانت الجنية في تلك الأرجاء وقد راودتها فكرة جديدة. دنت من شهرزاد وهمست في أذنها:

– اطلبي منه جلد الحمار!

تراجعت شهرزاد وطلبت من الجنية أن تشرح لها، فقالت شمسة:

– حاولنا كلّ شيء، ووجد لكلّ شيء حلاً. الآن، سنضرب صندوق ماله. إن طلبت منه إهاب السيّد حمار كَنَزْوة من أميرة شابة، سينخدع: فإذا أعطاك إياه يحرم نفسه من كلّ موارده. لكن حتى وإن كان مصرّاً على هذا الزواج مهما حصل، فلديه ما يكفي من الذكاء كي لا يتخلّى عن هذا المصدر الذي يدرّ عليه أموالاً هائلة، أقلّه ليؤمّن لك حياةً تليق بك كأميرة عظيمة. أما إذا انصاع لرغبتك الجديدة فلدي خطّة أخرى.

كان هيام الملك بلا حدود، وكان مستعدّاً لكلّ شيء من أجل الزواج بشهرزاد الجميلة، ولذلك وافق بلا تردّد على التضحية بالسيّد حمار بعد أن أفرغه من آخر نقوده الذهبية. ثمّ أعطى الأوامر بتنظيف إهابه جيداً وبتطهيره خصوصاً من روائحه الكريهة. وهذا يتطلّب

وقتاً، ووافقت الأميرة على الانتظار فيما راحت الجنّية تعرض عليها خطّتها:

– اسمعي، وضّبي أغراضك، خصوصاً أثوابك الجميلة في حقيبة. لن تضطري إلى حملها، سأعطيك عصاً سحرية وسترين كيف تلحق بك الحقيبة كما لو أن يداً خفيّة تجرّها. ستكونين داخل إهاب الحمار مكسوّةً بالكامل. ترتدينه كجلاّبيّة قديمة، كنوع من عباءة تخفي كلّ شيء. عموماً، عندما يلتقي الرجال نساء محجّبات بهذا الشكل من رؤوسهن إلى أقدامهن فهم لا يتجرأون على مكالمتهنّ ولا حتى على النظر إليهن. قد يعتقدون أنك امرأة خاضعة لأب أو زوج متعصّب. لا مشكلة في ذلك فالمهمّ هو أن هذا التنكّر سيمنع شرطة والدك من العثور عليك. وفي حال شعرت بالضجر، أسمح لك باللّعب بعصاي. لكن انتبهي جيداً، يكفي أن تقومي بحركة واحدة في غير مكانها كي تعيدك إلى القصر. هذه العصا تفعل العجائب لكن يجب أن تتقني تشغيلها.

اغتنمت شهرزاد حلول الظلام لتهرب. لم يرها الحرّاس وهي تخرج. وكانت الحقيبة تتبعها من دون أن يلاحظها أحد. لم يعلم الملك باختفاء الأميرة إلاّ في اليوم التالي. جنّ جنونه وأمر جميع رجاله بالذهاب للبحث عنها واعداً إياهم بمكافأة جميلة. وبقي وحده في قصره يذرع المكان ذهاباً وإياباً ويضرب أحياناً الجدران بقبضتيه.

في وقت متأخر من الليل دخل مسجد القصر وتلا عدة صلوات. راح يحكي كيفما كان، خالطاً بين الآيات القرآنية والحديث النبوي

الشريف. وقف وعاد فسجد وهو لا يدري ما يفعل. فاجأه أحد الأئمة في هذه الحالة وطلب منه التمدّد لحظةً ودلّك ظهره ورقبته المشنّجتين للغاية. كان يهذي وآثر الإمام صمّ أذنيه عمّا كان يقوله بحقّ الدين.

- يا ابنتي، يا أميرتي، يا زوجتي، يا حبيبتي، يا حبّي، أين أنت؟ حبّي لك لا حدود له وناري لن تهدأ إلاّ عند عودتك. إن أردتِ، يمكننا الزواج بلا ضجّة. نبقي ذلك بيننا، سرّنا وحدنا، يا ابنتي وخطيئتي المميتة، يا حبّي، يا جنوني، يا صلاتي التي لم تُستجب. أنت السبب الذي لأجله أحيا. عودي، أنا لك وسوف أنتظرك...

لجأت شهرزاد إلى مزرعةٍ كبيرة فيها معرض حيوانات. وكان الحاكم عندما يذهب إلى الصيد يتوقّف فيها أحياناً ويبوح ببعض أسراره للـ"مامّا"، المزارعة العجوز المعروفة باتّقاد ذهنها وبإجاباتها الجريئة. وما إن رأت المامّا تلك المرأة المسكينة الملتفّة بجلد حمار حتى ألهمها حدسها أنها هاربة وأن عليها مساعدتها. لم يكن من الشائع التنكّر بهذا الشكل. لا شكّ أن هذا المظهر المقزّز يخفي وراءه شيئاً ما. كانت المامّا تتمتّع بقلبٍ كبير وحدسها لا يخطئ أبداً. فأخذت على عاتقها حماية شهرزاد من دون أن تطرح عليها أي سؤال. قالت في نفسها: "إن رغبت في البوح بسرّها لي أنصت إليها. أما حالياً فلنعطها شراباً ساخناً وصحناً من العدس". كانت شهرزاد منهكة فغفت على الفور في الكوخ المخصّص للصيادين. في اليوم التالي طلبت الاغتسال لأن رائحة جلد السيّد حمار بالرغم من تنظيفه ظلّت كريهة تستميل الذباب المؤذي جداً، والذي لم يكتفِ

بعضه بلسعها بل كان يطيب له أن يوشوشها في أذنها بإهاناتٍ من نوع: "عار عليك!".

دعتها المامّا إلى الاستحمام في الحمام العائلي. هناك، لاحظت النساء الجمال المميّز لهذا الجسد الضامر والممشوق. عرفت المامّا فوراً أنها تنتمي إلى عائلةٍ ذات شأن. بعد الحمّام، لبست شهرزاد الثوب الذي بلون الطقس، فبدت خلاّبةً وخرج سكان المزرعة لتأمّلها.

صادف ذلك في الصباح المعتاد لخروج أمين، ابن الحاكم البكر، إلى الصيد وتعريجه على المكان ليلقي التحية على المامّا. وعندما رأى شهرزاد انقطعت أنفاسه للحظات. لم يسبق له أن رأى صبيّةً بهذا الجمال تُشرق بنورٍ مميّز يبهر كلّ من يحدّق فيها. ألقى الشاب أغراضه وأسرع إلى الماما يسألها عنها:

– من هي؟ أتعرفين من أين هي؟ ما اسمها؟

– لا أعرف شيئاً يا صغيري. كلّ ما أعرفه أنها وصلت البارحة إلى هنا ملتفّةً بإهاب حمار. وفي تنكّرها هذا ما يشير إلى أن قصّتها معقّدة. لكن هدّئ من روعك، إن هي إلا امرأة جميلة، وأنت فقدت توازنك.

– نعم يا صديقتي، لعلّ سهماً أصابني في الصميم!

– آه توقّف عن قول الترّهات... أتعتقد أن لا شغل لكيوبيد إلا إرسال أحد سهامه إليك؟ يُقال، كما تعرف، إنه أضاع قوسه في الاحتفال الأخير. لم يعد لكيوبيد وجود. تعالَ ساعدني على ذبح هذا العجل، يجب التحضير لاحتفال نهاية الشتاء. غداً تصلنا الشمس،

أحسّ باقترابها من المزرعة. انظر إلى السماء كيف تنقشع غيومها أسرع من العادة. غداً سيكون نهار الأنوار. لقد دعوت أهلك. ستأتي معهم وأعرّفك بالحسناء المجهولة.

في اليوم التالي خرجت شهرزاد مرتديةً الثوب الرائع بلون القمر، كما وضعت بعض حليّها. وقد وضّبت إهاب الحمار بعناية في حقيبة على أساس أنها قد تحتاجه مرّةً أخرى. وقد أصبحت حذرة وبدأت تشكّ بطيبة الناس الطبيعية. عندما تفكّر في والدها ترى الحياة مكفهرّةً وسط عاصفة عاتية وتشاهد في البعيد جسد والدتها وهي تلوّح بذراعها كما لو كانت تغرق وتطلب النجدة. طغت عليها أفكار سوداوية جداً، خصوصاً في الليل قبل خلودها إلى النوم. في تلك الليلة، راودها حلم تختلط فيه صور ربيع رائع بصور أخرى تتكسّر فيه الظلماء إرباً وتنقضّ على الناس فتعميهم. كانت تدور وسط هذا العالم الذي يتصادم فيه الخير والشرّ. وقد جسّدت تلك الأحلام والكوابيس حالةً القلق القصوى التي تعيشها.

استيقظت ووجهها يتصبّب عرقاً وحلقها جاف ويداها ترتجفان. عليها بأي ثمن الخروج من هذا الحلم فقررت ألاّ تعود إلى النوم. تبرّجت على عجل وانتظرت شروق الشمس، فتناهت إليها زقزقة العصافير تذكّرها بأمّها عندما كانت تتنزّه في حدائق القصر، وفكّرت: "هذه إشارة جيدة".

في ذلك الصباح، صفت السماء، وتمكّنت شهرزاد من إبعاد شبح الكابوس عنها وصورة ذلك الأب الذي فقد رشده وحاول ارتكاب المعصية الكبرى. ولا بدّ أنها، وعن غير قصد، لمست العصا السحرية

التي تركتها لها الجنية شمسة لأن المامّا وصلت فجأةً تسألها:

– بِمَ أخدمك يا سمو الأميرة؟

– حقّاً، أتعرفين من أكون؟

– لا أعرف تحديداً من تكونين، لكن كلّ ما فيك يوحي بأنك أميرة. حضورك، لباسك، نظرتك، وهذا الصوت الفائق العذوبة... مشيتك الأنيقة التي يحلو تأمّلها... إروي لي قصتك. ما الذي حصل لك وأوصلك إلى ما أنت عليه؟

أحسَّت شهرزاد بالأمان لأن العصا اقتربت من المامّا. أخبرتها كلّ شيء كما لو كانت طبيباً روحيّاً أو قديسة مستعدّة لمساعدتها. وعندما أنهت شهرزاد قصّتها حارت الماما في ما تقول بفعل الصدمة، فضمّت الأميرة وهمست في أذنها:

– أيتها الأميرة، أنت هنا بأمان! وليذهب والدك إلى الجحيم إلاّ إذا عدل عن رأيه وثاب إلى رشده. ما من مجتمع في العالم يسمح بهذا النوع من الزيجات، ربما الحيوانات لأنها لا تعرف ماذا تفعل، أما نحن البشر فقد أسّسنا مجتمعنا على أسمى المحرّمات. هذا ما يميّزنا عن الحيوانات. ثمّ إنّ الله يُعِدُّ لمخالفي مشيئته حياةً أبدية في الجحيم. لا بدّ أن الشيطان سكن والدك إلا إذا كان واقعاً في شرك نصبته له ساحرة تعمل لمصلحة أعدائه.

نصحت المامّا شهرزاد بالبقاء محتجبةً في المطبخ لتنصرف هي إلى تهيئة الناس لظهورها عليهم. واقترحت شهرزاد تحضير الخبز للضيوف، فأمّنت لها العجوز ما تحتاجه وتركتها تحضّر العجين بمفردها.

انكبّت شهرزاد على مهمّتها بكلّ جوارحها وبدت سعيدةً جداً بذلك. لم تعد تفكّر بالليلة المروّعة التي مرّت عليها. وبعد قليل انتبهت إلى أنها أضاعت الخاتم الذي تركته لها أمّها، فراحت تبحث عنه كالمجنونة لكن أقراص العجين قد أصبحت في الفرن. وتذكّرت أسطورةً روتها لها خالتها العجوز تقول إن مَنْ يجد هذا الخاتم سيصبح زوجها. فذُعرت وهي تفكّر بكلّ الرجال السيئين، جميع الرجال الجشعين والأشرار الذين قد يجدون هذه الحلية وهم يأكلون فيتقدّمون بعدها للزواج بها. أطلعت المامّا على قلقها، فوجدت هذه الأخيرة في ذلك الفرصة المرجوة لكي يقع الخاتم بين يدَيْ ابن الحاكم، هذا الشاب الجميل والعظيم الرفيع المستوى المتوقّع له وظيفة مهمّة في السلك الديبلوماسي. وقبيل توضيب الأرغفة المائة المخبوزة تحقّقت منها واحداً واحداً إلى أن وجدت الخاتم الرائع في أحدها فوضعته في جيبها وخرجت لاستقبال الزوّار. في غضون ذلك طلبت من شهرزاد ارتداء ملابسها والانتظار إلى أن يأتي من يأخذها.

عند الظهر وصل الضيوف. توقّف الحاكم وابنه لإلقاء التحيّة على المامّا التي اغتنمت الفرصة لتدسّ قطعة الخبز في جيب سترة الشاب الذي فوجئ بذلك وسألها عن سبب مبادرتها هذه، فانفردت به وشرحت له عمّا تأمل أن يحصل. وبين التشوّق والذهول طاب له الأمر.

ثمّ أوضحت له قائلةً:

– بعد الغداء، ستمرّ أمامك بعض الصبايا لتجربة الخاتم. ومن

يطابق الخاتم إصبعها تكن زوجتك العتيدة. وإن ساء الأمر ولم تكن الصبية متحلّيةً بالمواصفات التي تتوقّعها من امرأة، يحقّ لك إبطال اللعبة، لكن للفتاة عندها حقّ الاحتفاظ بالخاتم المرصّع بحبات ألماس نادرة.

بدأ استعراض الفتيات قبل تقديم أقراص الحلوى بالحليب واللوز بقليل، تلك التحلية الخفيفة والشهيّة. ومرّت الأصابع، منها الثخين جداً ومنها الرفيع جداً ومنها الملتوي لكثرة العمل. عندها أرسلت المامّا خادماً ليأتي بشهرزاد التي وصلت وهي تمشي على رؤوس أصابعها كما لو أنّها تخشى إتلاف كلّ ما تلمسه. مدّت يدها إلى ابن الحاكم خافضة العينين، فانزلق الخاتم حول إصبعها كما لو أنه في مكانه المعتاد. وعندما التقت نظراتهما لبثا متسمّرين لفترة طويلة، غافلَيْن عن كلّ ما يجري حولهما، لا يسمعان لا الموسيقى ولا صخب الضيوف، كأنهما وحدهما في هذا العالم، كما في الحلم أو في عالم آخر. وقد أحسّا على الفور أنهما منذوران واحدهما للآخر. ولم يفهم والد الشاب ما يجري، فمالت المامّا إليه وطمأنته. لكن ابنه كان منتقلاً إلى عالم آخر.

كاد أن يُغمى عليه. بدا شاحب اللون وفقد القدرة على الكلام. فأوعز إليه والده بالذهاب لوضع رأسه تحت المياه الباردة والانتظار قليلاً. فقد انفعل كثيراً لدرجة أنه فقد قواه وتركيزه. فانسحب على الفور. ولاحظت شهرزاد كم أن هذا الرجل حسّاس وظريف، فطلبت من المامّا إطلاعها على قصته.

– اطمئنّي، إنه طبيعي جداً لكنه بكل بساطة انبهر بجمالك

وتداعت قواه. إنّها ردّة فعل معروفة ب"تناذر عبلة"، تلك الملكة ذات الجمال الأسطوري الذي كان يتسبّب بإغماء الرجال عند اقترابهم منها. أمضت كلّ حياتها وحيدةً لأن كلّ الرجال كانوا يفقدون قواهم وهيبتهم أمامها.

شعرت والدة الشاب بالقلق، وبعد أن استخبرت عن أصول تلك الحوريّة أمرت ابنها بالابتعاد عنها:

– هي ليست من طبقتنا ولا نحن من طبقتها. ونحن لا نختلط مع هذا النوع من الأشخاص ذوي الأصول المجهولة.

بعد عودتهم إلى قصر الحاكم أُصيب الشاب بنوبة بكاء، واختبأ كي لا تراه والدته في هذه الحالة ولم يخرج من غرفته إلا في منتصف الليل فيما الجميع نيام. جال في الحديقة روحاً متألمة بكل معنى الكلمة. كان القمر بدراً يضيء السماء حيث تتلألأ النجوم وتتراقص كما لو كانت تدفعه إلى المضيّ قدماً والتحلّي بالجرأة للذهاب والبوح بحبّه للحورية الجميلة المجهولة. لم يتمكن من إقناع نفسه بالتعقّل وراح يترصّد الإشارات التي سترسلها له السماء، وذهب أخيراً إلى المزرعة حيث راح يترقّب بزوغ الفجر للقاء شهرزاد.

لم تخرج الجميلة المجهولة من مخبئها. عاد الشاب محبطاً إلى القصر وتوسّل إلى والده أن يذهب ويطلب يد شهرزاد. اعترضت الوالدة بحجّة أنهم لا يعرفون شيئاً عن حياة تلك الشابة، ويجهلون من هم أهلها ومن أين وما سرّها.

– حذارِ، حذارِ! الزواج ليس فقط ارتباط بين شخصين بل هو أيضاً ارتباط بين عائلتين. لكن أين عائلتها؟ ممّن نتقدم بطلب يدها؟

أيّد الوالد رأيها، فالقضية ليست بتلك البساطة، وأرجأ مشروع زيارة الصبيّة.

في غضون ذلك استمرّ الملك في أعمال التفتيش عن الأميرة، ولهذه الغاية أوفد رسولاً إلى حاكمه يطلب منه مساعدته على إيجاد ابنته. أعطاه مواصفاتها وذكر أثوابها المختلفة بلون الطقس والقمر وغيرها. كما تحدث عن خاتم مميّز مرصّع بالياقوت الأحمر والألماس. وهذه الملاحظة هي التي أثارت شكوك الحاكم. وقبل أن يحمّل الرسول جوابه، قصد مزرعة المامّا وطلب مقابلة الفتاة الفارّة. لم يعد بالإمكان إخفاء الحقيقة. أُطلع الحاكم على القضية، ومن دون أن يحكم على رغبة الملك في الزواج من ابنته قرّر تسريع الأمور، فسأل المامّا إن كان بإمكانه إطلاع الملك على مكان وجود ابنته وبأنه يسمح لنفسه بطلب يدها لابنه البكر أمين، فوافقته المامّا الرأي.

إذّاك نصّ الحاكم رسالةً جميلة إلى الملك وسلّمها إلى الرسول. وعند إطلاعه زوجته على ما اكتشفه للتوّ سقطت كلّ أحكامها المسبقة وراحت تغنّي محتفلةً بالخبر السعيد، فابنها سيتزوج بأميرة!

شعر الملك بسعادة غامرة عندما علم أن ابنته بخير، وأنها إضافةً إلى ذلك مغرمةٌ بابن الحاكم، وأحسّ فجأةً أنّ حملاً سقط عنه وسأل الله أن يسامحه على ضلاله الذي كاد أن يودي به إلى الجحيم حيث كان ليخسر روحه وحياته. لكن الصلوات وحدها لا تكفي، فقد كان عليه محو أثر مشروع العار وإعادة الطهارة والطبيعية إلى علاقته. ومن غير ابنته لتخليصه من عذاباته. تطهير النفس من النيران التي عاثت

بها فترةً وإطفاء شعلة الحب الماكرة التي استحوذت على قلبه وعقله، ليعود أباً من جديد قبل أن يكون ملكاً ويظهر بوجه جديد، فيكون التواضع والحكمة رمزَيْ هويته المستعادة، هوية والد العروس التي سيساعده ذكاؤها ولباقتها على التخلّص من تلك الذكرى المروّعة.

الكلّ احتاج بعض الوقت. الملك كي يستعيد كرامته، وابنته كي تعتاد على هذا الأب الجديد، والحاكم وزوجته كي يستعدّا لأجمل حفل زفاف.

ما كاد الملك يتوضأ ويستعدّ للصلاة حتى ظهرت له الجنية العجوز الشريرة وقالت:

– أما زلت لا تحتاج خدماتي؟

ثمّ أطلقت حيواناتها الجائعة وأخرجت من تحت ثوبها الوسخ سوطاً صفقت به. فخاف الملك ووجد نفسه عاجزاً حتى عن طلب النجدة.

– نحن لوحدنا الآن. أنا مؤذية، مؤذية جداً، وأنا هنا لأني علمت أنك ستعدل عن زواجك بابنتك! يا لها من خيانة! أنا من زرع تلك الفكرة في رأسك وها أنك تتخلّى عنّي، تتركني لتعود أباً، لتعود رجلاً وملكاً محترماً. لن تمرّ الأمور بهذا الشكل. أنت تدين بالطاعة لي.

راح الملك يصلّي في صمته كي يغادر الشيطان المكان. أغمض عينيه وتوسّل إلى الله أن ينجده. وجلست العجوز على العرش وبالت عليه. سائل أخضر مائل إلى الاصفرار راح يقطر من الكرسي الملكي. لكن الملك تذكّر فجأةً أنها لا تتحمّل رائحة بخور الجنّة، فسارع إلى مخبأ وتمكّن من إشعال عودٍ من الصندل يُستخدم في مناسبتين

خاصّتين جداً، المأتم والزفاف. انتابت العجوز نوبة سعال وسرعان ما فقدت قدراتها، ثم التهمها "أولادها" الذين كانوا ينتظرون تلك اللحظة منذ زمنٍ طويل ليثأروا من تلك الأم الحقيرة التي جعلت الشرّ شغلها الشاغل. لم يعد هنالك على الأرض وعلى العرش سوى الرماد. قرع الملك الجرس مستدعياً أحد الخدم الذي نظّف الغرفة بما سمح للملك بالتوضؤ وشكر الله على إنقاذه. وسمع إذّاك صوتاً يقول له بصوتٍ خافت: "الله أو العقل".

باستثناء الجنية شمسة والمامّا، لم يطّلع أحد على تلك القضية الخطرة. وسُيِّرت شائعات عن أن شهرزاد غادرت بحثاً عن المغامرة لتختبر حياة الناس البسطاء، لأن الحياة في القصر تأسرها في رفاهية تعزلها عن الواقع. وكي لا يتم التعرّف عليها وإعادتها فوراً إلى القصر، خطرت لها فكرة التنكّر بإهاب حمار كان قد مات للتوّ، فطلبت إعداد الإهاب لها ولبسته كالمعطف مخفيَةً بذلك هويتها الحقيقية.

عندما وافق والدها على قتل السيّد حمار الذي كان يأكل العشب و"يتغوّط قطعاً ذهبية"، كما كان يُقال في أوساط الشعب، فعل ذلك من دون تفكير لأنه كان فريسة نزوة مقيتة منحرفة. لم يعرف ما كان يفعل، ولم يعد سيّد نفسه. وبالطبع فرغت خزائن القصر بسرعة وبات عليه رفع الضرائب على الأكثر ثراءً. كانت تلك الوسيلة الوحيدة لتأمين النفقات. وبالتالي سمحت كلّ هذه القصة بتصحيح إحجاف فادح وذلك بإرغام الملاّكين الأثرياء على دفع ضرائب تتناسب مع نسبة ثرائهم، إضافةً إلى الزكاة (التي تُحتسب على أساس عشر المداخيل). صدرت احتجاجات من هنا وهناك، لكن الملك مارس

سلطته وسرعان ما رضخ الأغنياء للأمر. أما الناس البسطاء فقد عبّروا، من جهتهم، عن فرحهم وأشادوا بالملك رئيس الدولة الشجاع والعادل.

أقام والد شهرزاد، وقد أصبح "ملك الفقراء"، حفل زفاف بسيطاً ومتواضعاً، بلا تبذير ولا بذخ. وقرّر دعوة كل العرسان المتزوجين في اليوم نفسه. حضر الفقراء بأعداد كبيرة. أما الأغنياء فآثروا الاحتفال في بيوتهم. ووجد الحاكم في الفكرة شيئاً من الأريحيّة، لكن زوجته، التي لم تتمكن من الاحتفال بزفاف ابنها كما كانت ترغب، رأت فيها نوعاً من الحرمان.

بدا العروسان الشابان في غاية الجمال حتى أن كل الحاضرين ابتهجوا بالنور المشعّ منهما.

تم قبول الهدايا شرط ألاّ تكون تفاخرية وباهظة الثمن. أتى بعضهم بمطرّزات بأيدي زوجاتهم، وغرس البعض الآخر شجرةً عند مدخل القصر، وقدّم آخرون مخطوطات تركها لهم أجداد أجدادهم. وخطر لأحد الفلاحين فكرة إهداء العروسين حماراً حديث المولد. كان يمشي ببطء وشعر بالارتياح بمجرد دخوله القصر، فاتّجه من تلقاء نفسه إلى المكان الذي عاش فيه السيّد حمار.

تمركز أخيراً في المنزل وكان يصدر من حين إلى آخر نهقة رضى بسيطة. كانوا يطعمونه العشب الطريّ، ويوماً بعد يوم تركّزت الأنظار على قفاه، وقد سلّى ذلك الملك. وانفجرت شهرزاد وأمين بالضحك عندما وصلهما الخبر.

في غضون ذلك اختفى الفلاّح. وفي الحقيقة هو لم يكن فلاّحاً

حقيقياً، إنها شمسة تنكّرت بزيّ رجل. وهي من خطرت لها هذه الفكرة. كانت الجنية موجودة نهار الزفاف لكنها حرصت على ألاّ يراها أحد. وحدها شهرزاد شعرت بوجودها وحدّثتها قليلاً. حتى أنها سمعتها تطالبها بالعصا السحرية التي نسيتها عند المامّا. لكن سرعان ما طمأنتها شمسة قائلةً: "لا عليك، سأذهب لإحضارها، فالحمار ليس جاهزاً للتغوّط بعد!".

بعد أيام من الزفاف، حجّ الملك إلى مكّة. كان عليه غسل آثامه والتخلّص نهائياً من تلك البقعة السوداء التي تحرمه النوم. فقد الكثير من الوزن وتنازل عن المزيد من صلاحياته. كان عليه الانبعاث في جسد جديد وذاكرة جديدة.

في المدينة المنوّرة حيث أقام دون الكشف عن هويته، تردّد على مجموعة من الشعراء الصوفيين الذين علّموه الزهد وبساطة حبّ الله. بعد بضعة أسابيع أصبح "متزهّداً"، أي أنه فقد الاهتمام بالممتلكات المادية وكرّس نفسه بالكامل للروحانية.

عند عودته إلى بلده، انعزل في كوخ صغير جاثم على أعلى الجبل وطلب من ابنته خلافته. وافقت على ذلك شرط مساءلة الشعب والحصول على موافقته. فاعتبرها أكثر من تسعين في المئة من الأصوات جديرةً بالخلافة.

كانت تلك المرّة الأولى في البلد تستلم السلطة فيها امرأة شابة وذكية، محترمة ونزيهة. رأى فيها العالم أجمع الأمل الذي طال انتظاره لإخراج البلد من التقليدية والرجعية. وجمعت حولها شباباً حيويّين ومثقفين. أمّا أولئك الذين صوّتوا ب"لا" فبتأثير من كبار

الملاّكين الذين عارضوا كلّ ما تقوم به.

وختاماً لقصة الحمار فقد راح يعطي ذهباً مرّة في الأسبوع، ما سمح للملكة بتمويل بناء بعض المستشفيات. وطلبت ألاّ يتم الكشف عن مصدر الأموال هذا. وأجرت حساباتها ووجدت أنها بحاجة إلى خمس سنوات لإتمام مشاريعها. ثم استفسرت من طبيب بيطري حول معدّل حياة هذا الجنس من الحيوانات فطمأنها بأنه يتراوح بين أربعين وخمسين سنة.

هذه قصة يصعب تصديقها. لكن إذا ما استثنينا تدخّل بعض الجنيات والمنطق، وإن وافقنا على فكرة أنه يمكن الطيبة والذكاء أن يجتمعا للتخفيف من آلام العالم وتناقضاته، يصبح كلّ شيء ممكناً بما في ذلك الحمار الذي يتغوّط ذهباً.

١٠

الأماني الفارغة

كان ما كان في قديم الزمان إسكافيٌّ فقير ظلمه الحظّ والحياة. كان يُدعى زاهر، أي "المحظوظ"، وقد بات مقتنعاً بأنه وُلِد في هذه الحياة نتيجة خطأ تعزوه العائلة إلى صيبة عين. عاش، مع هذا القدر السيّئ وقلّة الطعام والحرمان من الحبّ، في وحدة قاسية، وقد تزوّج نسيبةً له تكبره بخمس سنوات، ارتضت هذا الزواج على أساس أنه أفضل الممكن كونها هي أيضاً لا حظّ لها، ولم ينفعها انتماؤها إلى عائلة جيدة حسنة الصيت في إيجاد عريس لها. وكثيراً ما كانت تقول إن القدر يوم جمعهما كان مرهَقاً بالعمل فلم يُحسِن صنيعاً. وغالباً ما تبقى سيئة المزاج عاجزةً عن كبت غيرتها من شقيقاتها الصغريات المتزوجات جميعهنّ من رجال أغنياء ووسيمين.

كان اسمها ذا وقع جميل، "بُشْرى" أي "التي تبشِّر بالأخبار السارّة"، وكانت جميلة وحيوية ومندفعة. وبالرغم من الشقاء الذي

يرزحان تحته، هي وزوجها، ظلّت مصمّمة على الخروج من حالة البؤس هذه.

بطبيعة الحال لم يُرزقا أولاداً، وهذا أيضاً من دواعي شقائهما. وكان زاهر يصنّع البوابيج ويبيعها من الأجانب القلائل الذين يمرّون بالقرية. أما أهل القرية فكانوا ينتعلون الصنادل البلاستيكية ومعظمهم يشفق على "زاهر المسكين" الذي راح يغرق أكثر فأكثر في الحزن والكآبة. وبات الكلّ مقتنعاً بأنه لا يمكن مساعدته بشيء، وممّا كان يُقال عنه: "لا حظّ له! هذه هي الحياة، ناس تموت من التخمة وناس من الجوع!".

وإحساس زاهر هذا بأن لعنةً ما تُنكّد حياته هو وبشرى جعله مؤمناً بحتمية القدر. وإن صدف وشارك في الصلاة في المسجد الكبير، فما كان يطمئنّ أبداً. وفي أحد الأيام غادر المسجد وهو يشتم الحياة والعالم أجمع، وكاد أن يفقد عقله لفرط ما أطلق من شتائم. ذاك أن بابوجه الجميل من جلد النعاج قد سُرق من أمام باب المسجد، فقرّر عدم العودة إلى هذا المسجد الذي غالباً ما يغادره المصلّون حفاة.

في أحد أيام الجمعة، أقفل متجره قبل الموعد وذهب يتمشّى في الغابة على أمل أن ينسى هموم حياته. لم يكن هنالك أحد. فيوم الجمعة هذا، يوم الراحة والصلاة، اعتبر يوم خلاص. فقرّر القيام بالحماقات وبدأ يدخّن الحشيش. في ذلك الزمن كان الحرفيون يدخّنون حشيشة الكيف. أخرج زاهر غليونه الطويل وأسند ظهره إلى شجرة وراح يدخّن. ولم يلبث أن أعطى الحشيش مفعوله،

فتخيّل نفسه نائماً على غيمة صغيرة يمسكها ملائكة طارت به إلى أماكن رائعة. ثمّ تخيّل أنه تعرّض للهجوم والقتل، فارتعش قليلاً وقال في نفسه: "الموت أفضل من هذه الحياة التعيسة". وأغرقه تأثير الدخان في حالة انعدام الوعي تقريباً. وبالرغم من كل شيء، فكّر بزوجته التي تنتظره في المنزل وآلمته فكرة عجزه عن منحها ما تستحقّه كزوجة، وراح يسعل ويبصق من دون توقّف إذ ليس معتاداً على ابتلاع دخان تلك العشبة. فقال في نفسه: "حتى أنني لا أستطيع الهروب من واقعي عبر تنشّق قليلٍ من حشيش الكيف. أنا ملعون، وغير موفّق في أيّ شيء".

كان يمشي متمهّلاً عندما شقّ البرق كبد السماء. رفع رأسه ولم يرَ غيوماً. واختفت الملائكة، وكلّ شيء. من أين أتى هذا البرق المفاجئ؟ ثمّ سمع الرعد. كيف يحدث ذلك في سماء زرقاء إلى هذه الدرجة؟ ومجدّداً عزا ذلك إلى العشبة الملعونة وقال في نفسه: "لقد انتهى أمري. لم يبقَ أي شيء طبيعياً. هذا عقابي لأنني دخّنت هذا الشيء الذي يعتبره جميع الحرفيّين منشّطاً". ثمّ سمع صوتاً وخُيّل إليه أنه وسط مسرحية راح ممثلها الرئيسيّ يصرخ بأعلى صوته، فظنّ أنه مصابٌ بالحمّى وأنها هي سبب تلك الهلوسات. وفعلاً أحسّ بالحرارة والعرق يتصبّب من جبينه. توقّف عن تدخين غليونه، وجلس عند جذع شجرة وانتظر ريثما يزول هذا الدوار. ولم يلبث أن توقّف رأسه عن الدوران واستعاد نبض قلبه وتيرته الطبيعية. لكنه عجز عن الوقوف والعودة إلى منزله. فأقسم أنه لن يلمس بعد الآن هذا الغليون اللعين الذي أوصله إلى تلك الحالة.

وإذّاك سمع صوتاً يقول له:

– زاهر! أنت لست وليد خطأ! إن كنت تُدعى زاهر فلأن الحظّ في انتظارك... لكنك لا تتواجد أبداً حيث يمرّ. على كلّ حال يجب أن تكون أكثر دهاءً وأن تولي أهمّيةً لما فيك من حسنات. لكنه لم يرَ أحداً. ازداد قناعةً أنه ضحية ضربٍ من الجنون.

فتلفّت حوله لكنّه لم يرَ أحداً، ومجدّداً سمع الصوت الجهوري يقول له:

– لا، أنت لست مجنوناً. الحظّ يدور ويجب الإمساك به على الطاير. اسمعني جيداً. أعدك بتحقيق أول ثلاث أمنيات تتمنّاها. وليس هذا لعباً ولا مزاحاً، أنا جادّ في ما أقول.

فأجابه زاهر من دون أن يفوته حسّ الفكاهة:

– وإن يكن، لسنا في إحدى حكايات **ألف ليلة وليلة**.

– لا يا عزيزي، إنما في إحدى قصص شارل بيرو.

– آسف، لكنْ ليس هذا الرجل من بلادنا. لم أسمع باسمه من قبل.

– لا يهمّ، كفّ عن التحذلق وهاتِ أول أمنية من أمنياتك الثلاث. وإن لم تفعل شيئاً، سيتألم شارل المسكين في قبره. فطالما يستمر الناس في رواية قصصه يبقى حيّاً. لكن إذا صدف وشككنا بها، يصبح طيّ النسيان. النسيان كما تعرف، تلك الجرّة الضخمة التي يُرمى فيها الأشخاص الذين لا أهمية لهم والذين لا يذكرهم أحد. وتحت الجرّة، هنالك النار...

– إنه الجحيم!

– أحسنت، لقد فهمت قصدي. هيّا، أسرع...

– يجب أن أتشاور في الأمر مع زوجتي بشرى.

– ممتاز، أنت زوجٌ جيّد، إذاً سأنتظر.

خفّ زاهر إلى المنزل، يكاد يشعر بالسعادة في تشوّقه إلى إبلاغ الخبر السعيد لزوجته التي ما إن رأته على هذه الحالة حتى هتفت:

– آه! لا بدّ أنّك بعت مخزون البوابيج! أو قمت أخيراً بصفقة جيدة؟ أو صارحت جارك النذل الذي يسلبك الزبائن؟ لقد تجرأتَ أخيراً على رفع سعر البوابيج المَخيطة بخيوط الذهب؟

– لا، بل أفضل من ذلك. التقيت شخصاً خارقاً، شخصاً سيجعلنا أثرياء.

– الأشخاص الخارقون الذين يحرصون على سعادة غيرهم لا يتجوّلون في الشوارع، وأنت دوماً لا تحترس بما فيه الكفاية. أخبرني، ما القصة؟ فجأةً التقيت بشخص يكترث لحياتنا ويريد تحسين معيشتنا! يبدو أنّك دخّنت الحشيش. يا إلهي! اقترب قليلاً كي أشتمّ رائحة فمك... لقد دخّنت الكيف، الأمر واضح للعيان وللأنف. اذهب وضع رأسك تحت الماء وعد لمساعدتي.

أوضح لها أنه لا يتحدث عن إنسان بل عن صوتٍ آتٍ من السماء، فكادت بشرى تفقد وعيها.

– وأنتَ صدّقته! إنه الفقر يُريك الأوهام يا صديقي المسكين. ليس أنك دخّنت وحسب، بل يبدو أنك أكلت قطعة حلوى من تلك التي تُحشى بمكوّنات تسبّب الهلوسة. ضع بقجتك أرضاً وتعال

ساعدني في جلي الصحون.

أصرّ زاهر ثمّ اقترح أن يتمنّى أمنية واحدة، فقط للتحقّق. فجلس أمام المدفأة وراح يحلم بصوتٍ عالٍ:

– أودّ أن أرى على هذه النار خروفاً صغيراً يُشوّى على مهل...

وقد بدأ لعابه يسيل. أما زوجته المديرة ظهرها فظلّت تسخر منه:

– هو كذلك، حمل وجرّة زيت زيتون وجرّة أخرى من السمن والقمح والسميد والبلح والزبيب. ما يكفينا لفصل الشتاء بأكمله...

لكن كلّما كانت تعدّد أمنياتها كانت تتحقّق، وزاهر لم يكد يتفاجأ فقال لها:

– انظري!

كادت أنفاس بشرى أن تنقطع، فقد رأت خروفاً رضيعاً يدور على سيخ فوق النار، وأكياساً وجراراً مرصوفةً بجانب المدفأة! لكن لم يكفِها كل ذلك فأعطت ملاحظة أحزنت زوجها:

– أنت لا تفكّر إلا في الأكل، وبدل أن تطلب ذهباً ولؤلؤاً وألماساً تطلب خروفاً! يا لك من رجل مسكين. عهدتك أحمق إنما ليس إلى هذه الدرجة. ولحسن الحظّ لا تزال أمامنا أمنيتان يبدو أن السماء مستعدّة لتحقيقهما لك. السماء أو رجلك الغريب الأطوار هذا.

– حسناً. لنذهب إلى الغابة، وهذه المرّة فلنفكّر جيداً قبل أن

نتفوّه بأية كلمة.

شعر زاهر بالانزعاج وببعض الإهانة، ومن باب الانتقام خطر له لوهلة أن يتمنّى أن يصبح أرمل، لكنه لم يقدم على ذلك كونه رجلاً صالحاً ورقيقاً كَلُبِّ رغيف الخبز.

الفقر مُرشِد السوء، يحمل الناس على ارتكاب الأخطاء وادّعاء ما ليسوا عليه وإلى انتهاك المحظور. كان زاهر يعي كلّ ذلك، لكنه لم يكن يعرف كيف يجعل زوجته ترضى بالواقع وتشكر الله لأنها بصحّة جيدة.

– أتعرفين يا بشرى أن أفضل رأسمال للإنسان هو الصحة، صحة الجسد والروح؟

– نعم أعرف كلامك الفارغ هذا... أن تكون بصحة جيّدة وتموت جوعاً... أن تكون بصحة جيدة وتتأمّل مغيب الشمس... ما لنا وكلّ هذا؟ أريد أن أكون جميلة وثرية، أريد أن أكون مكسوةً بالجواهر والأثواب الرائعة، أريد أن أكون محطّ الأنظار، وان أُحسَد على معيشتي... أريد كلّ شيء، والخروج نهائياً من الفقر والتمتّع بالحياة بكلّ جوارحي. لقد سئمت هذه الحياة الوضيعة والمزرية...

– لكننا نحبّ بعضنا البعض! أنا أحبك، ولن أقوى على العيش بدونك...

– نعم، أنت محقّ، توقّف عن العيش في الأوهام.

– بما أنك تشكّكين في كلّ شيء، تعالي معي إلى الغابة وستسمعين صوت الشخص الذي يريد تحقيق أمنياتنا.

كان زاهر مضطرباً جدّاً، لكنه فرض الصمت لحظة دخول الغابة. أشار على زوجته بالسكوت. كانت بشرى تحمل الخروف المشوي حول عنقها، غير قادرة على نزعه عنها كما لو أنّه التصق بجلدها، فراحت ترغي وتزبد أكثر فأكثر، وانفجر زوجها بالضحك ما زاد من غضبها. أصبحت الآن كريهةً بالدهن السائل على وجنتيها وكتفيها. وكلّما فكرت في ما ستتطلبه زاد تغيّر شكلها الخارجي.

- أمنيتك هذه فخّ! كلّ هذا غلطتك. برهن عن رجولتك وخلّصني من تلك اللحمة الكريهة، لا أستطيع نزعها عن جلدي. اطلب من رجلك أن ينزعها عنّي إن كان موجوداً حقاً.

لم ينزل زاهر عند رغبة بشرى، وتناول قطعة لحم كبيرة منعته من الكلام. في الوقت نفسه، كان شكل بشرى يزداد تغيّراً. فراح جسدها يسمن على مرأى العين المجرّدة وأنفها يتضخّم بشكل مقلق. فما العمل الآن بتلك المرأة التي خطئت مع روحها فانتقمت منها هذه الأخيرة بتقبيحها؟

لم ينبس بكلمة، وراح يفكّر في نفسه وهو ينظر إليها: "يمكنني أيضاً أن أتمنّى أن أصبح ملكاً، فهو منصب أفضل وأكثر ثباتاً من الرئاسة. فالرئيس يخضع لتصويت الشعب، بينما إذا أصبحت ملكاً سأقرّر وأدير كلّ شيء وحدي. لكن وحدي، أهذا أمرٌ جيّد؟ السلطة! يا للخطأ! وكيف يمكنني الجلوس إلى جانب ملكة بهذا القبح ذات أنف ضخم إلى هذا الحدّ وصدر مسطّح وعجيزة ثقيلة، وتنبعث من فمها رائحة كريهة؟ وما الذي سأفعله بكلّ هذا الذهب وكلّ هذه السلطة؟ القيادة لا تستهويني، لطالما لامتني زوجتي على

ذلك. لا أصلح رئيساً فكيف بالأحرى ديكتاتوراً. فأنا أريد السعادة للجميع ومستعدّ للتضحية بسعادتي كي يتمكن الآخرون من العيش برخاء وكرامة. لذا لن أطلب أمنيةً ثانية إن لم تكن البقاء بصحّة جيّدة والتمتّع بحالة صفاء عميمة تبلغ نفس زوجتي وتجعلها لطيفة وطيّبة وسمحاء. أليس من الأفضل لها أن تكون جميلة ومتواضعة بكونها زوجة حرفيّ بسيطة، بدل أن تكون قبيحة وبدينة ومتزوّجة من ملك؟ لا فائدة من السعي وراء المجد والمال. الزهوّ سمّ، وأنا أفضّل صنع البوابيج على إعطاء الأوامر لزمرة من الناس البؤساء!

وكأن بشرى سمعته، فبصقت قطعة اللحم وصرخت بكامل قواها:

– لا طموح، لا شيء، فقط القبول بمشيئة القدر! أنت لست رجلاً، لست رجلاً حقيقياً، غازياً، أسداً، ذئباً، محارباً. لا. أنت بسيط. أنت مجرّد حرفيّ صغير يكتفي بالقليل. أنا من طينة أخرى! أنا أريد أن أكون ملكة، امرأة مهمّة تجلس بجانب العرش. سأكون جميلة لأن المنصب جميل. بدل ذلك يا زوجي المسكين، أنت تحلم بأمور صغيرة تافهة، وأنت عاجز عن اغتنام فرصة لا تتوفّر سوى مرّة واحدة في الحياة. ذلك أن زاهري متواضع! متواضع وأبله!

وإذا السماء ترعد وتبرق وارتجّ الغاب بأكمله، وراحت الحيوانات تركض في كلّ الاتّجاهات، ونفرت العصافير عن أغصانها مبتعدةً عن المكان. إذّاك نظر زاهر إلى زوجته نظرة إشفاق، حتى أنه عطف عليها. ثمّ بدأت تبكي آسفةً على ما قالته للتوّ تحت تأثير الغضب

والبؤس. فقال لها زاهر إن ممارسة الحكم، بمعزل عن المظاهر، مهمّة أصعب جدّاً، وإنهما غير مهيَّأين لها. فمن الأفضل إذن العدول عنها وإظهار بعض البساطة والتواضع. وسألها زاهر بعد أن ضمّها بين ذراعيه ومسح دموعها وبقايا دهن الخروف عن وجهها ورقبتها وصدرها:

– والآن، ماذا تتمنّين؟

– أن أعود إلى ما كنت عليه، امرأة بسيطة وطبيعية.

سُمع حينها الصوت يطالب بذكر الأمنيتين الأخريين.

لم يُجِب الزوجان، فعاد الصوت يقول:

– إذن أنتما لا تريدان لا ذهباً ولا ماساً، لا مالاً ولا مجوهرات. ولا تريدان حتّى عرشاً؟ أنتما حكيمان جداً وإنني أرى فيك بذرة رجل متميّز، إنساناً صالحاً وطيّباً، وليس ضعيفاً كما يظنّ الآخرون. لكنني أريد أن أسمع بلسان زوجتك ما هي أقوى رغباتها...

رجا زاهر زوجته أن تتكلّم، وفي الحال سقط الحَمَل فمسحت وجنتيها وكتفيها، وإذ همّت بالكلام استعادت شكلها السابق:

– أعرف أن البؤس يصيبنا بالعمى والحسد والغيرة، وهو يملأنا مشاعر سيئة. يفتح البؤس فجوات في نفوسنا ويمنعنا من رؤية الحقيقة. نحن نتمتع بصحّة جيدة وليس عندنا أولاد، لكن بإمكاننا التبنّي. يجب أن نقنع بما وهبتنا إياه السماء، ولو قليلاً، ونتدبّر أمرنا بما قُسِّم لنا. كلّ ما أريده هو العودة إلى منزلنا، إلى بيتنا، والعيش في كنف زوجي وحبّه. لكن لو سمحت، اترك لنا جرار القمح وزيت الزيتون والعسل. ربما نحن استحققناها هكذا نتمكن من إمضاء شتاء

أقلّ قساوةً من السنوات الماضية. كل هذا صحّي...

ثمّ، وكأنها أحسّت أنها تنازلت كثيراً في هذه المساومة، طلبت أموراً أخرى:

– نعم، الصحة وبعض المجوهرات، فقط ما يكفي لإثارة شيءٍ من الحسد والغيرة عند شقيقاتي اللواتي يحتقرنني لأنني فقيرة... وامنح زاهر القدرة على توسيع متجره وإيجاد زبائن جدد... بعض التحسين في حياتنا اليومية ونحن لك من الشاكرين.

فتوجّه الصوت إلى الزوج قائلاً:

– وأنت، هل توافق على ما تطلبه زوجتك؟

– نعم، أودّ أن يكون لي ما يكفي من القوة للمبادرة إلى أمور جديدة وما يكفي من الطاقة لتغيير حياتنا.

فردّ الصوت:

– لكن هذا وقفٌ عليك فقط. أنا أصنع المعجزات ولا أفبرك حياة الناس. قُمْ وباشر العمل. أما زوجتك، فلتعمل على صقل مزاياها ولتنسَ عيوبها. إلى اللّقاء أيها الطيّبون!

سكت الصوت، فعادت الحيوانات تأوي إلى مخابئها. أما الطيور فانصرفت إلى رقصة باليه فخمة في السماء الزرقاء راسمةً أشكالاً متناسقة سحرت الزوجين المرهقين. كانت تلك إشارة إلى أن الحياة ستجود عليهما والسماء سترأف بهما.

يداً بيد عاد زاهر وبشرى إلى منزلهما مطمئنَّي البال وسعيدين لأنهما تخلّصا من تلك الأوهام التي غالباً ما تؤذي أكثر ممّا تفيد. وفي تلك الليلة مارسا الحبّ عدّة مرّات. وكانت تلك بداية حياة جديدة

لهما. وبعد بضعة أسابيع حبلت بشرى. ولم يُسمع الصوت بعدها قطّ في الغابة، فتأكّدا أنهما عاشا حلماً أو اختلقا كلّ شيء ليتمكنا في النهاية من إيجاد سبيل التجدّد.

'عشر ليالٍ وراوٍ' حكايات للكاتب الفرنسي شارل بيرو، مستمدة من أساطير الأسلاف وخرافاتهم، يرويها الطاهر بن جلّون على طريقة شهرزاد في 'ألف ليلة وليلة'. تأخذنا هذه الحكايات إلى عوالم بيرو الساحرة، التي أسبغ عليها الكاتب فتنة الشرق وسحره.

ثمة مفاجآت مدهشة، وطرائف حاذقة، ومواقف مثيرة تتخلل هذه الحكايات، كلّها على موعد مع القارىء.

لا شكّ أن هذا الكتاب هو من أكثر ما خطّ قلم الطاهر بن جلّون فتنةً وسحراً.

الطاهر بن جلون كاتب وروائي مغربي حائز جائزة غونكور الفرنسية عام 1987 وجائزة 'إمباك الأدبية' عام 2000. ترجمت رواياته إلى العديد من اللغات.

ISBN 978-6-14425-891-0

9 786144 258910 >

DAR AL SAQI

دار الساقي

www.daralsaqi.com